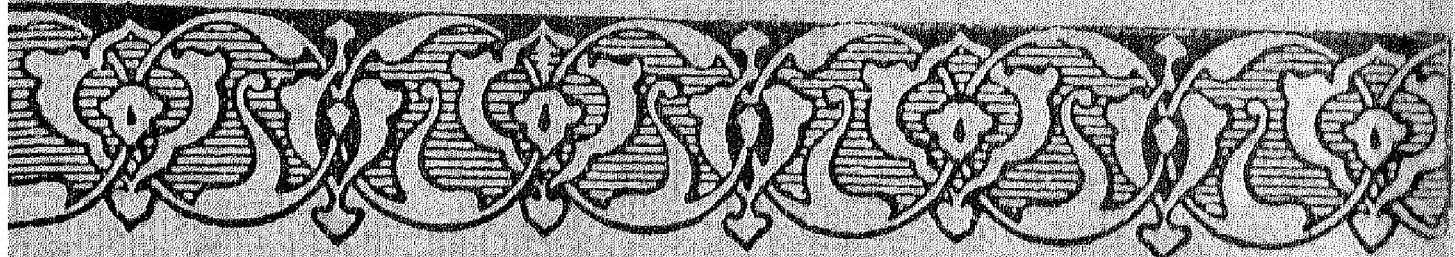


بشائر النبوة الخاتمة

تأليف
الدكتور رءوف شلبي

سلسلة البحوث الإسلامية

السنة الخامسة - العدد ٦٩ - ١٥ من رمضان ١٣٩٣ هـ أكتوبر ١٩٧٣ م



بشائر النبوة الخاتمة

تأليف
الدكتور عوف شلبي

المقاومة
الرئيسية العامة لشيء المطابع الأميرية

١٣٩٣ هـ — ١٩٧٣ م

تقديم

لفضيلة الدكتور محمد عبد الرحمن بيصار

الرئيس العام لجمعية البحوث الإسلامية

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الداعي
إلى الحق وإلى صراط مستقيم ، ورضي الله تبارك وتعالى عن أصحاب
رسول الله والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .
وبعد ...

فإن دلائل النبوة وعلاماتها وبشائرها ستظل دليلاً واضحاً على نبوة
سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . ذلك لأن الله هو الذي اختاره نبياً خاتماً
وهو الذي بيده مقاليد السموات والأرض يصرف الأمور على نسق
يحقق دائماً لنبيه أدلة أنه رسول الله العاقب . ودلائل النبوة فيما قبل الرسالة
تمثل عنصراً هاماً عند الدارسين للدعوة الإسلامية لأنها تفسر كثيراً
من مجريات الأمور عند التبليغ .

إنها تاقى ظلالاً كاملة على إيمان النجاشي دون تردد منه أو مطالبة
بالدليل ، وتلقى ظلالاً كاملة - كذلك - على إيمان سلمان الفارسي ،
وعبد الله بن سلام ، كما تفسح أسرار المعاندين أمثال أبي جهل
وأبي لهب رغم اعتقادهم صحة النبوة من عند الله لرسوله الخاتم عليه أفضل
الصلاة والسلام .

والكتاب الذي نقدم له اليوم ليس فقط سرداً للدلائل النبوة

كما فعل القدامى — وجزاهم الله خيراً — بل هو تحليل اجتماعي لظروف المجتمع العربي الذي عاصر نشأة الدعوة ، وربط بين سلوك الناس فيه ومبادئ الدعوة طرداً وعكساً ، وتوضيح للتفاعل الاجتماعي الذي أثارته الارهاصات بالنبوة حتى غدت حديث العلماء من اليهود والنصارى مع مثقفي العرب ، وظهرت الجزيرة العربية في ثوب معرفي أضاعته البشائر بعلامات من العلم عند أهل الكتاب ، وعلامات خارقة للعادة من عند الله وعلامات من المواريث الثقافية عن جد الأنبياء سيدنا إبراهيم .

ومع هذا يضيف الكتاب فقهاً جديداً لمفهوم التحنث وبشرية الأنبياء كما يصفى المعركة العلمية بين علماء الأخلاق فيما يتعلق بالأخلاقيات في المجتمع العربي ، ثم يقدم أدلة على صدق مهمة البشائر فيما قبل الرسالة وبما لها من أثر مبارك في الذين أسلموا وآمنوا واعتزوا برسالة الإسلام دون طلب دليل أو حجة مثل السيدة خديجة رضي الله عنها وأرضاها والصدِّيق الصدِّيق أبو بكر رضي الله عنه وبلال وعلي . . . الخ .

وبالجملة فإن هذا الكتاب دراسة مهمة لمن يهتم بشئون الدعوة الإسلامية كمرحلة تمهيد للدعوة قبل عهدها المكّي ليفسر كثيراً من الأحداث فيما بعد عند التبليغ نقدمه معترزين به مقاديرين للدكتور رعوف شلبي إخلاصه في خدمة الإسلام والمسلمين . نسأل الله تعالى أن ينفع به وأن يوفقنا جميعاً لما فيه الخير والسداد .

دكتور محمد عبد الرحمن بيصار

الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية

مقدمة المؤلف

دراسة الدعوة الإسلامية في العهد الحديث تتطلب منا منهجياً التعرف عليها أول نشأتها في العهد المكي ، ثم ظروف امتدادها في العهد المدني حتى يتسنى للدارسين لها حديثاً التعرف على مناهجها ووسائلها ومراحل تبليغها ، ويسبق هذه الدراسة بالطبع التعرف على طبيعة المجتمع العربي الذي نشأت فيه وما كان له من خصائص كانت كالتربة العادية للبذرة الصالحة القادرة على الإنبات في هذه التربة ، ثم ما لها من الخصائص بعد الإنبات لتستوى على سوقها في مناخ آخر لأن صلاحيتها للحياة من ذاتها ، وكانت البيئة العربية الأولى هي التربة العادية غير المنحرفة لإنبات الدعوة الإسلامية . . . ولهذا تتوجه هذه الدراسة لإبراز هذه الخصائص في جو الارهاصات بالنبوة الخاتمة التي هيأ الله سبحانه وتعالى المجتمع العربي ليكون الحقل العادي لاستقبال هذه الدعوة ، كما هيأ حبيبه محمداً صلى الله عليه وسلم ليكون للعالمين نذيراً ووقعت هذه الدراسة في بابين :

الباب الأول : لإبراز حقيقة تاريخية هني أن الله سبحانه وتعالى هيا
النبي صلى الله عليه وسلم والمجتمع لاستقبال الرسالة الأخيرة ، واندرج
تحت هذا الباب فصلان :

الفصل الأول :

تصوير للبيئة العربية وهى البويرة التى ستظهر فيها الدعوة الإسلامية
وقد أثبتت الدراسات فى هذا الفصل أن المجتمع العربى فى مكة كان
أفضل مجتمع احتوى على امتيازات تؤهله بالانفراد لاستقبال هذه
الدعوة .

لقد كان هناك الحنفاء الذين يوحدون الله جل شأنه وينتظرون النبي
العاقب ومن أمثلة هؤلاء قس بن ساعدة الأيادى وزيد بن عمرو بن نفيل
وقد جعل الإمام البخارى لحديثه هذا باباً خاصاً شرحه الإمام ابن
حجر فى كتابه الجليل فتح البارى^(١) .

وكان هناك الباحثون عن العدل الدينى فقد امتازت الفطرة فى البيئة
العربية بأنها تؤمن بالله وكان هناك فريق يتأفف من عبادة الاصنام. فراح
يبحث عن العدل فى هذه القضية وكان من أمثلة هؤلاء ورقة بن نوفل
وعبيد الله بن جحش ، وزيد بن عمرو بن نفيل كذلك، وكان فى البيئة

(١) راجع ج ٨ ص ١٤٢ .

العربية من الحكماء من يدين بالتنزيه والتوحيد لله جل شأنه وكان عامر ابن الظرب ، وأكثم بن صيفي وعبد المطلب بن هاشم جد النبي صلى الله عليه وسلم من نماذج هؤلاء الحكماء الذين آمنوا بالتوحيد والتنزيه قبل الرسالة .

وللحمس شدة وتعصب في دينهم الذي يفتخرون بالنسبة إليه لأنهم من سلالة سيدنا إبراهيم الذي رفع القواعد من البيت فهم أشد الناس تحمساً لملته ودينه فكانوا في هذا السلوك حمساً أشداء .

ومع هذا فقد كان العدل الاجتماعي خلقية أبية كريمة صورها حلف الفضول ، لقد تعاقدوا فيه على رد المظالم إلى أهلها دون أجر يراد أو شكر ينتظر ، فكانت البيئة العربية في القرون الوسطى فيما قبل الرسالة أفضل من الدول الحديثة التي لا تبرم المعاهدات إلا بعد موازنة للربح والخسارة ونقضها من أجل تغير الجو السياسي أمر مألوف معهود ، وقد زكى رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الحلف لسموه ورفعة شأنه في الميراث الأخلاقي والعدل الاجتماعي فقال صلى الله عليه وسلم : « لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لى به جمر النعم ، ولو دعيت به في الإسلام لأجبت » .

وكانت التقاليد والعادات في البيئة العربية بغض النظر عن الانحرافات التي كانت موجودة آنذاك أفضل التقاليد والعادات الموجودة في البيئات الأخرى :

الكاتبين من علماء المسلمين فيما ذهبوا إليه من تصوير البيئة العربية على أنها كانت في ظلام دامس وانحراف مزعج استحق أن يوجد فيهم رسول ليهديهم إلى الصلاح والهدى ، وليست تلك مهمة الرسول ، وإلا كانت سهلة ميسرة وقبل الناس بكل ارتياح وترحاب لأنهم كانوا يحبون الفضيلة وفتخرون بالشرف والحسب ويعتزون بطهارة العرض وكرامة المحتد . -

وقد استندت في ضوابط هذه الخلقية إلى ما كتبه العلامة ابن خلدون وينتهي هذا الفصل بحقيقة : « لقد كانت أم القرى والحزيرة العربية خير مركز لرسالة الإسلام » .

وكانت الأمة العربية بخصائصها النفسية ومزاياها الآدمية خير أمة لاستقبال هذا الدين الحنيف ، كما يشهد بذلك العالم الإسلامى الهندى الكبير السيد أبو الحسن على الحسينى الندوى^(١) .

الفصل الثانى :

عالج قضية أساسية فى التصور الإسلامى كثيراً ما يعرضها المثقفون عرضاً غير دقيق ، هذه القضية هى بشرية النبي صلى الله عليه وسلم ، ولقد أثبتت النصوص الصحيحة أن النبي صلى الله عليه وسلم اختير

(١) راجع كتاب ماذا خسر العالم بالخطا المسلمين ص ٨٢ .

للمرسالة وآدم منجدل في طينته ، وأنه بشاره عيسى بن مريم ورويا
أمه ورويا أمهات الأنبياء حق ، فالحديث عن بشرية الرسول صلى الله
عليه وسلم ينبغى أن يلاحظ فيه :

أنه اختير للمرسالة منذ الأزل .

وأنه بشاره عيسى .

وأن الله أعلم حيث يجعل رسالته :

وأن الله قد أخذ عهداً وميثاقاً على الأنبياء من قبله أن يبشروا به
ويعزروه وينصروه .

ومن هنا فإن إعداد الرسول صلى الله عليه وسلم للمرسالة كان
منذ شيء له أن يكون رسولا .

فولادته وما أحاطها من البركات والإرهاصات ورضاعه وما شمله
الله به من العناية .

وشق صدره الكريم مرات عدة :

ورعيه الغنم :

ونهميه عن كشف العورة .

وعصمته من الإتيان بشيء من أفعال الجاهلية وهو في سن الشباب .
كل ذلك لا ينبغي أن يدرس من زاوية البشرية العادية التي تخضع
لعلم النفس ودراسة علم الاجتماع ونظريات التربية . فان بشرية الرسول
صلى الله عليه وسلم فوق حدود نظريات علم النفس وعلم الاجتماع
والتربية .

إنها بشرية (يوحى إلى) بشرية من قال له ربه :
(ألم يجدك يتيما فآوى .
ووجدك ضالا فهدى .
ووجدك عائلا فأغنى) .
إنها بشرية من قال له الله :
(فإنك بأعيننا) .
(وإنك لعلى خلق عظيم) .

وعلى هذا فالوصف بالنبوة والرسالة هي الأوصاف الطبيعية
الحتيكية للنبي صلى الله عليه وسلم لأنه خاتمها وقلادة عقدها الأخير
وأنه الماحى الذى يمحى الله به الكفر وهو العاقب الذى لا نبي من بعده
أبداً .

أما العبقورية والزعامة والقيادة فهي أوصاف بشرية عادية تتكرر
وتتفاوت وتتغير وتتضاد وتجتمع وتنفرد وتتجدد .

وإذن فمن زاوية الدراسة العلمية الإسلامية لا ينبغي أن تتخذ بشرية الرسول موضع دراسة في العبقرية أو الزعامة أو القيادة :

فإنما هو بشر « يوحى إليه » وهو وحده الذى وسعت أقطار نفسه الشريفة أن يتحمل الوحي بأثقاله وأن يتجاوز السموات السبع حتى سادرة المنتهى . فأين الباحثون جميعاً بذكائهم وتخصصاتهم من تلك المقامات السامية التى لا يناهها إلا من قيل له : (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) .

ولم تكن هذه البشرية السوية كما اصطاحت عليها فى هذه الدراسة منعزلة عن المجتمع كل الانعزال ولا منغمسة فيه كل المغامرة : لقد كانت بشرية سوية أعدها الله محصنة بريئة من القدرة على استقبال عدوى لا تتفق مع طبيعتها النبوية .

فاليتم .

ورعى الغنم على قراريط .

والعمل فى التجارة .

والمشاركة فى حلف الفضول .

تربية خاصة .

لقد عاشر المجتمع وظهرت آثار هذه التربية . فاقبوه بالأمين : وهم قوم ليس عندهم تقاليد كسرى وقيصر ولا نياشين فارس ولا ألقاب

الروم إنها مشيخة تدين فيها الذرية للمجد الأكبر ولكن المجتمع العربي اتفق طواعية منه على أن يعطى محمداً صلى الله عليه وسلم هذا اللقب وحده (الأمين) فقد كان موثلاً سرهم وأمين ودائعهم ، والقاضي في مداهمات أمورهم . كان وحده في المجتمع قاطبة ، كان الأمين .

فتدربت هذه الشخصية السوية على كل أنماط الحياة في المجتمع وعاشت حياة البشر في كل مستوياتها فحصلت له بالممارسة معرفة بثقافة البيئة وتعرف على حاجات الناس ومشكلاتهم ، وذلك القدر من الأعداد هو ما يحير الاختصاصيين في معاهد التدريب في العالم كله لأن الحساسية الاجتماعية التي يدرك بها المصلح الاجتماعي آلام الناس وحاجاتهم لا تتربى في وسط قاعة محاضرات ومجموعات النظريات والكتب والمحاضرين والمناقشين ، ولكنها ترتبط أصلاً بالتدريب الميداني الذي يصطلح عليه حديثاً العاملون في حقل خدمة المجتمع .

ولقد سبقت مرحلة التمهيد للدعوة الإسلامية جميع نظريات الإصلاح الاجتماعي بهذه التربية الإلهية التي أعد الله بها حبيبته محمداً صلى الله عليه وسلم ليكون النبي الخاتم للعالمين أجمعين .

وينتهي هذا الفصل وقد قرر حقيقتين :

الأولى : أن بشرية رسول الله صلى الله عليه وسلم بشرية الأنبياء لا تخضع لدراسة العلوم البشرية الحديثة لأنها فوق جميع نظريات علوم التربية والنفس والاجتماع الخ .

الثانية : أن الله قد هيا نبياه صلى الله عليه وسلم بتدريب كامل اشتمل على ثقافة المجتمع الذي يعيش فيه دون أن ينفعل بهذه الثقافة ، وأن المجتمع قد احترم فيه بشريته السوية فلقبوه بالأمين ، وهو لقب يتم على مدى الدهر كله اختص به رسول الله صلى الله عليه وسلم فشهد المجتمع بذلك أن محمداً صلى الله عليه وسلم من قبل البعثة وهو في أعلى ذروة من الثقة والأخلاق الحميدة .

الباب الثاني وتحتة فصلان :

الفصل الأول :

في التحدث وقد أكدت الدراسات في هذا الفصل أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يسلم عليه الحجر إيداناً بقرب يوم اللقاء بين البشرية السوية والوحي الأمين وقد خاض العلماء في مسألة الشرع الذي كان يتعبد به النبي صلى الله عليه وسلم في غار حراء وهي مسألة خاصة بالتربية الإلهية لنبيه صلى الله عليه وسلم لا سبيل إلى علم من علوم الفقهاء لدراستها وبحثها وقد استخلصت من شروح العلماء أن بدء النبوة كان بالرؤيا الصادقة وأن بدء إعلان هذه النبوة كان بالوحي وعلى هذا فإن النبي صلى الله عليه وسلم ذهب إلى غار حراء نبياً .
ففي مسلم : « إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم على قبل أن أبعث إني لأعرفه الآن » وذلك قبل الرؤيا الصادقة .

قال القسطلاني :

أول ما بدئ به عليه الصلاة والسلام من الوحي الرؤيا الصالحة ثم

حبيب إليه الخلاء فكان يخلو بغار حراء — كما مر — فدل على أن الخلوة حكم مرتب على الوحي لأن كلمة ثم للترتيب .

والرويا الصالحة وحي تترتب عليه أحكام شرعية لقد نفذ سيدنا إبراهيم رؤيته : (يا بنى لى أرى فى المنام أنى أذبحك) .

ونخضع سيدنا إسماعيل ، وتله أبوه للمجبن ثم ناداه ربه أن قد صدقت الرؤيا وفداه بذبح عظيم :

والرسول صلى الله عليه وسلم عام الحديبية أعد ركب الحجيج إلى مكة معتمراً تنفيذاً لرؤياه : (لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين) .

ولا يختلف العلماء فى أن الرويا الصادقة جزء من الوحي . وعلى هذا فإن التحنث فى غار حراء كان تعبداً من نبى بدأه الله بالنبوة بالرويا تمهيداً وتوطئة لإعلانها له فى اليقظة على نحو ما قاله ابن حجر .

وينزل الوحي معلناً النبوة والرسالة . وتمضى العلاقات بين النبى صلى الله عليه وسلم وربّه على مستواها الخاص ولكن بعض الروايات تدرج كلاماً لا يتفق مع منزلة الرسول صلى الله عليه وسلم ولا مع مستوى العلاقة بين النبى وربّه . . فيقولون فى فترة الوحي : إنه حزن حزناً غداً منه مراراً كى يتردى من رعوس شواحق الجبال .

ومع أن هذه المدرجات أو البلاغات قد نفاها أحد العلماء المختصين فى الحديث وعلومه فضيلة الأستاذ الشيخ الدكتور محمد أبو شهبه وجزاه الله خيراً غير أن علماءنا الأجلاء السابقين قد تركوها ودافعوا عنها ،

فتمعرضت لها لأنفها مطلقاً برواية يتحدث فيها الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه عن فترة الوحي ولا يملك أحد مطلقاً بعد النبي صلى الله عليه وسلم أن يتحدث عن هذه الفترة بعد أن تحدث هو عنها لأنه الصادق المصدوق وهو الأعلم بحاله مع ربه وهي رواية البخارى عن ابن شهاب عن أبى سلمة بن عبد الرحمن عن جابر بن عبد الله الأنصارى رضى الله عنهم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم — وهو يتحدث عن فترة الوحي — : بينما أنا أمشى سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصري فاذا الملك الذى جاءنى بجراى جالس على كرسى بين السماء والأرض ففرقت منه فرجعت وقلت زماونى زماونى .

وليس لأحد بعد رسول الله رأى أو فقه أو رواية .

الفصل الثانى :

فى اختبار مرحلة التمهيد بعد وجود اللقاء بين النبوة التى وعى الله المجتمع لها بإرهاصات وبين الناس الذين عاشوا لحظات هذه التوعية قبل الرسالة وفى مقدمة هذا الفصل ناقشت المدرسة العقائدية التى تنفى مقدمات دلائل النبوة^١ متعللين بأن مواجهة العرب للدعوة كان منشؤها المفاجأة ويصور هذه المدرسة فضيلة الدكتور محمد خليل الهراس، ولو أن فضيلته اتخذ منهجاً محدداً فى رد دلائل النبوة لكانت المناقشة مع فضيلته فى إطار أكاديمى لكنه اضطرب فثار وهو يعلق على كتاب « الخصائص الكبرى » للإمام السيوطى « ينفى الإرهاصات ويدعى أنها خرافات، وأن إثبات النبوة والرسالة ليس فى حاجة إلى

هذا ، ومرة يعلن : الموافقة فوضعت أمام نفسه في هذا التعارض ثم قدمت إليه دلائل النبوة للأنبياء السابقين من القرآن الكريم وأشارت إلى فصول في كتب العلماء الأجلاء خاصة بهذه الدلائل ، واكتفيت في هذه المقدمة للفصل الثاني بأن أثبت أن مرحلة التمهيد أو دلائل النبوة سنة مسنونة بين الله وأنبيائه .

ثم اختبرت مرحلة التمهيد للدعوة الإسلامية التي عقدتها في الباب الأول ووضعت لهذا الاختبار نماذج منها :

- * أقرب الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنهم الاعرف بحاله وسلوكه وهى السيدة خديجة رضى الله عنها .
- * ثم أعرف الناس بكتاب الإنجيل والتوراة وهم ورقة . والنجاشى ونسطورا ، وبحيرا .
- * ثم علماء اليهود وفي مقدمتهم : عبد الله بن سلام ونخيريقي .
- أما خديجة رضى الله عنها فلقد قالتها في حزم وجد وصدق وإيمان ويقين منذ اللحظة الأولى وهو يخبرها بما يرى من الرؤيا الصادقة :
- إنى لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة .
- وأثبت في هذه الدراسة عن حياة السيدة خديجة مع النبي صلى الله عليه وسلم أنها :

* وضعت أساس أسرة الداعية الذي ينبغي أن يتصدى لدعوة الله وما ينبغي أن تكون عليه من المعرفة والثقة والمعاونة .

* وأنها قدمت للتاريخ دليل النبوة للنبي صلى الله عليه وسلم بحاله وتصرفاته وأخلاقه فعطلت بذلك مدارس علم الكلام كلها .

* وأنها أول من بدأ اختبار الملاحظة وتطبيق المنطق التجريبي عمليا .

* وأنها رفضت الزواج وهي العاقلة الحازمة الشريفة بعد أن تزوجت مرتين^(١) لأنها كانت تنتظر معرفة الرجل ذى الأوصاف النبوية التى أخبر بها اليهودى نساء قريش يوم أن اجتمعن فى عيد لهن وحصيته النساء ووعت خديجة وحدها ذلك . فلما ظهرت دلائل النبوة كانت مصدقة مقرة مؤمنة ولذلك بشرها ربها ببيت فى الجنة من القصب ، وهدية الله لها تكريماً لوفائها وتصديقها لأحب الأنبياء إلى ربه .

وأما ورقة : فقد أقر بالنبوة والرسالة وحدد معالم الطريق كله وتمنى أن يكون فى جدعا إذ يخرجهم قومه .

(١) تزوجت من عتيق بن عابد : وأنجبت منه بنتا هى ، هند أم محمد بن صفيى الخزومى ومن أبى هالة هند ، فأنجبت له ولدا ذكرا اسمه هالة وآخر اسمه هند ج ١ ص ١٦٧ الحلبية .

وأما النجاشي : فقد أقر بأن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة .

وأما بحيرا : فقد قال لأبي طالب ارجع بابن أخيك إلى بلده واحذر عليه يهود فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ماعرفت ليغنه شراً فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم .

وأما نسطورا : فقد قال لميسرة : هو نبي ، وهو آخر الأنبياء تم دنا من النبي صلى الله عليه وسلم وقبل رأسه وقال : آمنت بك وأنا أشهد أنك الذي ذكره الله في التوراة ، وتستمر هذه الاختبارات تؤكد صحة مرحلة دلائل النبوة أو مرحلة التمهيد للدعوة حتى عهد المدينة المنورة .

فيقول عبد الله بن سلام : وهو من علماء اليهود : قال لعمرته أى عمه : هو والله أخو موسى بن عمران وعلى دينه بعث بما بعث به .
فتقول له عمرته : أهو النبي الذي كنا نخبر به أنه يبعث مع بعث الساعة ؟

فيقول لها عبد الله : فذاك إذن :

ثم يسلم ويكتم إسلامه لأنه يعرف صفة اليهود وصدأ قلوبهم تجاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوة الإسلام .
وتمضي الحياة في المدينة المنورة وما زالت دلائل النبوة لها آثار .

فهذا مخيريق : وهو حبر يهودى ثرى يهدى أمواله كلها لرسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد ويأخذ سيفه ليجهاد فى سبيل الله يوم زالت عنه غشاوة الكفر وقال لقومه : يامعشر اليهود : والله لأنكم لتعلمون أن نصر محمد عليكم حق .

ومثل ذلك سلمان الفارسى : تتقلب به الأحوال والأيام حتى يأتى إلى رسول الله فى المدينة فيتعرف عليه من دلائل النبوة حسبها قصها عليه الأخبار والرهبان وسمعتها من أحاديث العارفين بها فى مرحلة التمهيد التى شاءها الله جل شأنه .

فتثبت صحة مرحلة التمهيد فى آثارها التى ظهرت فى إسلام ثلثة من الأولين الذين شرح الله صدورهم للإسلام .

وفى الجانب السلبى تبدو أهمية مرحلة التمهيد فى إظهار أسباب الكفر^(١) أنها لم تكن المفاجأة كما تذهب المدرسة المنكرة للدلائل النبوة ، ولكنها أشياء أخرى منها ماقاله أمية بن أبى الصلت :

والله ما كنت لأومن برسول من غير ثقيف أبداً .

إنى لاستحى من بنات ثقيف^(١) .

(١) راجع فتح البارى ج ٨ ص ١٥٢ ، ١٥٣ .

وهرقل قال يوماً : لو كنت عنده لغسلت عن قدمه^(١) .

ولكن شغله الملك ومنعته صبيحة الشعب التي صاحبها شعبه كأهم
هم مستنفرة كراهية في دين الإسلام .

وتظهر هنا صفتان متقابلتان :

صفحة الخضوع والإذعان للنبوة بدلائلها كما فعل النجاشي وقال
لقومه ، « وإن نخرتم » فأسلم وصدق وآمن رغم أنف غصبة قساوسته ؛
وصفحة الملك المتأنى الضعيف أمام الشعب الذي حاصر به شعب
أحب عبودية البشر من دون الله وذلك أمر هرقل .

وبذلك يتم اختبار مرحلة التمهيد للدعوة الإسلامية كما أرادها الله
لتظهر للتاريخ حقيقتين :

الأولى : أن دعوة الإسلام عليها دلائل وفي مقدمتها حال الداعية
وتبشير أهل الكتاب به وما أظهره الله من علاقات .

الثانية : أن الذين ردوا دعوة الله كان ذلك لمرض في صدورهم

(١) في سولاويسي الجنوبية Sulâuisi selatan باندونيسيا تعتبر هذه
المادة من — التقاليد الكريمة التي يكرم بها أعظم الضيوف . . وما زالت حتى العصر
الحاضر عادة متبعة لتكريم العطاء والزائرين . فانظر كيف كان هرقل يود أن يكرم
رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ .

أو ضعف في نفوسهم « سمه حسداً أو قومية » أو ماتشاء ، من علل
النفس والقلب والعقل والشعور :

وبذلك تتم مرحلة هامة في دراسة الدعوة أساسها بشائر النبوة الخاتمة
كعامل وركيزة في تفهم سير الدعوة في عهدها المكي ثم فيما يأتي
من بعد : : :

وبالله التوفيق ،

دكتور رعوف شلبي

البَابُ الْأَوَّلُ

الفصل الأول :

البيئة التي نشأت فيها الدعوة . .

الفصل الثاني :

اعداد الرسول صلى الله عليه وسلم للرسالة . .

الفصل الأول

البيئة التي نشأت فيها الدعوة

تواجه الدعوة الإسلامية في العصر الحديث عديداً من التيارات ،
والمذاهب المواجهة لها .

إنها تواجه في الحقل الاقتصادي الشيوعية التي تجر بمذاهبها المادى
الكفر والإلحاد كمبدأ وسلوك وعقيدة .

وتواجه في الحقل الدينى تحالف قوى المسيحية واليهودية معا وبقية
الديانات الوضعية مثل : القاديانية والبهائية . . . الخ .

وتواجه في الحقل الثقافى العام نزعات التحلل والاباحية والعنصرية مثل
الوجودية . وبقية الصناعات التطورية فى السلوك الأخلاقى .

وهذه المواجهة فى العصر الحديث تشابه ما واجهته الدعوة فى بدئها
الأول .

ولمعالجة قضايا المجابهة فى العصر الحديث كان لابد من التعرف على
اسلوب الدعوة فى عصرها الأول ليستأنس بسلوكها قديماً فى معالجة
حاضرها الذى نعيشه .

١ والحديث عن أمس الدعوة أو الدعوة في أمسها حديث خطير يستلزم عرضاً — ولو بصورة وسط — لظروف البيئة التي نشأت فيها الدعوة الإسلامية حتى تبرز سمات القوم ومنهاجهم الذي ناصروا به الدعوة وجابهوا به القوى الثلاث ، ليدرك الذين آمنوا بها اليوم وقعدوا عن نصرتها ، أو خلطوها أو قربوها من إحدى المفاهيم — الثلاث . . . أن انتكاسة العاملين في حقل الدعوة يرجع سببها لغيب فيهم ، أو في المنهج ، أو فيهما معا .

والباعث الذي يحدونا إلى تقديم دراسات عن : البيئة التي نشأت فيها الدعوة منشؤه :

١ . — ان المجابهة التي تعيشها الدعوة في العصر الحديث لم تكن جديدة عليها فقد نشأت في بدء فجرها وسط بيئة مماثلة حاولت منذ التعرف على سمات النبي صلى الله عليه وسلم أن تقتله^(١) ، كما حاول بجانب آخر من الناس أن يتعرفوا عليه وانتظروه طويلا ، وكلا الأمرين يجتمعان في العصر الحديث :

٢ — ان جانبا من السكاتيين اتهموا الجو العربي فيما قبل البعثة بالجهل والغلظة والعنجهية . . .

ويصورون ذلك في صور بشعة رديئة يحس بها القارئ أن وجه الأمة

(١) خلاصة الكلام في تاريخ الجاهلية والإسلام ١٥١ .

العربية لم يكن مؤهلاً لبشاشة رجاء ينبي بها عن بعثة نبي يخرج الناس من الظلمات إلى النور .

وجعلوا هذه الصورة القائمة المتشائمة من أسباب بعثة سيدنا محمد [عليه أفضل الصلاة والسلام .

وهذا الاتجاه يجعل الدعوة الإسلامية حدثاً مفاجئاً للحياة العربية [قبل الإسلام .

وفي نظري وإحساسي أن هذا الاتجاه فضلاً عن مخالفته للواقع التاريخي الصحيح فهو إنما يصدر عن باحث يخضع الدراسات التي يتناولها لمزاجه الخاص وعاطفته الخاصة .

فما كانت الدعوة الإسلامية حدثاً مفاجئاً : لا للفكر ولا للمجتمع . فقد كانت البيئة المكية وما حولها في جو من البحث عن العدل الديني ، والعدل الاجتماعي :

وكان الأحبار والرهبان والسكّهان والعرافون والملوك والسوقة من الناس ينظرون قدوم نبي آخر الزمان .

فاذا سلمنا جدلاً أن الدهماء والسوقة والغوغاء من الناس آنذاك قباوا فكرة الأصنام كعقيدة فان المستقيمين من الناس وهم :

* الحنفاء .

* والباحثون عن العدل الديني .

* والمتنافسون في إقامة العدل الاجتماعى . . من الأذكياء والحكماء
وذوى النظر والرأى والمشورة .

* والحمس المتشددون في الدين ؛
هؤلاء جميعاً قد احتقروا عبادة الأصنام ، ورأوها رذيلة مسفة بالعقل
والخلق والوجدان الإنسانى .

وأن النماذج التى تقدمها لى الصورة التى أغفلها الباحثون فى
حديثهم عن أسباب البعث المحمدى . وهى الصورة المتفائلة التى تجعل
من الدعوة وحياً ربانياً اختار الله له البيئة التى تصاح لشرف حمل
الرسالة .

أولاً : نموذج الحنفاء

يقول الشهرستانى :

« ومن العرب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر وينتظر النبوة ،
وكانت لهم سنة وشرائع » . : (١) ؛

فيعطينا بهذا النص فقها عن أحوال البيئة الأولى التى نشأت فيها
الدعوة ، ولقد كان فيها مستقيمون حنفاء معتدلون على الفطرة التى
فطرهم الله عليها .

(١) الملل والنحل ج ٢ ص ٢٥٠ للشهرستانى - راجع ص ٧٨ ج ٢ الموافقات

لأبى اسحاق الشاطبى .

وكان من هؤلاء الخنفاء الذين عطروا الجو العربي بروائح الذكر
والحب الالهى :

١ — قس بن ساعدة الأيادى .

٢ — زيد بن عمرو بن نفيل .

٣ — أمية بن أبي الصلت .

٤ — أبوقيس بن أبي أنس .

٥ — خالد بن سنان :

* * *

١ — قس بن ساعدة الأيادى

عربي فى زمن الجاهلية موحد مؤمن أبغض الأصنام والازلام ...
ونصح الناس فى عكاظ :

أيها الناس : اجتمعوا واسمعوا ، وعوا ، وإذا وعيتم شيئاً فانتعوا ،
انه من عاش مات :

ومن مات فات .

وكل ماهوآت ، آت .

مطر ونبات :

وأرزاق وأقوات .

وبحار تفور ، وسقف مرفوع ، ومهاد موضوع :

أقسم بالله لا حائشا ولا آثما : إن لله ديننا أحب من دينكم الذى أنتم عليه ، ونبياً قد أظلمكم أوانه ، وأدرككم ابانه ، فطوبى لمن أدركه فآمن به ، واتبع هداه ، وويل لمن خالفه وعصاه ، مالى أرى الناس يذهبون ولا يرجعون ؟

أرضوا بالمقام فقاموا ؟ أم تركوا فناموا ؟

يا معشر بنى آدم ؟

أين الآباء والأجداد ؟

وأين المرضى والعواد ؟

طحنهم الثرى بكلكله ، ومزقهم بتطاولة ؟

كلا ، بل هو الله الواحد المعبود ليس بوالد ولا مولود :

من القـرون لنا بصائر	فى الذاهبين الأوليين
للقوم ليس لها مصادر	لما رأيت مـوارد
تمضى الأصاغر والأكابـر	ورأيت قـومى نحـوها
ولا من الباقيـن غابـر	لا يرجع المـاضى إلى
لـة حيث صار القوم صائر ^(١)	أيقنت أنـى لا محـار

(١) اختلفت الرواة فى ألفاظ النص ، وقد نقل صاحب السيرة الحلبية طرقاتها .
راجع ١٨٨ ، ١٨٩ ج ١ السيرة الحلبية - ومروج الذهب ج ١ ص ٦٩ - ٧٠ .
والسيرة النبوية لابن كثير ص ١٤١ - ١٥٣ - ودلائل النبوة لأبى نعيم ص ٢٤
وكتب الأدب والشفاء ج ٣ ص ٢٦٩ ، وجواهر الأدب ج ٢ ص ١٩ ..

يقول الشهرستاني :

ومن كان يعتقد التوحيد ويؤمن بيوم الحساب قس ابن ساعدة
الأيادي ، قال في مواعظه :

كلا ورب الكعبة ليعودن ما باد ، ولئن ذهب ليعودن يوما .
وقال :

كلا بل هو الله سبحانه واحد ليس بمولود ولا ولد
أعزاد وأبواب وإليه المآب غدا

وله شعر في الإعادة والبعث رواه له الشهرستاني^(١).

يقول عنه النبي — صلى الله عليه وسلم — :

(رحم الله قسا ، أما إنه سيبعث يوم القيامة أمة وحده)^(٢).

* * *

(١) الملل والنحل ج ٢ ص ٢٥١ راجع كذلك السيرة النبوية لابن كثير ج ١
ص ١٤١ - ١٥٣ ، السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة لفضيلة الدكتور محمد بن
محمد أبوشهبة ص ٨١ ، ٨٢ .

(٢) السيرة النبوية لابن كثير ج ١ ص ١٥٠ .

٢ - زيد بن عمرو بن نفيل

يقول فيه صاحب الأغاني :

وكان زيد بن عمرو أحد من اعتزل عبادة الأوثان وامتنع عن أكل
ذبائحهم^(١) .

يقول ابن هشام :

قال ابن اسحق : فأما زيد بن عمرو بن نفيل فوقف فلم يدخل في
يهودية ، ولا نصرانية وفارق دين قومه فاعتزل الأوثان ،
والميتة والدم ، والذبائح على الأوثان ، ونهى عن قتل الموعدة وقال :
اعبد رب إبراهيم ، وبادى قومه بعيب ما هم عليه .

ويستمر ابن هشام في التحديث عن زيد فيقول وهو يروى عن هشام
عن عروة عن أبيه ، قال :

لقد رأيت زيد بن عمرو بن نفيل شيخاً كبيراً مسنداً ظهره إلى
الكعبة وهو يقول :

« يا معشر قريش : والذي نفس زيد بن عمرو بيده ما أصبح
منكم أحد على دين إبراهيم غيرى » .

(١) الأغاني ج ٣ ص ١٢٣ .

ثم يقول :

« اللهم لو أنى أعلم أى الوجوه أحب إليك عبدتك ولستكنى لا أعلمه
ثم سجد على راحلته »^(١).

وفى صحيح البخارى ، عن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهم
قالت :

رأيت زيد بن عمرو بن نفيل قائماً مسنداً ظهره إلى الكعبة يقول :
يا معشر قريش : والله ما منكم على دين إبراهيم غيرى ؛ وكان
يحيى الموعودة ، يقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته لا تقتلها ، أنا
أكفيك مؤنتها ، فيأخذها فاذا — ترعرعت قال لأبيها :

إن شئت دفعتها إليك ؟

وإن شئت كفيتك مؤنتها ؟^(٢).

وكان زيد يستقبل الكعبة وهو يشدو بهذه الأبيات :

وأسلمت وجهى لمن أسلمت له الأرض تحمل صخراً ثقالا
دحاها فلما رآها اسستوت على الماء أرسى عليها الحبالا

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٢٥ تحقيق الالبيرى ، والسقا ، وشابى أوج ١
ص ٢ : ٢ تحقيق فضيلة الشيخ محيى الدين عبد الحميد .
(٢) صحيح البخارى ج ٢ ص ١٧٨ ، ١٧٩ راجع فتح البارى لابن حجر
ج ٨ ص ١٤٢ باب حديث زيد بن عمرو بن نفيل .

وأسلمت وجهي لمن أسلمت له المزن تحمل عذبا زلالا
إذا هي سيقت إلى بلــــة.....دة أطاعت فصبت عليها سجـالا^(١)

وقال محمد بن سعد : حدثنا محمد بن عمرو حدثني أبو بكر بن
أبي سبرة عن موسى بن ميسرة ، عن ابن أبي مليكة ، عن حجر بن
أبي إهاب قال :

رأيت زيد بن عمرو ، وأنا عند صنم بوانة بعد ما رجع من الشام ،
وهو يراقب الشمس ، فإذا زالت استقبل الكعبة ، فصلى ركعة
بسجدةين ثم يقول :

هذه قبلة إبراهيم وإسماعيل ، لا أعبد حجراً ، ولا أصلي له ،
ولا آكل ما ذبح له ، ولا استقسم الأزلام .

وإنما أصلي لهذا البيت حتى أموت هـ

وكان يحج فيقف بعرفة ، وكان يلبي فيقول :

لبيلك لا شريك لك ، ولا نذل لك :

ثم يدفع من عرفة ماشياً وهو يقول :

لبيلك متعبداً مرقوقاً^(٢) هـ

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٣١ تحقيق الالبيرى ، السقا ، شلبي راجع
الأغاني ج ٢ ص ١٢٤ .

(٢) سيرة ابن كثير ج ١ ص ١٥٩ .

ومن ابتهالاته عند الكعبة ما يرويه ابن هشام :
كان زيد إذا استقبل الكعبة داخل المسجد ، قال :
لبيك حقا حقا ، تعبدا ورقا .

عدت بما عاذ به إبراهيم مستقبل القبلة وهو ق-----ائم
إذ قال :

أنى لك اللهم عان راغمـ مهمما تجشمنى فلانى جـاشم^(١)
البر أبغى لا الخال^(٢) .
ليس مهجر كمن قال^(٣) .

كفاحه من أجل الدين الحق

يقول صاحب الأغاني والروض ، وابن كثير :
إن زيدا نخرج إلى الشام يسأل عن الدين ويتبعه فأتى عالما من
اليهود فسأله عن دينهم فقال : لعلى أدين بدينكم فأخبرنى بدينكم ؟

(١) العانى : الأسير ، تجشمنى : تكلفنى .

(٢) الخال : الكبرياء .

(٣) المهجر : الماشى فى وقت الهجرة ، كمن قال : النائم المستريح فى وقت
القيولة - القائلة - راجع سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٣٠ تحقيق السقا ، الابيارى
شلبى .

فقال اليهودى : إنك لا تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله .

فقال زيد : لأفر إلا من غضب الله ، وما أحمل من غضب الله شيئا أبدا ، وأنا أستطيع فهل تدلنى على دين ليس فيه هذا ؟
قال : ما أعلمه إلا أن يكون حنيفا .
قال : وما الحنيف ؟ .

قال : دين إبراهيم .
فخرج زيد من عنده ، وتركه ، فأتى عالما من علماء النصارى ،
فقال له نحوا مما قال لليهودى . فقال له النصرانى : إنك لن تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من لعنة الله ؟ .
فقال زيد : إني لا أحمل من لعنة الله ولا من غضبه شيئا أبدا ،
وأنا أستطيع فهل تدلنى على دين ليس فيه هذا ؟

فقال له : نحوا مما قال اليهودى له : لا أعلم الا أن يكون حنيفا :
فخرج من عندهما . . . وقد رضى بما أخبراه واتفقا عليه من دين إبراهيم فلما برز رفع يده ، وقال :
اللهم إني على دين إبراهيم^(١) .

(١) راجع الأغاني ج ٣ ص ١٢٦ ، ١٢٧ ، الروض الأنف ج ١ ص ١٤٧ ،
سيرة ابن كثير ج ١ ص ١٥٦ - ١٦٠ .

حسن خاتمته :

جال زيد بن عمرو الشام كله حتى انتهى إلى راهب بميفعة^(١) من أرض البلقاء كان ينتهى إليه علم أهل النصرانية — فيما يزعمون — فسأله عن الحنيفية : دين إبراهيم ، فقال :

إنك لتطلب ديننا ما أنت بواجد من يحملك عليه اليوم ولكن قد أظل زمان نبى يخرج من بلادك التى خرجت منها يبعث بدين إبراهيم الحنيفية فالحق به فانه مبعوث الآن ، هذا زمانه .

فخرج سريعا حين قال الراهب ما قال يريد مكة حتى إذا ترسّط بلاد لحم عدوا عليه فقتلوه^(٢) فقال ورقة بن نوفل بن أسد يهكيه :

رشدت وانعمت ابن عمرو وانما تجنبت تنورا من النار حاميا
بدينك ربا ليس رب كمثلـه وتركت أوثان الطواغى كماهيا
وادراكك الدين الذى قد طلبته ولم تلك عن توحيد ربك ساهيا
فأصبحت فى دار كريم مقامها تعلل فيها بالكرامة لاهيا
تلاقى خليل الله فيها ولم تكـسن من الناس جبارا إلى النار هاويا
وقد تدرك الانسان رحمة ربه ولو كان تحت الارض سبعين واديا^(٣)

(١) هى المكان المرتفع ، وفيها لغة بحذف الميم : بميفعة .

(٢) يروى الأستاذ محمد بك غنيم فى كتابه : خلاصة الكلام فى تاريخ الجاهلية والإسلام أن بعض ملوك غسان قد سم زيد بن عمرو فأت بدمشق ، ج ١ ص ١٩٩ وراجع ص ١٦٢ سيرة ابن كثير ج ١ .

(٣) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٣١ ، ٢٣٢ تحقيق : شلبى ، السقا ، الآبيارى .

يقول في شأنه فضيلة الدكتور عبد الحليم محمود :

استمر زيد يجاهد في سبيل الوصول إلى الله كان يجاهد بمنطقة وتفكيره وتارة بسؤاله كل من يصادفه من ذوى المعرفة الدينية .

كان يسأل الناس إذا قام ، ويسألهم إذا ارتحل حتى انتهى في النهاية إلى مذهب اطمأنت إليه نفسه ، فخطب قريشا قائلا :

يامعشر قريش ، والذي نفسى بيده ، ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيرى^(١) .

فخطب زيد بن عمرو بهذا الجهاد طريق الإرهاص لا تباع الحنيفية الغراء .

يقول فيه الشهر ستانى :

فمن كان يعرف النور الظاهر والنسب الطاهر ويعتقد الدين الحنيف

وينتظر المقدم النبوى . زيد بن عمرو بن نفيل . كان يسند ظهره إلى الكعبة ويقول :

أيها الناس ، هلموا إلى ، فإنه لم يبق على دين إبراهيم أحد غيرى^(٢) .

يقول فيه النبي — صلى الله عليه وسلم — لابنه سعيد بن زيد ،

وقد سأل مع عمر بن الخطاب :

أنستغفر لزيد بن عمرو ؟ .

(١) التفكير الفلسفى فى الإسلام ص ٢٠ ، ٢١ ط ٣ الأنجلو .

(٢) الملل والنحل ج ٢ ص ٢٥٠ .

إفقال النبي — صلى الله عليه وسلم :

نعم ، فإنه يبعث أمة وحده^(١) .

اللهم اغفر له فقد كان نورا على الطريق .

٣ — أمية بن أبى الصلت

هو الشاعر العربى المشهور قال فيه الكميت :

أمية أشعر الناس^(٢) .

ولقد حفل شعره بذكر الرسل والأنبياء والجنة والنار ، وكان
كثير العجايب يذكر فى شعره خالق السموات والأرض ، يروى عنه
هذا الشعر وقد نسبته ابن هشام إليه :

ألا أيها الإنسان إياك والردى	فلأنك لا تخفى من الله خافيا
ولإياك لا تجعل مع الله غـيـره	فإن سبيل الرشـد أصبح باديا
رضيت بك اللهم ربا فلان أرى	أدين إلها غيرك اللهم ثانيا
أدين لرب يستجاب ولا أرى	أدين لمن لم يسمع الدهر داعيا

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٢٦ راجع سيرة ابن كثير ج ١ ص ١٦٢
والأغانى ج ٣ ص ١٢٧ الحلبية ج ١ ص ١٤٧ من مراجع هذا البحث شرح على القارى
على الشفاء ج ٣ ص ٢٦٣ وما بعدها ط أولى المطبعة الأزهرية عام ١٣٢٦ هـ .

(٢) الأغانى ج ٤ ص ١٢٢ ، ١٢٣ .

وأنت الذى من فضل من ورحمة
فقلت له اذهب وهارون فادعوا
وقولا له ، أنت سويت هذه
وقولا له ، أنت رفعت هذه
وقولا له ، أنت سويت وسطها
وقولا له ، من يرسل الشمس غدوة
وقولا له ، من ينبت الحب فى الثرى
ويخرج منه حبه فى رعوسه
وأنت بفضل منك نجيت يونس
وانى ولو سبحت باسمك ربنا
بعثت إلى موسى رسولا مناديا
إلى الله فرعون الذى كان طاغيا
بلا وتد حتى اطمأنت كماهيا
بلا عمد ، ارفق إذا بك بانيا
منيرا إذا ما جنه الليل هاديا
فيصبح ما مست من الارض ضاحيا
فيصبح منه البقل يهتر رابيا
وفى ذلك آيات لمن كان واعيا
وقد بات فى اضعاف حوت ليا ليا
لاكثر ، الا ما غفرت لخطايا (١)

هذه نزعة رجل موحد مؤمن بخالق الملوك معترف بفضل ربه .

يروى فيه صاحب الانبىاء .

قال الزبير ، وحدثني مصعب عن مصعب بن عثمان قال :
كان أمية بن أبى الصلت قد نظر فى الكتب وقرأها وليس المسموح
تعبدا ، وكان ممن ذكر ابراهيم واسماعيل ، وحرم الخمر ، وشلت

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ تحقيق : شلبى ، السقاء ، الابيارى .

فى الاوثان ، وكان محققاً^(١) . التمس الدين وطمع فى النبوة ،
لانه قرأ فى الكتب أن نبيا يبعث من العرب فكان يرجو أن يكونه^(٢) .

وحول هذه النزعة الشرهة لأمية فى استشرافه للنبوة يستمر صاحب
الاغانى فى تفسير آماله وأمنيته فيقول :

أنخبرنى الحرمى قال : حدثنا الزبير عن عمر بن أبى بكر المؤملى
وغيره ، قال :

كان أمية بن أبى الصلت يلتبس الدين ويطمع فى النبوة .

فخرج إلى الشام فمر بكنيسة وكان معه جماعة من العرب وقريش ،
فقال أمية :

إن لى حاجة فى هذه الكنيسة فانتظرونى .

فدخل الكنيسة . وابطأ . ثم خرج اليهم كاسفا متغير اللون فرمى
بنفسه . واقاموا . حتى سرى عنه . ثم مضوا . ففوضوا حوائجهم .
ثم رجعوا . فلما صاروا إلى الكنيسة قال لهم : انتظرونى . ودخل
الكنيسة . فأبطأ . ثم خرج اليهم أسوأ من حالته الأولى ، فقال أبوسفیان
ابن حرب : قد شققت على رفاقك ؟

(١) وفى رواية فى نسخة أخرى : وصام محققاً .

(٢) الاغانى ج ٤ ص ١٢٢ ج ١٢٣ .

فقال "خلوني . فإني أرتاد على نفسي لمعادى . إن هاهنا راهبا عالما أخبرني أنه تكون بعد عيسى عليه السلام ست رجعات . وقد مضت منها خمس وبقيت واحدة . وأنا أطمع في النبوة وأخاف أن تخطئني . فأصابني ما رأيت ، فلما رجعت ثانية أتيتك فقال : قد كانت الرجعة ، وقد بعث نبي من العرب ، فيئست من النبوة فأصابني ما رأيت ، إذ فاتني ما كنت أطمع فيه^(١) .

ويحفل كتاب الأغاني بمثل هذه الروايات التي تفصح عن آمال أمية في النبوة ، تلك الأمنية الغالية التي علم بها من الثقافة التي حصل عليها وطمع فيها لنفسه .

والعلامة علي بن برهان الدين الحلبي الشافعي يكشف أمره فيقول فما يرويه عن أمية في حديث له مع أبي سفيان :

إني لأجد في الكتب صفة نبي بعث في بلادنا فكنت أظن أني هو ، وكنت أتحدث بذلك ثم ظهر لي أنه من بني عبد مناف ، فنظرت فلم أجد فيهم من هو متصف بأخلاقه إلا عتبة بن ربيعة إلا أنه قد جاوز الأربعين ولم يوح إليه فعرفت إنه غيره^(٢) .

(١) الأغاني ج ٤ ص ١٢٣ ، ١٢٤ .

(٢) السيرة الحلبية ج ١ ص ١٧٨ ط الحلبي في رجب ١٣٤٩ هـ .

ومن النص السالف يبدو للباحث ثلاث حقائق :

- ١- أن صفات النبوة المنتظرة كانت تتناقضها البيئات الثقافية في محيط المجتمع العربي خاصة مع أهل الكتاب .
- ٢- أن مجموعة من أشراف قريش كان فيهم ما يشابه من وجهه هذه الأخلاق .

٣- وأن المجتمع بات يترقب بعث هذا النبي الذي شاع في الناس خبره وصفاته .

ولأمية شعر في هذا المجال : مجال ترقب النبي القادم يرويه لنا صاحب باوغ الأرب والأغاني :

الحمد لله ممساننا ومصحبنا	بالخير صبحنا ربى ومساننا
رب الخيفية لم تنفد خزائنه	مملوعة طبق الآفاق سلطاننا
ألا نبي لنا منا فيخبرنا	مابعد غايتنا من رأس محياننا
بيننا يربينا أبواننا هانكا	وبيننا نفتنى الأولاد أفتنا
وقد علمنا لو أن العلم ينفعنا	أن سوف يلحق أخرانا بأولانا ^(١)
وقد عجبنا وما بالمولت من عجب	مابال أحيائنا يهكون موتانا ^(٢)

(١) الأغاني ج ٤ ص ١٢٩ .

(٢) هذا البيت زيادة رواها باوغ الأرب ج ٢ ص ٢٥٣ راجع أشعاره في النوحيد والنميم والجحيم في جواهر الأدب ج ٢ ص ٩٩ للشيخ أحمد الهاشمي ، وبلوغ الأرب الآلومي ج ٢ ص ٢٥٤ .

التواء الطريق :

ومع هذا التوحيد الواضح فقد حرم أمية من أشهى ما كان يتمنى ،
لقد حرم لذة الايمان ، وحرّم من حلاوة التوحيد .

إنه يعترف في صراحة جريئة :

كل دين يـوم القيـامــــــــــــــــة عند الله الا دين الحنيفة زور
ولكن أمانيه لوت طريق فكره واغلقت عليه منافذ الرضوان ،
والشهوة إذا ثارت بدلت الحجا حجرا وغيرت البصيرة طمسا وركبت
المشاعر متون الشياطين . فقد كفر أمية الذى ينساب شعره توحيدا
وصفاء ، وخوفا ورجاء .

يارب لا تجمعنى كافرا أبدا	واجعل سريرة قلبي الدهرا يمانا
واخلط به بنيتي واخلط به بشرى	واللحم والدم ماعمزت انسانا
انى اعوذ بمن حج الحجاج له	والرافعون لدين الله اركانا
مسلمين إليه عند حجهم	لم يبتغوا بثواب الله أثمــــــــــــانا ^(١)

ولكن غلبت على حنيفيته شقوته ، يروى صاحب الأغاني :

لما مرض أمية مرضه الذى مات فيه جعل يقول :

قد دنا أجلى . وهذه المرضة منيتي وانا أعلم أن الحنيفة حق ،
ولكن الشك يداخلى فى محمد^(١) .

(١) بلوغ الارب ج ٢ ص ٢٥٤ . (٢) الأغاني ج ٤ ص ١٣١ .

ولم الشك يا أمية ؟

لقد عرفت أن هذا الامر سيثول إلى رجل من قريش من بنى عبد مناف ، وأن شباب بنى عبد مناف قد جاوزوا الأربعين ولم يوح اليهم ، ولم يبق في دائرة الصفات التي علمتها من علماء أهل الكتاب إلا محمد بن عبد الله . فلم الشك في محمد ؟^(١) .

لم الشك ، وقد قلت لصاحبك أبي سفيان لما أخبرك به : أما انه حق فاتبعه ؟ فقال لك : فأنت ما بمنعك ؟ .

فقلت له : الحياء من نساء ثقيف ، انى كنت أخبرهن أنى هو ، ثم اصير تبعاً لفتى من بنى عبد مناف^(٢) .

وينعاه في رفق حزين صاحب كتاب : التفكير الفاسى في الإسلام فيقول :

ولكنه على خلاف ما كنا نتوقع ، قد عادى الرسول — صلى الله عليه وسلم — وحاربه فغلبت عليه شقوته ، وصح فيه قول رسول الله — صلى الله عليه وسلم — :
آمن شعره وكفر قلبه .

(١) راجع الحوار بينه وبين أبي سفيان في كتاب : الأغاني ج ٤ ص ١٢٤ والسيرة الحلبية ج ١ ص ١٧٨ .

(٢) السيرة الحلبية ج ١ ص ١٧٨ والوفاء بأحوال المصطفى ج ١ ص ٥٣ ، ٥٤ .

وينخيل إلينا أنه ندم في آخر حياته ندما شديدا على موقفه ذلك من الرسول فتمنى أن لو كان بدل معرفته وعلمه راعيا في رعوس الجبال يرعى الوعولا .

لقد قال وهو على فراش الموت هذا الشعر البائس الحزين الرائع :
كل عيش وإن تطاول دهرا منتهى أمره إلى أن يـزولا
ليتني كنت قبـل ما قد بدالى فى رعوس الجبال أرعى الوعولا
اجعل الموت نصب عينيك واحذر غولة الدهر إن للدهر غولا^(١)

وفى مروج الذهب بيت حزين نادم :

كل عيش وإن تطاول دهرا فقصارى أيامه أن يـزولا^(٢)
قال فيه النبي — صلى الله عليه وسلم :

١ - إن كاد أمية ليسام^(٣) .

٢ - وفى البخارى : كاد أمية بن أبى الصلت أن يسام^(٤) .

٣ - آمن لسانه وكفر قلبه^(٥) .

* * *

(١) التكمير الفلسفى فى الإسلام ص ٢٤ .

(٢) مروج الذهب ج ١ ص ٧١ .

(٣) الأغاني ج ٤ ص ١٢٩ .

(٤) فتح البارى ج ٨ ص ١٥٣ .

(٥) المعارف لابن قتيبة ص ٢٠ بلوغ الارب ج ٢ ص ٢٥٤ .

٤ — أبو قيس صرمة بن أبي أنس

هو رجل من بني النجار سمت فطرته النقية عن الأذى والسوء من عبادة الأوثان ورفض النصرانية ، لقد مجت مداركه الفطرية كل ملة ليست حنيفية ، وأفاض شعره على الورى يسبح الله ويدعو إلى تسبيحه وتمجيده ، ورعاية المحارم في كنف جلاله :

سبحوا الله مشرق كل صباح طلعت شمسك وكسل هلال
يا بني الأرحام لا تقطعه...وها وصاوها قصيرة من طـوال
يا بني النجوم لا تظلم...وها إن ظلم النجوم داع فضال^(١)
يقول ابن قتيبة فيه :

وكان قد ترهب ولبس المسوح وفارق الأوثان ، وهم بالنصرانية ، ثم أمسك عنها ، ودخل بيتنا له فاتخذ مسجدا لا يدخله طائفة ، ولا جنب ، وقال :

أعبد رب إبراهيم .

فلما قدم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — المدينة .
أسلم وحسن إسلامه^(٢) .

(١) باويع الارب ج ٢ ص ٢٦٦ .

(٢) المعارف لابن قتيبة ص ٢١ راجع التفكير الفلسفي في الإسلام ص ٢٥ .

راجع مروج الذهب ج ١ ص ٧٤ .

هـ - خالد بن سنان

رجل من بني عبدس استلهم بالنظرة الاولى حقيقة العدل الديني
فارتقى بمشاعره ووجدانه عن كل دين غير حنيف :
يقول فيه ابن قتيبة :
روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فيه :
ذلك نبي أضاعه قومه (١) .

(١) يعلق على هذا الحديث فضيلة الأستاذ الأكبر المغفور له الشيخ محمد الخضر
حسين في كتابة : (رسائل الإصلاح) ج ٢ ص ٩٧ بقوله :
وهذه الروايات كلها ضعيفة لم تقم على سند يعتد به ، وما يساعد على ردها :
قوله صلى الله عليه وسلم فيا رواه سعيد بن جبير مرسل :
أنا أولى الناس بعيسى بن مريم ، وليس بيني وبينه نبي . ٠٠٥٠١ يؤيد هذا في نظري
ما يرويه ابن الجوزي عن المغيرة عند لقائه مع اسقف بكنيسة الاسكندرية قال :
فقلت :

اخبرني ، هل بقي أحد من الأنبياء ؟ قال : نعم ، وهو آخر الأنبياء ليس بينه وبين
عيسى بن مريم أحد ، وهو نبي قد أمرنا عيسى باتباعه ، ٠٠٥٠١ ج ١ ص ٤٥ الوفا بأحوال
المصطفى .

ويقوى وجهة نظري ما قاله ابن كثير في السيرة :
والاشبه أنه كان رجلا صالحا له كرامات فانه ان كان في زمن الفترة فقد ثبت
في صحيح البخاري عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : إن أولى الناس =

وأنت ابنته رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمعتته يقول :
(قل هو الله أحد) :

فقلت : كان أبي يقول ذا هـ (١)

وفي السيرة النبوية لابن كثير ، قال أبو يونس ، قال سماك بن
حرب : سئل عنه النبي — صلى الله عليه وسلم — فقال :
ذاك نبي أضاعه قومه هـ

قال أبو يونس : قال سماك بن حرب : إن ابن خالد بن سنان
أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال :
مرحباً بابن أنحى .

== بعيسى بن مريم أنا ، لأنه ليس بيني وبينه نبي ، وإن كان قبلها فلا يمكن أن يكون
نبياً لأن الله تعالى قال : (لتنذر قوما ما آتاهم من نذير من قبلك) — آية رقم ٣ من سورة
السجدة ١ هـ ص ١٠٦ .

وفي نظري أن الآية الأخيرة شاملة للأمرين بخيما والله أعلم ، وفي مسلم : أنا أولى
الناس بابن مريم ، الأنبياء أولاد علات وليس بيني وبينه نبي « كتاب الفضائل » .

(١) مروج الذهب ج ١ ص ٦٧ ، ٦٨ ، بلوغ الأرب ج ٢ ٢٧٨ المعارف
لابن قتيبة ص ٢١ ، التفكير الفلسفي في الإسلام ٢٥ .

هـ - خالد بن سنان

رجل من بني عبس استلهم بالنظرة الاولى حقيقة العدل الديني
فارتقى بمشاعره ووجدانه عن كل دين غير حنيف :
يقول فيه ابن قتيبة :
روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فيه :
ذلك نبي أضاعه قومه (١) .

(١) يعلق على هذا الحديث فضيلة الأستاذ الأكبر المغفور له الشيخ محمد الحضر
حسين في كتابة : (رسائل الإصلاح) ج ٢ ص ٩٧ بقوله :
وهذه الروايات كلها ضعيفة لم تقم على سند يعتد به ، وما يساعد على ردها :
قوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه سعيد بن جبير مرسلا :
أنا أولى الناس بعيسى بن مريم ، وليس بيني وبينه نبي . ٠٠٥٠١ . يؤكد هذا في نظري
ما يرويه ابن الجوزي عن المغيرة عند لقائه مع اسقف بكنيسة الاسكندرية قال :
فقلت :

اخبرني ، هل بقي أحد من الأنبياء ؟ قال : نعم ، وهو آخر الأنبياء ليس بينه وبين
عيسى بن مريم أحد ، وهو نبي قد أمرنا عيسى باتباعه ، ٠٠٥٠١ ج ١ ص ٥٤ الوفا بأحوال
المصطفى .

ويقوى وجهة نظري ما قاله ابن كثير في السيرة :
والاشبه أنه كان رجلا صالحا له كرامات فانه ان كان في زمن الفترة فقد ثبت
في صحيح البخاري عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : إن أولى الناس ==

وأنت ابنته رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمعتته يقول :
(قل هو الله أحد) :

فقلت : كان أبي يقول ذا ^(١) :

وفي السيرة النبوية لابن كثير ، قال أبو يونس ، قال سماك بن
حرب : سئل عنه النبي — صلى الله عليه وسلم — فقال :
ذاك نبي أضاعه قومه .

قال أبو يونس : قال سماك بن حرب : إن ابن خالد بن سنان أ
أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال :
مرحباً بابن أخى .

= بعيسى بن مريم أنا ، لأنه ليس بينى وبينه نبي ، وإن كان قبلها فلا يمكن أن يكون
نبياً لأن الله تعالى قال : (لتندر قوما ما آتاهم من نذير من قبلك) — آية رقم ٣ من سورة
السجدة ١٥٠ ص ١٠٦ .

وفي نظري أن الآية الأخيرة شاملة للأمرين بخيما والله أعلم ، وفي مسلم : أنا أولى
الناس بابن مريم ، الأنبياء أولاد علات وليس بينى وبينه نبي « كتاب الفضائل » .

(١) مروج الذهب ج ١ ص ٦٧ ، ٦٨ ، بلوغ الأرب ج ٢ ٢٧٨ المعارف
لابن قتيبة ص ٢١ ، التفكير الفلسفي في الإسلام ٢٥ .

فهذا السياق موقوف على ابن عباس ، وليس فيه أنه كان نبيا ، والمرسلات التي فيها أنه نبي لا يحتاج بها هنا . والأشبه أنه كان رجلا صالحا له أحوال وكرامات (١) .

ذلك نموذج من حياة الحنفاء الموحدين الذين هياؤا بالندى العطر من أدعيتهم وابتهالاتهم وأذكارهم الجو العربي الندى نشأت فيه الدعوة الإسلامية .

وإنه لإرهاص بما ستكون عليه الدعوة في المستقبل :

١ — فقد كان منهم الحنفي الذي نصيح فلم يستجيب له مثل قيس بن ساعدة وقد خطب الناس في عكاظ على جملة الأورق ؛ وبشر بالنبى العاقب . وأقسم أن لله دينا هو أفضل مما هم عليه .

٢ — وكان فيهم الحنفي الذي جاهد في سبيل الوصول إلى دين الحنفية فعاداه الناس وقتلوه مثل زيد بن عمرو .

كان فيهم الحنفي السفيفي الذي يصور مذهب الدين قيل أن أعطوا منها رضوا ، وإن لم يعطوا منها إذا هم أمية بن أبي الصلت .

هم الحنفي الذي استقر على معرفة الحق حتى جاءه فشة أو حسد ، مثل أبو قيس صرته بن أبي أنس .

لقد كان الحنفاء فيما قبل البعثة إرهابا بمستويات الإيمان عند الناس فيما بعد البعثة .

ولقد كان الجو الحنفي يملأ مجتمع قريش ولو لم تكن الصورة متكاملة غير أن الحنيفية كانت مركز نشاط في الفكر والسلوك يرشح لهذا ما يقوله الشهرستاني :

« وكانوا يداومون على طهارات الفطرة التي ابتلى الله بها إبراهيم عليه السلام وهي الكلمات العشر :

* فلمن خمس في الرأس .

* وخمس في الجسد .

ذأما اللواتي في الرأس ، فالمضمضة ، والاستنشاق ، وقص الشارب ، والفرق ، والسواك .

وأما اللواتي في الجسد فالاستنجاء ، وتقليم الأظافر ، ونشف الإبط وحاق العانة ، والختان .

وكانوا يقطعون يد السارق النمي إذا سرق »^(١) .

ويقول :

ومن كان قد حرم الخمر في الجاهلية :

قيس بن عاصم التميمي .

(١) الشهرستاني ج ٢ ص ٢٥٧ .

وصفوان بن أمية بن حرث الكنانى .
وعفيف بن معدى كرب الكندى .
وقالوا فيها أشعاراً :

وقال الأسلم الليالى : وقد حرم الخمر والزنا على نفسه :
سألت قومي بعد طول مضاضة والسلم أبقى فى الأمور وأعرف
تركت شراب الراح وهى أثيرة والمومسات وترك ذلك أشرف
وعففت عنه يا أميم تكرما وكذلك يفعل ذو الحجا المتعفف
ويستمر الشهرستانى فى ذكر عديد من الاتجاهات الحنيفية
فيقول :

ومن كان يؤمن بالخالق تعالى ، ويخلق آدم عليه السلام
« عبد » لطائفة بن ثعلب بن وبرة من قضاة :

قال :

وأدعوك ياربى بما أنت أهله دعاء غريق قد تشبث بالعصم
لأنك أهل الحمد والخير كله وذوا الطول لم تعجل بسخط ولم تنام
وأنت الذى لم يحيه الدهر ثانياً ولم ير عبد منك فى صالح وجم
وأنت القديم الأول الماجد الذى بدأت خلق الناس فى أكرم العدم
وأنت الذى أحللتنى غيب ظلمة إلى ظلمة من صاب آدم فى ظلم

ويقول زهير بن أبي سلمى المزني — وقد مر بعضا كانت أورقت
بعد يبس :

لولا أن تسبني العرب لآمنت أن الذي أحياك بعد يبس سيحيي
العظام وهي رميم .

ويروى الشهرستاني عن الكلبي :

كانت العرب في جاهليتها تحرم أشياء نزل القرآن بتجريمها :
كانوا لا ينكحون الأمهات ، ولا البنات ، ولا الخالات ، ولا العمات
وكان أقبح ما يصنعون أن يجمع الرجل بين الأختين أو يختلف
على امرأة أبيه .

ويقول الشهرستاني :

« وكانوا يحجون البيت ويعتمرون ، ويحرمون » .

قال زهير :

وكم بالغيان من محل ومحرم

ويطوفون بالبيت سبعا ، ويمسحون بالحجر ، ويسعون بين الصفا
والمروة .

وكانوا يلبون ، ويقفون المواقف كلها ، وكانوا يهدون الهدايا
ويرمون الخمار ، ويحرمون الأشهر الحرم فلا يغزون ، ولا يتقاتلون

فيها إلا طلى ونخشم ، وبعض بنى الحارث بن كعب فلانهم كانوا لا يحجون ولا يعتمرون ولا يحرمون الأشهر الحرام^(١) .

ذلك هو جانب الخلفاء الذي عطر بإرهاصاته الخنيفية جوار الأمة العربية لتستقبل في وعى ويقظة الشرف الأعظم دعوة سيدنا محمد بن عبد الله — صلى الله عليه وسلم :

ثانياً : نموذج الباحثين عن العدل الدينى

كانت النزعة الدينية عارمة عنيفة في صدور رجال ، ألهتهم فطرتهم الأولى حسن التوجه إلى جناب الحق يستنشقون من رضوانه عبر الحرية التي ترفض السجود لغير جلاله .

لقد رفضوا الأصنام كفكرة صحيحة الألوهية ، وبقي جناب الحق أملاً منشوداً .

لقد أدركوا — وهم الأذكياء فكراً ، الأصحاء جسداً — أن :

الحركة أفضل من السكون .

والحياة أشرف من العدم .

(١) المرجع السالف ، من مراجع هذا البحث .

تاريخ الفكر العربي الدكتور عمر فروخ ص ٩٨ ، ٩٩ . ط بيروت ١٩٦٢ م .

والنخب ص ١٧١ ، ١٧٢ .

والسمع أكرم من الصمم .

والتكلم خير من الخرس .

لأنهم — وهم يمجّدون الإنسان — يعتقدون أن هناك أفضل ، وهناك لا أفضل .

فكيف يقبّلون الصنم مصداً للأفضل .

إذن تخيب مساعيهم ، وتضل عقولهم .

فكان لهؤلاء الرجال رغبة في التعرف على فاطر السموات والأرض العزيز العليم .

وإذن فلا بد من البحث .

يقول ابن هشام :

واجتمعت قريش يوماً في عيد صنم كانوا يعظمونه وينحرون له ، ويعكفون عليه ويدبرون به ، وكان ذلك عيداً لهم في كل سنة يوماً ، فخلاص منهم أربعة نفر نجياً ثم قال بعضهم لبعض : تصادقوا وليكنم بعضكم على بعض قالوا : أجل وهم :

١ — ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب ابن مرة بن كعب بن لؤي .

٢ — وعبيد الله بن جحش بن رثاب بن يعمر بن صبرة بن مرة ابن كبير بن غنم بن دودان بن أسد بن خزيمه .

- ٣ — وعثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى بن قصي .
٤ — وزيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى بن عبد الله بن قرط
ابن رباح بن رزاح بن عدى بن كعب بن لؤدى .

فقال بعضهم لبعض :

تعالون — والله — ما قومكم على شيء لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم .
ما حرج نطيف به : لا يسمع ولا يبصر ، ولا يضر ولا ينفع ؟
يا قوم : التمسوا لأنفسكم ديناً فانكم — والله — ما أنتم على شيء .
فتفرقوا في البلدان يلتمسون الحنيفية : دين إبراهيم ^(١) .
فكانت انطلاقة من عقلاء ذوى وزن اجتماعى وفكر فى أمة العرب
تفرقوا باحثين عن الحق فى الدين ، وقد تركوا فى أزقة الجاهلية
غوغاء البشر ليرجعوا إليهم بالحنيفية السمحاء .

١ — ورقة بن نوفل

فأما ورقة فقد تعلم النصرانية ، وقرأ الانجيل يقول فيه صاحب الأغاني :
« هو أحد من اعتزل عبادة الأصنام فى الجاهلية ، وطلب الدين
وقرأ الكتب وامتنع عن أكل ذبائح الأوثان » ^(٢) .

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٢٢ ، ٢٢٣ ت ، شلبى . السقا . الأبيارى .

(٢) الأغاني ج ٣ ص ١١٩ .

وعاد الرجل ينتظر دين الحق وهو موحد يدعو إلى التوحيد ومن شعره في السيرة لابن كثير .

لقد نصحت لأقوام وقلت لهم	أنا النذير فلا يغركم أحد
لا تعبدوا إلهاً غير خالقكم	فان دعوكم قولوا بيننا حدد
سبحان ذي العرش سبحاناً نعوذ به	وقبل قد سبج الجودي والحمد
مسخر كل ما تحت السماء له	لا ينبغي أن يناوىء ملكه أحد
لا شيء مما ترى تبقى بشاشته	يبقى الاله ويودي المال والولد
لم تغن عن هرمر يوماً خزائنه	والحمد قد حاولت عاد فما خلدوا
ولا سليمان إذ دان الشعوب له	والحن والإنس تجرى بينها البرد ^(١)

ولقد استبطاً بعثة النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، وكانت السيدة خديجة رضى الله تعالى عنها وأرضاها قد أخبرته بالحديث الذى قصه غلامها ميسرة عليها إثر إيابه من قافلة التجارة التى وكل فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبلها . فقال فى ذلك شعرا منه :

ووصف من خديجة بعد وصف	فقد طال انتظارى يا خديجا
ببطن المكتين على رجائى ^(٢)	حديثك أن أرى منه نخر ورجا

(١) صرح البغدادى فى الخزانة ج ٢ ص ٢٩ أن هذا الشعر لورقة بن نوفل كما نسبته إليه كذلك السهيلي والحافظ الكلاعى فى سيرته راجع نصوص الشعر فى السيرة لابن كثير ج ١ ص ٢٧٠ .

(٢) قال السهيلي : ثنى مكة وهى واحدة لأن لها بطاحا وظواهر ، ولعل الأمر فى نظرى بعيد عن اللغة ، وأنه مرتبط بانتظار ورقة بين مكة الجاهلية ومكة الإسلام .

بمـــــا خبرتهـــــا من قول قس
بأن محمداً سيـــــود فينـــــا
ويظهر في البلاد ضياء نـــــور
فيأتي من يحاربه خساراً
فيأتي إذا ما كان ذا كـــــم
ولوجا في الذي كرهت قریش
أرجى بالذي كرهوا جمیعـــــا
وهل أمر السفالة غير كفر
إن يبقوا أو ابق تكن أمور
وإن أهلك فكل فتی سیـــــا

من الرهبان أكره أن يعوجا^(١)
ويخصم^(٢) من يكون له حجيجاً
يقـــــم به البرية أن تمـــــوجا
ويلقى من يسأله فإوجا^(٣)
شهدت فكننت أولهم ولوجا
ولو عجت بمكثها عجيـــــجاً
إلى ذي العرش إن سفلوا عروجا
بمن يختار من سمـــــاك البروجا
يضج الكافرون لها ضجيجاً
من الأقدار متلفة حروجا^(٤)

منزلته :

قال فيه صاحب الروض الأنف :

هو أحد من آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم قبل البعثة ، وروى الترمذی
أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

(١) يعوج : يقف ، يتأخر . (٢) يخصم : يغلب ، الحجيج : المناظر :

(٣) الفلوج : الظهور والغلبة على الخصم .

(٤) راجع ابن هشام ج ١ ص ١٩١ ، ١٩٢ .

« رأيت في المنام ، وعليه ثياب بيض ولو كان من أهل النار لم تكن عليه ثياب بيض » (١) .

وفي الأغاني :

قال الزبير : حدثني عمي قال : حدثنا الضحاک بن عثمان بن عبد الرحمن بن أبي الزناد عن هشام بن عروة :

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأنخي ورقة بن نوفل ، أولابن أخيه :

« شعرت أني قد رأيت لورقة جنة أو جنتين شاك هشام » .

وهي رسول الله صلى الله عليه وسلم — عن سب ورقة (٢) .

يقول فيه صاحب التفكير الفلسفي في الإسلام :

ولم يكن أمر معرفته وعمله مجهولاً بين قومه ولذلك انطلقت خديجة بنت خويلد إليه بالنبي — صلى الله عليه وسلم — ، لتسنفسر عما عرض للرسول — صلى الله عليه وسلم — من أمر الوحي ، فأفادها وطمأنها وتمنى أن لو عاش حتى يرى الرسول قد أمر بنشر دعوته لينصره نصراً مؤزراً (٣) .

(١) الروض الأنف ج ١ ص ١٢٤ السيرة لابن كثير ج ١ ص ٣٩٧ .

(٢) الأغاني ج ٣ ص ١٢٢ السيرة لابن كثير ج ١ ص ٣٩٨ .

(٣) التفكير الفلسفي في الإسلام ص ٢٧ .

ولقد أسرع ورقة — في تحديد دقيق — بإعلان الحقيقة :
« لئن كان مايقول حقاً ، إنه ليأتيه ناموس الأكبر :
ناموس عيسى بن مريم ، لا يجيزه أهل الكتاب إلا بشمن ، ولئن
نطق وأنا حتى لأباين فيه بلاء حسناً » (١) .

فكان ذلك إرهاباً أن سوف يقيض الله لهذه الدعوة من يعان
دائماً أنها حق من عند الله .

لقد كان ورقة بن نوفل — رحمه الله — نورا يسعى بن يدي دعوة
الاسلام يبشر بها ويمهد الطريق إليها وإن له — إن شاء الله — جنة أو
جنتين في مقام كريم .

٢ — عبيد الله بن جحش

: لقد أعطى ابن جحش على نفسه موثقاً ، وأقسم مع المقسمين أن
قومه ليسوا على شيء من دين إبراهيم .

(١) الأغاني ج ٣ ص ١٢٢ وفي هامشه أن كلمة (بشمن) محرفة في جميع الأصول ،
ولها أشكال متباينة لم يمكن التعرف عليها وفي شرح المواهب اللدنية للزرقاني ج ١
ص ٢٥٩ ط بولاق أنه ليأتيه ناموس عيسى الذي لا يعلمه بنو إسرائيل أبناءهم . راجع
السيرة لابن كثير ج ١ ص ٣٩٦ ، ٣٩٧ دلائل النبوة للبيهقي ج ١ ص ٣٩٤ ،
الخصائص الكبرى ج ١ ص ٢٣٨ . راجع نسيم الرياض وشرح على القارى على الشفاء
ج ٣ ص ٢٦٢ .

وتعاهدوا ليبحثون .

لقد أخذ على نفسه ميثاقاً مع زملائه ليكتم الأمر وليبحث عن الحنيفة.

ومقتضى هذا العهد أن يلتزم عبيد الله بن جحش بالتنفيذ ولا تتصور الذمة العربية أن رجلاً شهماً يجرؤ على خالف الوعد ، أو يتقاعس عن تنفيذ ما عاهد .

لقد انتشر أصحاب الرجل يبحثون وبقى ابن جحش على ما هو عليه لم تنهض عزيمته ، ولم تنشط همته ، لقد أطفأ في مشاعره شعاع الإحساس الصادق بالدين الحنيف فاستناب للذة إبليسية . وهناً بها .
يقول ابن هشام :

وأما عبيد الله بن جحش ، فأقام على ما هو عليه من الالتباس حتى أسلم ثم هاجر مع المسلمين إلى الحبشة ومعه امرأته أم حبيبة بنت أبي سفيان مسلمة ، فلما قدمها تنصر ، وفاق الإسلام حتى هلك هناك نصرانياً . (١)

لقد كانت همته من قبل قعيدة ، وكانت عزيمته عرجاء خائرة فلم يكلف نفسه عناء وقد أدرك مع رفاقه أنه مع قومه ليسوا على دين إبراهيم . وانتظر حتى جاءه الدين الحنيف فأسلم : ولو كان إسلامه

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٢٣ .

مخالطاً شغاف قلبه وأصالة فكره لاستقرار على الإيمان فكم تمنى أصدقه لقاء مع نبيهم في مثل يوم ابن جحش . لكن فطرته لم تكن ساجدة . لقد أمرضها وسواس الشيطان فانتكس عبيد الله بن جحش عندما هاجر إلى الحبشة ورأى ماكا فيه رغد وهدوء واستقرار فتنصر ليروح باله من متاعب الجهاد في سبيل الدين الحنيف .

أما زوجته أم حبيبة — وكان أبوها في ذلك الحين واحداً من رؤوس الكفر ، ووجهها من وجهاء مجابهة الدعوة فقد بقيت على المحجة البيضاء لم يؤثر في فطرتها الكريمة فسوق زوجها وارتداده . رغم حاجتها في غربتها البعيدة وخصوصيتها لقومها وأهلها — إلى بعائها الذي ذارق ديار الأهل من أجل دينه . إلا أن مستوى الإيمان عندها كان أكبر من الآلام والآمال فرضيت برحبها صاحبها في السفر وخائفة لها في الأهل والمال .

فلما على كل حال في كنف ربها .

وهو على أرفع حال في ربة شيطان مارد .

ولذلك كان تكريم رسول الله صلى الله عليه وسلم لها إذ ألحقها ببيتته الشريف تكريماً لها أو تعويضاً عما فاتها ، وتقديراً لمستوى صبرها ، ومرابطتها في سبيل الله فقد عانت من موت زوجها عبيد الله بن جحش مرتين :

١ — مرة بالخروج من الإسلام إلى الكفر .

٢ — وأخرى بهلاكه من الدنيا على ملأ الشيطان .

لقد نخط عبيد الله بن جحش بهذا السلوك طريق نوع من الباحثين الذين يستظلون بالنور ساعة ثم يحبون العمى على الهدى ويقيمون على ما هم عليه من الضلال وهم يحسبون أنهم على شيء ، ويدعون أنهم مثقفون ؟ .

٣ — عثمان بن الحويرث

عثمان بن الحويرث ألمعى ذكى شديد الملاحظة لم يستسلم لتردى صنم القوم مرات عديدة . كلما انقلب ردوه . فينقلب . بل نفر من عبوديته لصنم ولفت نظر أصحابه وقال :

إن هذا الأمر قد حدث فى اللىلة التى ولد فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال شعراً منه :

أيا صنم العيد الذى صدف حوله صناديد وفد من بعيد ومن قرب
تنكست مغلوباً فما ذاك قل لنسا إذك سيفه أم تنكست للعتب
وإن كنت مغلوباً ونكست صاغرا فما أنت فى الأوثان بالسيد الرب (١)
وأمضى العهد مع ورقة ، وزيد ، وعبيد الله ، ونخرج قاصداً
البحث . عن طابته ، فاستقر به المقام عند قيصر الروم فتنصر وحسنت
علاقته بالملك وارتفعت منزلته هناك .

(١) السيرة النبوية لابن كثير ج ١ ص ٣٥٦ .

يقول ابن هشام :

وأما عثمان بن الحويرث فقدّم على قيصر الملك الروم فتنصر وحسنت منزلته عنده^(١).

وأراد قيصر الروم أن ينشر سلطانه على مكة مستخدماً عثمان بن الحويرث فاحتال على ذلك بتنصيبه والياً من قبل الدولة الرومانية على أمورها باعتباره عربياً أصيلاً .

ولكن أهل مكة رفضوا أن تلوث سيادتهم بامرة ملك أو ولاية حكم ليسوا هم أصحابه فرفضوا ولاية عثمان بن الحويرث وقالوا له : « ألا إن مكة لقاح لاتدين للملك ، فلم يتم له مراده »^(٢) .

٤ - زيد بن عمرو بن نفيل

وأما زيد بن عمرو بن نفيل فقد جاب الجزيرة وأرض البلقاء واهتدى إلى الخنيفية بفطرته واتى الشهادة في رحلته وهو يطلب مكة ليستضيء بنور سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . وصدق له النبي عليه أفضل الصلاة والسلام خاتمة كفاحه :

يأتى يوم القيامة أمة وحده^(٣) .

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٤٣ راجع القصة في كتاب : شفاء الغرام باخبار البلد الحرام ج ٢ ص ١٠٨ .

(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٢٤ .

(٣) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٢٥ وما بعدها .

سئل النبي صلى الله عليه وسلم عنه فقال :
« يبعث يوم القيامة أمة وحده بيني وبين عيسى ابن مريم » (١) .

هـ - عمرو بن عبسة السلمي

ونود أن نختم هذا الفصل بقصة عمرو بن عبسة السلمي ، إنه باحث
من طراز ممتاز ، سأل عن الدين الحنيف ، وانتظر مشرقه . واتخذ
السييل إليه ، واستقام على الفطرة حتى جاءه الحق المبين .
يقول صاحب السيرة الحلبية .

« من ذلك مناجاة عمرو بن عبسة السلمي رضى الله تعالى عنه ،
قال : رغبت عن آلهة قومي في الجاهلية — أى ترك عبادتها — قال :
فلقيت رجلا من أهل الكتاب : من أهل تيماء — أى قرية بين
المدينة والشام — فقلت له : إني امرؤ ممن يعبد الحجارة فينزل الحى
ليس معهم إله ، فيخرج الرجل منهم فيأتى بأربعة أحجار : فيعين
ثلاثة لقدره — أى يستنجى بها — ويجعل أحسنها إلها يعبد . ثم لعله
يجد ما هو أحسن منه شكلا قبل أن يرتحل فيتركه ويأخذ غيره . وإذا
نزل منزلا سواه ، ورأى ما هو أحسن منه تركه وأخذ الأحسن .

فرأيت إنه إله باطل : لا ينفع ولا يضر فداني على خير من هذا ؟

(١) فتح البارى ج ٨ ص ١٤٦ راجع كذلك السيرة النبوية لابن كثير ج ١
ص ١٦١ قال ابن كثير فى سند الحديث جيد حسن .

قال : يخرج من مكة رجل يرغب عن آلهة قومه ويدعو إلى غيرها
فإذا رأيت ذلك فاتبعه فإنه يأتي بأفضل الدين :
فلم يكن لي همّة منذ قال ذلك إلا مكة :
أتى فأسأل : هل حدث حدث ؟
فيقال : لا ...

ثم قدمت مرة فسألت : فقيل لي : حدث رجل يرغب عن آلهة
قومه ، ويدعو إلى غيرها .
فشددت راحتي ، ثم قدمت منزلي الذي كنت أنزله بمكة ،
فسألت عنه فوجدته مستخفياً . ووجدت قريش عليه أشداء . فتلطفت
إليه حتى دخلت عليه فسألته :

أى شئ أنت ؟

قال : نبي ، قلت : من نباك ؟

قال : الله :

قلت : وبم أرسلك ؟

قال : بعبادة الله وحده لا شريك له ، وبكسر الأوثان وصلة
الرحم وأمان السبيل :

فقلت : نعم ما أرسلت به ، قد آمنت بك وصدقتك أأمرني أن
أأمكث معك ، أو أنصرف ؟

فقال : ألا ترى كراهة الناس ما جئت به فلا تستطيع أن تمكث .
كن في أهلك ، فاذا سمعت بي قد خرجت مخرجاً فاتبعني . فكنت
في أهلي حتى خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة فسرت
إليه ، فقدمت المدينة فقلت :

يا نبي الله : أتعرفني ؟

قال : نعم أنت السلمى الذى أتيتنى بمكة^(١) .
والنص واضح في عدة نقاط :

١ — تفاهمه الأصنام كفكرة للألوهية .

٢ — حاجة الوجدان البشرى إلى الدين الحنيف .

٣ — سعى ثلة من أكرم الناس ، وأعقلمهم للتعرف على منبع
الحنيفية وزمنها ومكانها ونبيها .

٤ — ادخار النبي صلى الله عليه وسلم في أهله ليكون عامل تهيئة
للدعوة في المستقبل :

(١) السيرة الحلبية ج ١ ص ٢١٧ في رواية مسلم ج ١ ص ٥٦٩ وفي رواية السيرة
لابن كثير ج ١ ص ٤٤٢ عمرو بن عبسة السلمى فهل ما جاء في الحلبية (عنيسة) خطأ
مطبعي ؟ أو هو رجل آخر مع ملاحظة اتحاد القصة . . . ؟ ولكن الشيخ دحلان
في سيرته على هامش الحلبية يذكر القصة وينسبها إلى عمرو بن عبسة السلمى على نحو ما جاء
في مسلم وفي سيرة ابن كثير . راجع ج ١ ص ١٠٩ . على هامش الحلبية . راجع مسند
الامام أحمد ج ٤ ص ١١١ .

٥ — ثقة النبي صلى الله عليه وسلم من نصر ربه له .

تلك جوانب من نموذج الباحثين عن العدل الديني الذي أعنى به :
البحث عن الدين الخفيف .

وأبرز مظاهر هذا النموذج أن البحث عن الدين الخفيف إذا اكتملت
له المقومات النفسية السليمة ، واستخدمت العقلية الصحيحة الصالحة
وتجنبته جاذبية المواريث الثقافية والتقاليد الاجتماعية التي كان عليها
الآباء والأجداد ، كانت نتيجة البحث هي — الوصول إلى الغاية
الصحيحة مع السلامة من الزيغ ، والأمان من الانحراف .

ومن أمثال المستعملين لهذا المنهاج :

زيد بن عمرو بن نفيل .

ورقة بن نوفل .

عمرو بن عبسة السلمي .

أما إذا خالط البحث مشاغل الحياة ومطالب الشهوة وأشييت بتلوث
التقاليد والعادات . فإن الطريق يلتوى ، وتتلون النتائج بلون المزاج
وتكون العاقبة هي الضياع والخسران .

ومن أمثال المستعملين لهذا المنهج .

عبيد الله بن جحش .

عثمان بن الحويرث .

أمية بن أبي الصلت .

وما أشبه الليلة بالبارحة . ويومنا بالغد . بل ، وياليت للزمان أن
يلدور .

ثالثا : نموذج الحكماء

كان ميدان التفكير في الدين الحنيف أوسع من دائرة الخنفاء ،
ومن دائرة الباحثين .

لقد كان هناك لون آخر من التفكير هو : لون الحكماء وهم كما
يقول عنهم الشهرستاني :

« ... ومنهم — أى الفلاسفة — حكماء العرب وهم شريحة قليلة ، لأن
أكثر حكمهم فلتات الطبع ، وخطرات الفكر ، وربما قالوا بالنبوات^(١) »
وحكماء العرب هم أصحاب رأى والفكر الذين يرجع إليهم في
الملامات .

إنهم على أى حال أعظم الناس في المجتمع العربى حظا في التفكير
والتصرف السديد واجتماع الناس حولهم :

(١) نقلا عن كتاب : التفكير الفلسفى في الإسلام ص ٢٨ . وعن كتاب تمهيد

لتاريخ الفلسفة الإسلامية ص ١٠٧ للإمام الشيخ مصطفى عبد الرازق .

وهم كذلك أعظم الناس حظاً في الذكاء واستعمال العقل بحرية متزنة
وهم كذلك أكثر الناس دقة في تصور الأمور والحكم عليها .

ومن هؤلاء :

- عامر بن الظرب .
- أكتم بن صيفي .
- عبد المطلب بن هاشم .

١ - عامر بن الظرب

حكيم عربي ارتفعت فطرته السليمة فوق جميع الجاذبيات الثقافية
والاجتماعية فكان أكبر منها :
يقول الشهرستاني :

« ومنهم - يعنى من الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر وينتظرون
النبوة - عامر بن الظرب العدواني » ، وكان من شعراء العرب وخطبائهم
وله وصية طويلة يقول فيها :

انى ما رأيت شيئاً قط خلق نفسه .

ولا رأيت موضوعاً إلا مصنوعاً .

ولا بجائياً إلا ذاهباً .

ولو كان يميت الناس الداء لأحياءهم الدواء .

ويقول :

إني أرى أموراً شتى ، وحتى .

قيل له : وما حتى ؟

قال : حتى يرجع الميت حياً ، ويعود لاشيء ، شيئاً ولذلك خلقت
السموات والأرض^(١) .

يقول الميداني في شأنه :

كان من حكماء العرب ، لا تعديل تعدل فهمه فهما ولا بحكمه
حكما^(٢) .

لقد اجتمع لدى الرجل سداد الرأي في العقيدة ، ورفعة السلوك
وكرم الأخلاق كأنما يتجهز لاستقبال النور الأسمى .

٢ - أكثم بن صيفي بن دباح

من الحكماء السابقين بالحكمة والمنفردين بالتدليل على الوحدةانية
والاستدلال بالأثر على المؤثر .

ومن كلامه :

كلا ، بل هو الله إله واحد ، ليس بمولود ولا والد ، أعاد وأبدى
ولإليه المآب غدا .

(١) الملل والنحل للشهرستاني ج ١ ص ٢٥١ .

(٢) راجع بلوغ الأرب ج ١ ص ٣١٧ ، ٣١٨ التفكير الفلسفي في الإسلام ص ٢٩ .

يقول الآوسي :

إنه لما ظهر النبي صلى الله عليه وسلم بمكة ، ودعا إلى الإسلام ،
بعث أكرم ابنه (حبيشاً) فأثاه بخبره ، فجمع بني تميم ، وقال :

يا بني تميم ، لا تحضروني سفياً ، فإنه من يسمع يخل^(١) . إن
السفيه يوهن من فوقه ويشبط من دونه ، لا خير فيمن لا عقل له .
كبرت سني ، ودخلتني ذلة ، فإذا رأيتم مني حسناً فاقبلوه ، وإن
رأيتم مني غير ذلك فقوموني أستقم .

إن ابني شافه هذا الرجل مشافهة ، وأثاني بخبره . وكتابه يأمر
فيه بالمعروف وينهى عن المنكر ويأخذ فيه بمحاسن الأخلاق ، ويدعو
إلى توحيد الله تعالى ، ويخلع الأوثان ، وترك الحلف بالنيران وقـ
حلف — عرف — ذوو الرأي منكم أن الفضل فيما يدعو إليه ، وأن
الرأي ترك ماينهى عنه إن أحق الناس بمعونة محمد ومساعدته على أمر
أنتم ، فإن يكن الذي يدعو إليه حقاً فهو لسكم دون الناس ، وإن يكن
باطلاً كنتم أحق الناس بالكف عنه والستر عليه .

(١) من يسمع أخبار الناس ومعايهم يقع في نفسه عليهم المكروه بمعنى أن هناك
صنفاً من الناس إذا سمع شيئاً ربما ظن صحته دون فحص ، راجع بلوغ الأرب ج ١
ص ٣٠٩ ، التفكير الفلسفي في الإسلام ص ٣٠ راجع جميع الأمثال للميداني ج ٢
ص ٢١٧ .

وقد كان أسقف نجران يحدث بصفته، وكان سفيان بن مجاشع يحدث به قبله ، وسمى ابنه محمداً . فكونوا في أمره أولاً ، ولا تكونوا آخراً ، ائتوا طائعين قبل أن تأتوا كارهين .

إن الذي يدعوا إليه محمد لو لم يكن ديناً لكان في أخلاق الناس حسناً .

أطيعوني واتبعوا أمري ، أسأل لكم أشياء لا تنزع منكم أبداً ، وأصبحتم أعز حى في العرب ، وأكثرهم عدداً ، وأوسعهم داراً فلإني أرى أمراً لا يجتنبه عزيز إلا ذل ، ولا يلزمه ذليل إلا عز .

إن الأول لم يدع الآخر شيئاً ، وهذا أمر له مابعده ومن سبق إليه غمر المعالي ، واقتدى به التالى ، والعزيمة حزم ، والاختلاف عجز فقال مالك بن نويرة (١) :

قد خرف شيخكم :

(١) إذا تتبعنا تاريخ مالك بن نويرة وجدنا حالته في مرحلة التمهيد للدعوة الإسلامية نبي* عن مستقبله في اتباعه للإسلام ، فقد عهد إليه النبي صلى الله عليه وسلم برئاسة أحد بعثون تميم . فلما توفي النبي عليه الصلاة والسلام عادت إلى مالك نفسه القلقة فنع الزكاة وصالح سجاح بنت الحارث التي ادعت النبوة . فلما سار إليه خالد بن الوليد في حروب الردة فرق جموع شعبه حتى لا يتمكن منهم الجيش الإسلامي ولكن الله مكن خالداً منه وقتله . وأنهم بما فعله خالد رضى الله عنه راجع ص ١٧٧ ج ١ محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية .

فقال أكثم :

ويل للشعبي من الخلى ، ولهي على أمر لم أشهده ، ولم يسبقني ^(١) .

في النص :

عرض لمبادئ الدعوة : كتابه يأمر فيه بالمعروف .

واعتراف أهل الفضل بأنه حق : وقد حلف ذوو الرأي منكم
أن الفضل فيما يدعو إليه .

وتحديد موقفهم منه : أنه أحق الناس بمعونة محمد ومساعدته :
أنتم .

والاستدال على ذلك بالتمهيد الذي نشره أسقف نجران ، وسفيان
بن مجاشع :

وقد كان أسقف نجران يحدث بصفته .

ثم نصيحته لقومه والتنبؤ بحالتهم في هذا الدين : كونوا في أمره
أولا — ائتوا طائعين . . . الخ .

(١) راجع بلوغ الأرب ج ١ ص ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، والتفكير الفلسفي في الإسلام
٣٠ ، ٣١ ، الوفا بأحوال المصطفى ج ١ ص ١٩٢ ، ١٩٣ ، مجمع الأمثال للميداني
ج ٢ ص ٢١٥ وما بعدها من مراجع هذا البحث تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ص ١٠٧
وما بعدها .

ثم استرسال في شرح الموقف من الوجهة العقلية والسياسية لهم :
لقد كان النص إرهاباً لعديد^(١) من المعاني والأحداث . وهو في نفس
الوقت عامل تهيئة وإعداد لتستقبل تميم وحلفاؤها دعوة الإسلام عن
وعى وبصيرة .

٣ - عبد المطلب بن هاشم

هـ---و : شذبة الحمد ، فقد كثر حمد الناس له .

وهـ---و : الفياض ، فقد كان جواداً سخياً .

وسموه : مطعم طير السماء ، فقد جعل من موائده نصيباً للطير
والوحش^(١) . حرم الخمر على نفسه ، وحث على مكارم الأخلاق ،
ودعا إلى الفضيلة^(٢) .

يقول المسعودي :

وكان عبد المطلب يوصى ولده بصيانة الأرحام ، وإطعام الطعام ،
ويرغبهم فعل من يراعى في العقبه معادا ، وبعثا ونشورا .
ويقول :

فمن كان مقراً بالتوحيد مشبها للوعيد ، تاركاً للتقليد : عبد المطلب
ابن هاشم ابن عبد مناف ، ويقول :

(١) بلوغ الأرب ج ١ ص ٣٢٣ .

(٢) تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية للأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق

ص ١١٠ . راجع التفكير الفلسفي في الإسلام ص ٣١ .

فيرد عبد المطلب — في ثقة وطمأنينة — محمداً أطراف النزاع :
لأنى رب الإبل .
وإن للبيت رباً سيمنعه (١) .

ولكن أبرهة وكل أبرهة مثله — يستمر سادراً في غبائه ملازماً
عنجهيته فيقول : ما كان يمنع منى (٢) .
إنها مقالة من رأى أنه استغنى ، وإنها لاستدراجة إلهية فاذا أخذ
فان يفاته ، (وإن أخذ ربك لشديد) ويستمر عبد المطلب في هدوئه
وطمأنينته وثقته بربه فيرد في حكمة عالية :

انت وذاك ..

كلمتان في مقابل ست جميعها جهالة وإلحاد منتهى الاستخفاف
بالأشرم :

أنت وذاك ومنتهى الثقة واليقين من عبد المطلب ، وهو موقف
دائم بين منطقيين :

منطق الجاهلية الأحمق المستبد .

ومنطق الحكمة الواثق المطمئن .

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٥٠ ، سيرة ابن كثير ج ١ ص ٣٤ ، ٣٥ .

(٢) أخبار مكة للزرقي ج ١ ص ١٤٥ .

احتاج القائد العظيم الذى درس طريق القوافل الحربية من اليمن إلى مكة . احتاج إلى من يبدله ويحييه نفيل بن حبيب :

ابن المفر والإله الطالسالب والأشرم المغلوب ليس الغالب^(١)
ثم يسجل هذه النكسة الأشرمية فيقول :

حمدت الله إذا أبصرت طيرا ونخفت حجارة تلقى علينا
وكل القوم يسأل عن نفيل كأن على للهبشان ديناً^(٢) .
وسلمت مكة وانتصر عبد المطلب فصارت سنة .

(رَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ) .

(١ - ٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٥٣ ، تاريخ الطبرى ج ٢ ص ١٣٦ سيرة
ابن كثير ج ١ ص ٣٦ ، اخبار مكة للآزرق ج ١ ص ١٤٧ .
راجع عرض القصة في شرح المواهب ج ١ ص ٨٣ - ٨٩ .

رابعاً : نموذج الحمس

التهمس : هو : الشدة في الدين :
والحمس : جمع أحس : والأحس : هو الشديد الصلب :
مأخوذ من الحماسة وهي الشدة :
ولأنما سموا : حمساً لأنهم تشددوا في دينهم على ما يزعمون (١) :
يقول صاحب السيرة الحلبية :

والحمس : بضم الحاء ، وإسكان الميم والسين ، وهم : قريش ،
وما ولدت من غيرها ، فلمهم كانوا لا يزوجون بناتهم لأحد من
أشراف العرب إلا على شرط أن يتحمس أولادهم ، فان قريشاً من
بين قبائل العرب دانوا بالتهمس (٢) .

وفي شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام .

الحمس : قريش ، وكنانة ، وخزاعة وبنو ربيعة بن عامر :

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢١٦ تحقيق فضيلة الشيخ محمد نجى الدين (حاشيته

عليها) . راجع أساس البلاغة للزمخشري ص ١٤١ .

(٢) السيرة الحلبية ج ١ ص ٢٠٠ .

حمس ، وهم ؛

رببعة ، وكلاب ، وعامر ، ولدتهم محمد بنت تميم بن غالب وكانوا حمساً (١) .

يقول العلامة أبو الطيب القاسي :

ولأنما سمي الحمس بالكعبة لأنها حمساء ، حجرها أبيض يضرب إلى السواد (٢) . فهي تسمية لها نصيب من المكان ، والساوك : إنهم حمس لأنهم سكنوا البيت الحرام وهم حمس لأنهم تشددوا في الدين .

والقضية التي لا تناقش مع الحمس : أنهم يزعمون أن تدينهم على ملة سيدنا إبراهيم . وأنهم من سلالة ، غير أنهم شعروا بعزة وأحسوا بأن لهم كرامة ، لأنهم مجاورو بيت الله الحرام ، ومن ولد إبراهيم عليه السلام إنهم المجاورون للكعبة أول بيت وضع للناس : البيت الذي رفع إبراهيم وإسماعيل قواعده ، باذن الله .

لأنه في الحقيقة وكما يعتقدون ، أكرم موضع على وجه الأرض لأنه أعلى البيوت منزلة ، وأرفعها مكانة . ودونه جميع قصور الملوك والرؤساء .

ن م د

(١) - (٢) شفاء الغرام ج ٢ ص ٤١ ، المحبر ص ١٧٨ .

إن جند الله ترعاه وتحرسه ، وبركة السماء تحيطه وتهبط عليه
بالبركات واليمن والسلام والأمن وتملأ السكينة أرجاءه ، وتحفه عناية
الرحمن بالجلال والوقار :

وهم : جوار هذا البيت :

وهم : من سلالة النبي الذي رفع قه اعد هذا البيت ، لإنهم أبناء
إبراهيم إبن خليل الرحمن :

فلم لا تكون لهم عزة فوق مستوى البشر ؟ تلك أحاسيسهم النفسية
التي استتبعتم نمطاً خاصاً متشدداً متحمساً في التعبد .

إنها صورة الإخلاص الشديد ، وسيطرة العاطفة الحياشة على
السلوك فاندفعوا إلى التشدد . اندفعوا إلى التحمس : فقالوا :

— نحن بنو إبراهيم :

— وأهل الحرم :

— وولاة البيت وقطان مكة وساكنوها :

— فليس لأحد من العرب مثل حقنا ، ولا مثل منزلتنا ولا تعرف له
العرب مثل ما تعرف لنا :

ثم قرروا :

— فلا تعظموا شيئاً من الحل كما تعظمون من الحرم ، فإنكم إن فعلتم
ذلك استخفت العرب بحرمتمكم :

— واستتبع هذا القرار مجموعة مبادئ هي النظام السلوكي للحمس :

١ — فتركوا الوقوف على معرفة ، والإفاضة منها وهم يعرفون
ويقرون أنها من المشاعر والحج وأنها كذلك من دين إبراهيم عليه
السلام .

٢ — ويرون أن لسائر العرب أن يقفوا عليها ، وأن يفيضوا منها
إلا أنهم قالوا : نحن أهل الحرم فليس ينبغي لنا أن نخرج من الحرم
ولا نعظم غيرها كما نعظمها :

نحن الحمس ، والحمس أهل الحرم :

ثم جعلوا لمن ولدوا من العرب من ساكن الحل والحرم مثل الذي
لهم ، بولادتهم إياهم يحل لهم ما يحل لهم ويحرم عليهم ما يحرم عليهم .

٣ — ثم حرموا على الحمس أن يلتقطوا الأقط وأن يسأوا السمن
وهم حرم :

٤ — ولا يدخلون بيتاً من شعر :

٥ — ولا يستظلون ، إن استظلوا إلا في بيوت الأدم ما كانوا حرماً :

٦ — ولا ينبغي لأهل الحل أن يأكلوا من إطعام بجاءوا به معهم من
الحل إلى الحرم إذا بجاءوا حجاجاً ، أو عمارة :

٧ - ولا يطوفون بالبيت إذا قدموا أول طوافهم إلا في ثياب
الحمس ، فإن لم يجدوا منها شيئاً طافوا بالبيت عراة . (١) .

والسهميلي يفسر هذه الظاهرة بالزهد والتنسك يقول :

وكانوا قد ذهبوا في ذلك مذهب الزهد والتأله ، فكان نساؤهم
لا ينسجن الشعر ولا الوبر وكانوا لا يسلأون السمن .

وأنهم كانوا يطوفون عراة ، إن لم يجدوا ثياب أحمس ، وكانوا
يقصدون في ذلك طرح الثياب التي اقترفوا فيها الذنوب عنهم (٢) .

لقد كانوا في غمرة من تقديس البيت الحرام وجرثومة أبناء
إسماعيل على قدر ما للبيت وصاحبه من جلال وتقديس . ولذلك تراهم
يرفعون على نمط الحياة العربية المنحرفة على نحو ما ذكره صاحب
السيرة الحلبية :

والذلك تركوا الغزو لما في ذلك من استحلال الأموال والفروج
ومالوا للتجارة ومن ثم يقال : قریش الحمس ، سموا بذلك لتشادهم
في دينهم (٣) .

(١) راجع بلوغ الأرب ج ٢ ص ٢٩١ ، السيرة النبوية لابن هشام ج ١

ص ٢١٦ - ٢١٨ . تحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد .

(٢) من مراجع هذا البحث ، الروض الأنف ، السيرة النبوية لابن كثير وابن
هشام والتفكير الفلسفي في الإسلام ، وشفاء الغرام باخبار البلد الحرام .

(٣) السيرة الحلبية ج ١ ص ٢٠٠ .

لقد كان التحمس لونا من ألوان التعبّد البعيد عن الوثنية القريب من الملة الخنيفية فكان جوا رائقاً من شبه الالحاد .

لقد كان التحمس موجة من التدين وهو محاولة عقل يعوزه الوحي في الإجابة عن سؤال :
أين العدل الديني ؟

أما الخنفاء فقد قالوها : إن لله ديناً هو أفضل مما أنتم عليه .

والحكماء : ما فتئوا يعظون الناس .

والباحثون : كانوا أفانين شتى .

والحمس : اندفعوا بوجدان معتز بجوار البيت الحرام فأنشأوا لهم ديناً ومنهبا خاصاً .

وكل هذه الألوان والأنماط كانت عوامل بعث قلقل قيم الأصنام كآلة .

وزلزل في النفوس قدسية كانوا يحملونها لها وزحزح الفكر خطوة إلى يوم يطلع فيه الدين الصحيح ، ولقد ترقب العقلاء والمصنفون الذين هداهم الله ذلك اليوم .

وانتظرت البيئات الاجتماعية بهذه الإرهاصات فجر الحقيقة فقد أذن بالشروق .

خامسا : نموذج العدل الاجتماعى

حلف الفضول

كانت هذه الشكيمة واحدة من أخلاقيات المجتمع العربى قبل الرسالة وهى إحدى آثار التدين الذى انتشر فى حنفيته بين كبار المفكرين وذوى رأى والمشورة .

وقضية العدل الاجتماعى تبلور فى حلف الفضول وفيه يقول ابن هشام :

تداعت قبائل من قریش إلى حلف الفضول ، فاجتمعوا له فى دار عبد الله بن جعدان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تميم بن مرة ابن كعب بن لؤى ، اشرفه وسنه فكان حلفهم عنده : بنو هاشم ، وبنو عبد المطلب وأسد بن عبد العزى ، وزهرة بن كلاب ، وتمام ابن مرة . فتعاقدوا ، وتعاهدوا ، على : ألا يجحدوا بمكة مظلوما من أهلها ، وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس ، إلا قاموا معه وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظالمه ، فسعت قریش ذلك الحلف « حلف الفضول » (١) .

(١) السيرة الحلبية ج ١ ص ١٢٧ ، سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٤٥ تحقيق الشيخ محي الدين ، السيرة النبوية لابن كثير ج ١ ص ٢٥٨ - ٢٦٢ .

وفي مجال التطبيق لهذا الحديث والبواعث عليه يقول الأستاذ
المرحوم محمد بلّث غنيم في كتابه : خلاصة الكلام في تاريخ الجاهلية
والإسلام :

وتعاقبوا ليكونن يدا واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدي
إليه حقه : شريفاً ، أو ضعيفاً ، ثم مشوا إلى العاص بن وائل فانتزعوا
منه ساعة الزبيدي ، — فدفعوها إليه ، وصاروا دائماً يأخذون من
الظالم للمظلوم حقه على وفق « حلف الفضول » الذي كان أشرف
خلف في الجاهلية^(١) .

ويقول :

وهذا الحلف وأمثاله من العوائد العربية الشريفة يدل على ما كان
لهم من الميل للحق والمروءة التامة والبعد عن نحاس الأمور ، واغتتيال
الحقوق كما تشهد بذلك أخبارهم ، وتنطق به أشعارهم^(٢) .

ومن تعليقات فضيلة الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد على هذا
الحلف قوله :

« هذا الحلف أشرف حلف في العرب »^(٣) .

(١) خلاصة الكلام في تاريخ الجاهلية والإسلام ج ١ ص ١٥٦ .

(٢) خلاصة الكلام في تاريخ الجاهلية والإسلام ج ١ ص ١٥٦ .

(٣) سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٤٥ هامشه ، تحقيق فضيلة الشيخ محمد محيي الدين
عبد الحميد .

وأجمل ما قيل فيه من أعلام الفكر الإسلامى الحديث مقالة الدكتور
عبد الحليم محمود :

هذه العاطفة الدينية تبعها كلام من لوازمها ، عمل أخلاقي كريم
قد بلغ من السمو حدا لا يكاد يحدث في التاريخ إلا نادرا (١) .
لقد كان العدل الاجتماعى فى صورة حلف الفضول أثرا سلوكيا
للعادل الدينى الذى اتخذ عديدا من الاتجاهات فى التحدث والبحث
والتوحيد والتحمس .

ويصور قيمة هذا الحلف الخليل ما يرويه الكتاتبون فى السيرة
النبوية عن رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذا الحلف بعد
النبوة :

يروى صاحب الروض الأنف عن ابن قتيبة :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفا لو دعيت به فى
الإسلام لأجبت (٢) :

وفى كتاب الوفا بأحوال المصطفى ، والسيرة الحلبية ، والسيرة ،
النبوية لابن هشام يروون :

(١) التفكير الفلسفى فى الإسلام ص ٣٤ .

(٢) الروض الأنف ج ١ ص ٩١ ، ٩٢ .

أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به
جر النعم ، ولو دعيت به في الإسلام لأجبت ^(١) .

وفي السيرة النبوية لابن كثير عن الزهري عن محمد بن جبير
ابن مطعم عن أبيه قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

شهدت مع عمر متي حلف المطيبين فما أحب أن أنكثه — أو كلمة
نحوها — وإن لي جر النعم ^(٢) .

ويروى كذلك عن عمر بن أبي سلمة عن أبيه عن ابن هريرة رضى
الله تعالى عنه قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ما شهدت حلفاً لقريش إلا حلف المطيبين ، وما أحب أن لي جر
النعم وإنني كنت نقضته ^(٣) .

ويروى كذلك عن عبد الله ، عن محمد وعبد الرحمن بنى أبي بكر
رضى الله تعالى عنهم جميعاً : قالوا :

(١) راجع السيرة النبوية لابن هشام ج ١ ص ١٤٥ ، الروض الأنف ج ١
ص ٩٢ السيرة الحلبية ج ١ ص ١٢٦ ، الوفا بأحوال المصطفى ج ١ ص ١٣٨ .
(٢) ، (٣) السيرة النبوية لابن كثير ج ١ ص ٢٥٧ ، ٢٥٨ .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً لو دعيت به في
الإسلام لأجبت .

تحالفوا أن يردوا الفضول على أهلها ، وألا يعز ظالم مظلوماً (١) ،
وكفى هذه الخلقة تكريماً وتعظيماً أنها حظيت بثقة رسول الله صلى
الله عليه وسلم وهو الذي لا ينطق عن الهوى أبداً .

ولم يكن حليف الفضول الذي أقيم لنشر العدل ودرء الظلم ، وغوث
الضعيف ، لم يكن جهده فرد حتى يستخف بفعايلته بل كان جهده
قبائل تشكل في عصرها استراتيجية لها وزنها وثقلها ويمكن أن يقال
في الوقت الحديث حسب النسب طبعاً إنها تمثل اتحادات الدول الحديثة
في إبرام المعاهدات الخاصة بالأمن والسلام ، والدفاع المشترك والتبادل
الثقافي والاقتصادي بفارق واحد ، وهو فارق جوهرى .

« إن حليف الفضول كان لإقامة العدل دون عوض فهو غرم كله
لا غنم فيه » .

أما المعاهدات في العصر الحديث فإنها تقوم على أساس حجم تبادل
المنافع بين الدول لا من أجل عدل في ذاته ولا من أجل حق أو دفاع
عن مظلوم .

(١) السيرة النبوية لابن كثير ج ١ ص ٢٥٨ .

وفرق كبير بين فكرتين : إحداهما تقوم على الغرم دون الغنم
وهدفها فقط استقرار الأمن وتحقيق العدل .

والثانية تقوم على الغنم قبل الغرم وقد يكون حفظ العدل فيها ضعيفاً •
إن الفارق بين هاتين الفكرتين كالفارق بين الإيثار الرفيع عند
المحتازين من صفوة المؤمنين .

وبين الأثرة المتطرفة عند الأوغاد من الانتهازين الماديين ، وكفى
بالعرب فيما قبل البعثة بذلك دليلاً على أنهم كانوا أصلح الناس ليخرج
فيهم النور الذي تحيا به الحياة (١) .

(١) لم نشأ أن نخرج في الحديث على حلف الفضول على سببه وعلة تسميته لأمرين . .

الأول — أن هذا البحث قد استوفى في البحث الذي أعد للماجستير .

الثاني : أن هاتين النقطتين ليستا بذات صلة بفقہ ایراد . حلف الفضول هنا كمرکز
لمستوى التدين وما استتبعه من آثار اجتماعية في إقامة العدل والحق ، ويمكن العود إلى السيرة
الخليبية ج ١ ص ١٢٦ ، ابن هشام ج ١ ص ١٤٥ . التفكير الفلسفي في الإسلام ص ٣٤ .
راجع المظهر ص ١٦٧ .

سادسا : نموذج التقاليد والعادات

تمهيد :

من التقاليد الفريدة التي امتازت بها الأمة العربية إقامة أسواق للعلم والحكمة والقريض والقضاء .

يلقى فيها الحكماء نفائس حكمهم .

ويقضى فيها بالحق والعدل .

وتتبادل فيها الأسرى .

وترتجل فيها الأشعار .

وتبحث فيها الملاحظات والحوليات .

ومن هذه الأسواق :

عكاظ (١) .

مجنة (٢) .

(١) قرية بالصحراء بين نخبة والطائف ، على ثلاث مراحل من مكة المكرمة وحتى إلى الطائف أقرب ، وكان موعد هذا السوق أواخر شهر شوال حتى اليوم العشرين من ذي القعدة كل عام .

(٢) موضع قرب مكة المشرفة (ونظمتها جائز بفتح الميم وبكسر ها) وكان مواعده العشر الأواخر من ذي القعدة بعد أن يفحص الناس من عكاظ .

ذو الحجاز^(١)؛

وفيه كانت تدور أنماط من الانتاج العقلى وتقوم عادات وتقاليده
تهدف إلى :

إقامة العدل .

وتصفية النفس .

وبعث النجدة والشهامة والكرم والعفاف .

وتركيز أسس الايمان بالحنيفية السمحاء .

وينقل المسعودى فى مروج الذهب خطبة قس بن ساعدة الياضى
وهى مشهورة فى اتجاهاتها الحنيفية ، ودعوته فيها إلى توحيد الله عز
وجل^(٢) .

(١) موضع خلف عرفات على بعد فرسخين ، ويقول الجوهري ، إنه موضع
بني وكان موعدا من يوم التروية إلى نهاية موسم الحج .

وفى السوقين الأخيرين كانت العرب تتم بافاتها فى سوق عكاظ ، والحديث عن هذه
الأسواق مطول فى كتاب : أخبار مكة المشرفة للازرقى ج ١ ص ١٨٨ طبع ببيروت
وكتاب ، شفاء الغرام بأخبار الباء الحرام ج ٢ ص ٢٨٢ - ٢٨٥ طبعة قديمة وكتاب
خلاصة الكلام فى تاريخ الجاهلية والإسلام ص ١٤٩ ، راجع المحبر ص ٢٦٣ -
٢٦٨ .

(٢) راجع خطبة قس بن ساعدة فى مروج الذهب ج ١ ص ٦٩ ، ٧٠ تحقيق
الشيخ محيى الدين .

وينقل صاحب جواهر الادب باقات من قريض شعراء العصر
الجاهلي ، وفي قريضهم من المبادئ ما يصور الخلقة العربية والسلوكية
الاجتماعية تصويرا مضيئا واعيا .

* يقول زهير بن ابى سلمى فى تصفية النفس والخوف من الله :
فلاتكتمن الله ما فى نفوسكم ليخفى ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر فيوضع فى كتاب فيدخر ليوم الحساب أوعجل فينتقم^(١)
* ويقول عنتر بن شداد فى الخلق العفيف :

وأغض طرفى إن بدت لى جارتى
حتى يوارى جارتى مثـــــــواها

* وفى الشهامة والعفة يقول :

ينجرك من شهد الواقعة أنى
أغشى الوغى وأعف عند المغنم

* ويقول طرفة العبد فى الزهد وتزكية النفس :

أرى الموت يعتام الكريم ويصطفى
عقيلة مال الفاحش المتشدد

(١) المعلقة العشر ص ٩١ وكتاب جواهر الادب ج ٢ ص ٤٩ .

أرى العيش كنزا ناقصا كـل ليلة
وما تنقص الأيام والدهـر ينقـد
لعمرك إن الموت ما أخطأ الفـتى
لكالطول المرخى وثنيـاه باليد
متى ما يشاء يسوما يقـود لحتفـه
ومن يك في حبـل المنية ينقـذ^(١)

* وحول هذا المعنى يقول السموعل بن عاديا :
إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه
فكـل رداء يرتديه جميل
وإن هو لم يحمل عـلى النفس ضميمها
فليس إن حسن الثناء سـبيل^(٢)
* ويقول لبید بن ربیعۃ فی الیوم الآخر :
أرى الناس ما يبارون قدراهمـهم
بلى كل ذى لب إن الله واصل
ألا كل شيء ما خلا الله باطل
وكـل نعيم لا محالة زائل

(١) المعانيات العشر للإمام الشافعي ٨٢ ، ٨٣ .

(٢) جواهر الأدب ج ٢ ص ٢٥٩ .

وكـل امرئ يـوما سيعلم غيبه
إذا كشفت عنـه الاله الحصائل

* ويقول امية ابن أبي الصلت :

اله العـالمين وكـل أرض	ورب الراسيات من الجبال
بناها وابتنى سبعا شـدادا	بلا عمد يرين ولا رجال
وسواها وزينها بنـور	من الشمس المضيئة والهلل
وشق الارض فانبعجت عيونا	وأنهارا من العذب الزلال
وبارك في نواحيها وزكـى	بها ما كان من حرث ومال
فكل معمر لا بـد يـوما	وذى دنـيـا يصير إلى زوال
ويقنى بعد جدته ويبـلى	سوى الباقي المقدس ذى اللال
وسيق المحـرمون وهم عمراة	إلى ذات المقامع والنسكال
فليسوا بميتين فيستريحـوا	وكلهم بحر النار صال
وحل المتقون بسـدار صدق	وعيش ناعم تحت الظلال ^(١)

هذا هو الجو الفكري يعطى صورة حية عن كمال الحرية التي تمتع بها المجتمع العربي فيما قبل الرسالة :

والحرية الفكرية تصور بدقة أنماط الحلقة السلوكية فان الأدب :
شعرا ونثرا قالب القيم الأخلاقية لأي مجتمع لأنه تعبير انفعالي عن
الوجدان الذي يشكل السلوك الاجتماعي في دوافعه ورغباته وأمزجته .

(١) راجع جواهر الأدب ج ٢، ص ٢٥٣ .

المستوى الأخلاقي :

وعلى هذا يمكن ادراك أبعاد الحديث النبوي الشريف :
بعثت لأتمم مكارم الأخلاق .

إن مكارم الأخلاق هي وظيفة الرسالة الخاتمة ، إن الأخلاق
في الأمة العربية وفي العالم كله تتم مكارمها بالرسالة الخاتمة .

ومعنى هذا : أن الأخلاق التي يدعو إليها الإسلام والتي سيتممها
البعث المحمدي الكريم لها أصول ، وهذه الأصول في الأمة العربية
كانت أكثر عددا ، وأكثر أصالة ، وارتفاع طهرا ، وأبقى شرفا
من غيرها : فقد كان لهم من الأخلاق والسنن وطهارة العرض ما جاء به
القرآن الكريم تشريعا وقانونا .

يقول الشهرستاني : جزاه الله خيرا ، وقد وضع في كتابه عنوانا :

« سننهم التي وافقهم القرآن عليها وبعض عاداتهم » .

« كان العرب في جاهليتها تحرم أشياء نزل القرآن بتحريمها ،
كانوا لا يتركحون الامهات ، ولا البنات ، ولا الخالات ولا العمات ،
... الخ النص (١) .

لقد كان جوا كريما عاديا :

لم يكن مجتمعا كامل السمو الخلقى .

(١) الملل والنحل ج ٢ ص ٢٥٣ راجع المحبد ص ٣٢٥ .

ولم يكن مجتمعا كاملا الانحراف الخلقى :

وانما كان مجتمعا ذا أخلاق فاضلة :

نعم ، ليس قمة ولا ممتازا ولكنه كان مجتمعا فاضلا .

ليس فيه من بنى بآبنته :

وايس فيه من بنى بأخته :

وليس فيه من دفعت عرضها رشوة^(١) :

إنه فى أدنى التصورات كان مجتمعا يؤمن بالشرف بينما كان غيره لا يأبه^(٢) بالشرف :

ولقد ظلم الحقيقة بجانب من الكتاب الذين جعلوا من المجتمع العربى فسادا يتعمل به لضرورة البعث المحمدى ولو أن هذا الجانب كان من غير علمائنا الأجلاء لكان الأمر ولكن فضيلة الأستاذ عبدالفتاح شحاتة يذهب فى كتابه :

« تاريخ العرب وعصر الرسول صلى الله عليه وسلم » إلى غير الصواب فى قضية الأخلاق فى عصر الجاهلية فيقول :

(١) الطبرى ج ٢ ص ٩٣ ، الدعوة الإسلامية دعوة عالمية للأستاذ على عبد الحليم

فاذا ما رددنا البصر إلى العرب وجدناهم قبائل متخالفة في النزعات
خاضعة للشهوات فخر القبيلة في قتال أخيها ، وسفك دماء أبطالها ،
وسبي نسائها ، وسلب أموالها ، وقد بلغوا من سخافة العقل حدا
صنعوا فيه أصنامهم من الحاوي ثم عبدوها فلما جاعوا أكلوها .

وبلغوا من سفههم أن قتلوا بناتهم تخلصا من عار حياتهن ، أو فرارا
من نفقات معيشتهن ، وبلغ الفحش منهم مبلغا لم تعد معه للعفاف
قيمة (١) .

ثم يستنتج فضيلته من ذلك : أن حالة العرب كانت تبعث الأسى
والحزن في النفس ، وعلى حد تعبيره « جو نحاق وبيئة مضطربة ،
فاسدة (٢) » .

هذا التصوير ليس على إطلاقه صحيحا . وليس مع ما قدمته في صدر
هذا البحث دقيقا ولأضع أمام النص السالف نصا لمؤرخ موقر ذي
وزن مقدر في التاريخ للأمم الإسلامية الأستاذ الدكتور حسن إبراهيم
حسن ، إذ يقول :

(١) ، (٢) تاريخ العرب وعصر الرسول صلى الله عليه وسلم ج ٢ ص ٢٤
لقد تأثر بهذا الرأي الدكتور هيكل في كتابه : تاريخ الأمة الإسلامية ص ٦٥
وكنا نود بما له من منزلة خاصة في العمل الإسلامي أن يزن المسألة بروح أدق انصافا .
راجع الكتاب — السالف ص ٥٠٨ سنة ١٩٦٥ م . (باللغة الملاوية) .

« وكان للعرب نظام ثابت في الزواج ، فكان جمهورهم يقترون بالزوجة بعد رضاء أهلها ، كما كان كثير منهم يستشيرون البنات في أمر زواجهن » .

وينبغي ألا نخلط بين هذا الارتباط بالزواج وبين غيره مما عرف عن بعض العرب من اجتماع الرجل بالمرأة بغير هذه الطريقة ، وهذا الأمر لم يكن يستحسنه جمهور العرب مع ما عرف عنهم من غيرة على الأهل ومحافظة على الشرف حتى كان من النادر أن يرى الإنسان بنتا بالغة قد أدركت سن الزواج ، أو أرملته صغيرة في السن لم تتزوج إذ كان من الضروري أن يكون للأسرة أطفال عديدون ، كي تكون غنية بأفرادها قوية محترمة .

وكانوا يطلقون ، والطلاق بيد الرجل ، إلا أنه كان هناك نساء يشترطن أن تكون الفرقة بأيديهن :

ومن عاداتهن المستقبحة وأد البنات مخافة المذلة ، أو العار ، على أن هذا الأمر لم يكن شائعا عند العرب ، بل كان في بعض الطبقات المنحطة منهم خشية الفقر ، وعلى الأخص في : بني أسد وتميم^(١) .

(١) تاريخ الإسلام السياسي والديني - الدكتور حسن إبراهيم حسن ج ١ / ص ٦٤ ، ٦٥ .

ولفضيلة الشيخ عبد الفتاح شحاتة نص شبهه بنص الدكتور حسن إبراهيم فلأضعه هو الآخر أمام النص الأول :

« والمتتبع لأخبارهم وأشعارهم يحس بهذا الاحترام الذى للمرأة الحضرية أو الارستقراطية وأنهما لم تكن من سقط المتاع ، بل كانت تحظى بقسط غير قليل من الحرية .

وإن علاقة الرجل بها كانت علاقة معاونة فى حمل أعباء الحياة .
ولقد بلغ من احترام العربى لامرأته أن كان يسالم أحياناً من سالمت
ويحارب من حاربت (١) .

ويقول أيضاً :

كان العربى إذا أراد أن يتمدح بما له من المقام المحمود فى نظر
العرب من الكرم والشجاعة لم يكن يخاطب فى الغالب إلا المرأة :
يقول حاتم الطائى :

أيا ابنة عبد الله وابنة مالهـ
ويا ابنة ذى البر دين والفرس الورد
إذا ما صنعت السـزاد فالتـمى لـه
أكيـلا فاني لست آكله وحـدى

(١) تاريخ العرب و عصر الرسول صلى الله عليه وسلم ج ٢ ص ٥٢ .

* ويقول عنبرة :

هلا سألت الخيل يا ابنة مـالك إن كنت جاهلة بما لم تعلمي
ينبيك من حضر الواقعة انـني أغشى الوغى وأعف عند المغنم
فيتناقض الشيخ مع نفسه في التصوير الذي حمله نصه الأول ، ويتفق
مع النص الذي نقلته عن الدكتور حسن إبراهيم .

ولكن الشيخ عافاه الله يعود مرة أخرى بعد نصه الثاني فيقول :
هذه مثل تعطيك صورة لما كانت عليه المرأة في جاهليتها ، وتكفي
دلالة على امتهاها ، وأن مكانتها كانت أدنى إلى مكانة الرقيق^(١) .

ويرد عليه الدكتور حسن إبراهيم إذ يصور وضع المرأة الاجتماعي
بغير هذه الصورة فيقول :

ومن يتبع أشعار العرب في الجاهلية يجزم أن المرأة العربية كانت
تستمتع في ذلك العصر بقسط وافر من الحرية ، فكانت تستشار في
المهام الأمور ، بل تشارك الرجل في كثير من أعماله وكانت علاقتها
بزوجها على درجة من الرقي أكثر مما تخيل إلينا ، يدل ذلك على ذلك
افتخار الرجل بنسبه لأمه كما يفخر بنسبه لأبيه واعطاهم المرأة
قسطها مما تحب من النسب إذ بدأوا قصائدهم التي يفخرون فيها

(١) تاريخ العرب وعصر الرسول صلى الله عليه وسلم ج ٢ ص ٥٢ .

بمحامد قومهم وعظم فعالهم ، ناهيك بما كان للمرأة العربية من الأثر
الصالح في الاسلام^(١) .

ونعود إلى فضيلة الشيخ عبد الفتاح شحاتة فنهجده معنا في الرأي
إذ يقول :

« وكان كثير من عقلاء العرب لا يرتضى هذا الفعل ، وكان جمع
منهم يفتنون هذا النوع من أهلها ، ومن هؤلاء زيد بن عمرو بن
نفيل^(٢) . وبصفة عامة فإن فضيلة المرحوم الشيخ محمد الحضري بك
يرد على التهمة التي يلصقها بعض الكتاتيب بالأمة العربية فيما قبل البعثة
فيقول :

« يظلم العربي من زعم أنه كان ينظر إلى المرأة نظرة استخفاف
أو إهانة ، فانا إذا كنا نستقي لك المعادلات من شعرهم الذي هو
ديوان أخبارهم نرى الأمر على العكس من ذلك » .
وينقل - رحمه الله تعالى - أشعارهم ثم يقول :

وبالجملة فإن المتتبع لأشعار العرب لا يشم منها رائحة الصغار ،
والإهانة للمرأة ، ويفخرون بنسبهم إلى أمهاتهم كما يفخرون بنسبهم إلى
آبائهم ، وكانت المرأة فيهم إذا أرادت فرقت ، وإذا شاءت
جمعت^(٣) .

(١) تاريخ الإسلام السياسي ج ١ ص ٦٤ .

(٢) تاريخ العرب وعصر الرسول صلى الله عليه وسلم ص ٦١ ، ٦٢ .

(٣) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية ج ١ ص ١٧ - ٢١ .

ولإذن :

فلم تكن الجوانب السلبية في الخلقية العربية إلا ظاهرة انحراف في السلوك وليس ذلك الانحراف عن السلوك الأخلاقي للأمة العربية .

وأى مجتمع يمكن أن يخلو من انحراف في السلوك ؟

إن كل مجتمع بشري لا يمكن أن يخلو من الانحرافات ولهذا يوجد المصلحون الاجتماعيون . ولقد حفل المجتمع العربي القديم بمثل هذا المستوى من العمل الاجتماعي كما جاء في كتاب فضيلة الشيخ عبد الفتاح شحاتة^(١) .

ولإذن فظاهرة الانحراف لا ينبغي أن تؤخذ كمقياس مادامت هناك مقاييس أخرى وفي مقدمة هذه المقاييس الشعر العربي : المرأة المصقولة التي تكشف عن خبايا أسس الأخلاق في المجتمع ثم وجود وجهاء الإصلاح مثل زيد بن عمرو بن نفيل وعبد المطلب بن هاشم . فلقد كان عبد المطلب حكيما مشرعا فحرم قتل الموعودة، ومنع نكاح المحارم^(٢) وكان هناك أشرف تميم الذين كرهوا وأد البنات^(٣) .

(١) تاريخ العرب وعصر الرسول صلى الله عليه وسلم ج ١ ص ٦١ ، ٦٢ .

(٢) راجع مروج الذهب ج ١ ص ٢٣٩ - الشهرستاني ج ٢ ص ٢٤٨ تهذيب تاريخ الفلسفة الإسلامية ص ١١٠ الأستاذ الأكبر مصطفى عبد الرازق .

(٣) تاريخ الأمم الإسلامية محمد الحصري بك ج ١ ص ٢١ .

على أن وأد البنات لم يكن خلقا فطريا ولا مكتسبا ، بل كان صورة من صور الإكراه نتيجة ظرف طارئ ربما طال عمره فصار عند قبائله عادة أو تقليد . وحول هذا التفسير يقول فضيلة الشيخ عبد الفتاح شحاته :

إن القوم منعوا الأثاوة التي كانوا يدفعونها للنعمان بن المنذر ملك الحيرة فسلط عليهم أخاه « الريان » مع كتيبة من الجيش فسبى النساء واستاق الأنعام .

ثم يقول :

وهذا المذهب كان عليه قليل من قبائل العرب^(١) .

وإذن فليس الجو العربى باعثاً على التأفف وليس جوا خانقا ولا مضطربا لما قال فضيلته .

وإن الظواهر الطارئة على مجتمع له نسب نبوى وفكر قيادى ، وحرية مصونة ، — لا ينبغى أن تؤخذ على أنها نمط من أنماط السلوك أو أنها مقياس لأخلاقه .

وإن افتتاح المعلقة — وهى مقدسات الشعر العربى وقمة الفن التعبيرى — بذلك الهتاف العطوف بالمرأة ، ليعطى الباحثين فى الدراسات

(١) تاريخ العرب وعصر الرسول صلى الله عليه وسلم ج ٢ ص ٦٠ ، ٦١ .

الاجتماعية والتاريخية للبيئة العربية فيما قبل الرسالة معنى شريفاً في
تصور وتصوير الحلقة العربية الفاضلة كهيئة استقبال لأشرف رسالة
تختتم بها النبوات جميعاً .

* إن هتاف امرئ القيس :

أفاطم مهلا بعض هذا التمدل
وإن كنت قدأزمت صرعى فأجلى
* وهتاف طرفة :

لحولة اطلال ببرقة تشم-----
تلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد
* وهتاف زهير :

أم من أم أوفى دمنة لم تكلم^(١)
ودار لها بالرقمتين ك-----
بحومانة ال-----دراج فالتمثل
مراجع وشم فى نواشر معصم
* وهتاف عنتره :

يا دار عبلة بالجواء تكلم-----
وعمى صباحا دار عبلة واسلمى
إن هذه الهتافات فى المعلقات لقرائن تدل على المعنى الشريف الذى
ينبغى أن يصل إليه الباحثون فى دراساتهم لأخلاق الأمة العربية قبل
الرسالة .

(١) قال الخطيب :

حومانة الدراج فالتمثل ... موضعان بالعالية ، المعلقات العشر للشنقيطى .

إن الشعر كالمراة في الافصاح عن مستوى المملكات والنفوس
ونخبايا الصدور وقد كانت المراة العربية في القرون الوسطى في باقات
الشعر العربي هي وحدها العبير الزكى الذى عملاً الوجود الإنسانى
للمراة رفعة في المستوى ، وإنسانية في السلوك، أهملتها ذلك لأن تكون
نصف مجتمع سوف يتحمل أقدس الرسالات وأتمها باذن الله .

القاعدة والتطبيق :

« يعقد العلامة ابن خلدون فصولاً عن : البدو والحضر في كتابه
المشهور « مقدمة ابن خلدون » والتي حققها أخيراً وعلق عليها الأستاذ
الدكتور على عبد الواحد وافي ، ومن أشهر ما كتبه في هذا الموضوع
فصلان :

الأول : « فصل في أن أهل البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضر »
يقول فيه :

« وسببه أن النفس إذا كانت على الفطرة الأولى كانت متهيئة لقبول
ما يرد عليها وينطبع فيها من خير أو شر ، قال صلى الله عليه وسلم :
(كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه ، أو يمجسانه) . »

ويقدر ما سبق إليها من أحد الخلقين تبعد عن الآخر ويصعب عليها
اكتسابه فصاحب الخير إذا سبقت نفسه إلى عوائد الخير وحصلت
له ملكته بعد عن الشر وصعب عليه طريقه .

وكذلك صاحب الشر إذا سبقت إليه أيضا عوائده ، وأهل الخضر
لكثرة ما يعانون من فنون الملاذ وعوائد الترف ، والاقبال على الدنيا
والعكوف على شهواتهم منها ، قد تلونت أنفسهم بكثير من مذمومات
الخلق والشر ، وبعدت عليهم طرق الخير ومسالكه بقدر ما حصل
لهم من ذلك ، حتى لقد ذهبت عنهم مذاهب الحشمة في أحوالهم ،
فتجد الكثير منهم يقدعون في أقوال الفحشاء في مجالسهم ، وبين
كبرائهم وأهل محارمهم لا يصدهم عنه وازع الحشمة لما أخذتهم به
عوائد السوء في التظاهر بالفواحش قولا وعملا .

وأهل البدو وإن كانوا مقبلين على الدنيا مثلهم إلا أنه في المقدار
الضروري لا في الترف ولا في الشيء من أسباب الشهوات واللذات
ودواعيها .

فعوائدهم في معاملاتهم على نسبتها ، وما يحصل فيهم من مذاهب
السوء ومذمومات الخلق بالنسبة إلى أهل الخضر أقل بكثير فهم أقرب
إلى الفطرة الأولى ، وأبعد عما ينطبع في النفس من سوء^(١) .

والقاعدة التي نستخلصها من هذا النص :

أن أهل البدو أقرب إلى الفطرة بكل معاني الخير والشرف والشهامة
والنبيل والنجدة والاباء ، والعفاف والوفاء ، والمعروف والاحسان ؛
وكانت تلك القاعدة أصل في أمة العرب من سواها .

(١) مقدمة ابن خلدون ج ٢ ص ١٤٤ تحقيق الدكتور علي عبد الواحد وافي .

الثانى : فصل فى أن أهل البدو أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضرة
يقول فيه :

والسبب فى ذلك أن أهل الحضرة ألقوا بجنوبهم على مهاد الراحة
والدعة ، وانغمسوا فى النعيم والترف ووكلوا أمرهم فى المدافعة
على أموالهم وأنفسهم إلى واليهم والحاكم الذى يسوسهم ، والحامية
التي تولت حراستهم ، واستناموا إلى الأسوار التي تحوطهم ،
والحرز الذى يحول دونهم فلا تهيجهم هبة^(١) ، ولا ينفر لهم صيد ،
فهم غارون^(٢) آمنون .

وأهل البدو لتفردهم عن المجتمع وتوحشهم فى الضواحي ، وبعدهم
عن الحامية ، وانتبأهم عن الأسوار والأبواب ، قائمون بالمدافعة
عن أنفسهم لا يكلونها إلى سواهم — ولا يثقون فيها بغيرهم ، فهم دائماً
يحملون السلاح ويتلفتون عن كل جانب فى الطريق ، يتجافون
عن الهجوع الا غراراً : فى المجالس ، وعلى الرحال وفوق الأفتاب
ويتوجسون^(٣) للنبات والهيئات ويتفردون فى القفر والبيداء مدلين

(١) الهبة : الصوت المفزع وفى الحديث : « خير الناس رجل ممسك بعنان
فرسه فى سبيل الله كلما سمع هبة طار إليها » . من حديث رواه مسلم .

(٢) جمع غار بتشديد الراء .

(٣) يتسمعون للصوت الخفى .

ببأسهم ، قد صار البأس لهم خلقاً ، والشجاعة سجية يرجعون إليها حين دعاهم داع أو استنفرهم صارخ ؟

وأهل الحضرمية بها نالطوهم في البداية أو صاحبوهم في السفر عيال عليهم لا يملكون معهم شيئاً من أمر أنفسهم ، وذلك مشاهد بالعيان^(١) :

والقاعدة التي نستخلصها من هذا النص :

أن أهل البدو صرحاء أقوياء شجاعتهم سجية والترصد للأحداث طبع ومجاهدة المخاطر أمر لا يخيف وأنهم يسالمون ولا يعتدون :

وكانت تلك القاعدة أصل في أمة العرب دون سواهم فقد عاشوا في ديارهم آمنين والفرس والرومان بينهم تدور رحى الحرب ويتداينون النصر والهزيمة ، دون هدف فيه خير للناس .

ومن الفصلين السابقين ترسم جوانب الحياة العربية قبل البعثة فيما يتعلق بالأخلاق الاجتماعية من ناحية أصلاتها فطرياً ، ويثبت أنهم وحدهم أصل البشر في تلك الحقبة السابقة على الرسالة قد اكتملت لديهم قواعد الأخلاق حسبما تقرر دراسات علم الاجتماع : ويبقى ذلك لهم حظاً يتبناه :

(١) مقدمة ابن خلدون ج ٢ ص ٤١٨ ، ٤١٩ .

ويمضى معنا فضيلة الشيخ محمد محمد مصطفى النجار مقررًا
الجانب التطبيقي لهذه القواعد معللاً لها فيقول :

أما الشجاعة فكان يدفعه إليها انفراد في البادية بعيداً عن المجتمع .
وأما الكرم فكان يدفع البدوى إليه عيشه في الصحراء وتنقلاته
فيها وتعرضه للنزول على القبيلة أثناء رحلاته^(١) :
ثم يقول :

ويمكن تلخيص أخلاق البدو في :

الشجاعة ، والكرم ، والاعتماد على النفس ، والذكاء ، وعزة
النفس ، وإباء الضيم ، والحمية ، والشجاعة .

وأخيراً يحيا البدو في حرية مطلقة ولا يطبقون سلطاناً يقيدهم بنظام
إلا ما كان من أنفسهم فهم يخضعون لرئيس قبيلتهم ويأبون
الخضوع لأي أجنبي^(٢) .

وأرفع عبارة تصور جو الانطلاق للحرية في مكة مقالة أهلها
لعثمان بن الحويرث .

« إن مكة حى لقاح لا تدين للملك »^(٣) .

(١ ، ٢) تاريخ العرب قبل الإسلام ص ٥٧ ، ٥٨ .

(٣) الروض الأنف ج ١ ص ١٤٦ .

يقول المسعودى :

و كان عبد المطلب أول من أقام الرفادة والسقاية بمكة :

ثم يشرح ذلك على هامش المروج فيقول :

الرفادة : شئء كانت تترافده قريش فى الجاهلية تخرج فيما بينها
مالا تشتري به للحجاج طعاماً وزبيباً^(١) :

وأما الفراسة فهى استدلال بهيئة الإنسان وأشكاله وألوانه وأقواله
على أخلاقه وما يكون له فى المستقبل^(٢) :

أما القيافة : فهى الاستدلال بأثر الماشى عليه .

ونوع آخر منها : وهو الاستدلال بأجزاء الجسم على صحة النسب
أو على بطلانه ، :

وأما الريافة فهى : معرفة استنباط الماء من الأرض بشم التراب
أو برائحة النبات .

فى هذا الجو :

جو الفطرة والصراحة والشهامة .

جو النجدة والمروعة .

جو الكرم والذكاء .

(١ ، ٢) مروج الذهب ج ١ ص ١٤١ ، ١٤٢ .

كان المجتمع العربي يعيش فترة التأهب ليوم عظيم : وحول هذه
المنزلة :

يقول ابن الفقيه : إن أهل مكة لم يؤدوا في الجاهلية إتاوة قط ،
ودانت لهم خزاعة وثقيف وعامر بن صعصعة^(١) .

ويقول الطبري : وكانت مكة في الجاهلية لا ظلم ولا بغى فيها
ولا يستحل حرمتها ملك إلا هلك مكانه ، فكانت تسمى الناسنة ،
وتسمى بككة تبكاً عناق البغايا^(٢) :

في هذا الجو اللقاح جو مكة أنقى الأجواء في حياة الجاهلية كان
المجتمع العربي بأقطاره كلها يحيا وحده صالحا لاستقبال الرسالة
العظمى التي ستنقل الناس من عبادة البشر إلى عبادة الله ومن ضيق
الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة .

وكان سحر هذا الفجر الصادق تتلأأ فيه إرهابات النبوة التي
التي سيتمم الله بها مكارم الأخلاق .

(١) من كتاب : دراسات في العصر الجاهلي ص ٩٥ راجع كتاب البلدان لابن
الفقيه ص ١٨ أوربا .

(٢) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٢٨٤ .

يقول الأستاذ الندوى :

وكانت أم القرى والجزيرة العربية لموقعها الجغرافى واستقلالها
السياسى خير مركز لرسالته ، وكانت الأمة العربية بخصائصها النفسية
ومزاياها الأدبية خير محل لدعوته ونخير داعية لرسالته^(١) :

لقد كان سحر هذا الفجر الصادق تتلأأ فيه ارهاصات النبوة التى
سيتمم الله بها مكارم الأخلاق :

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ٨٢ ط الخامسة .

الفصل الثاني

أعداد الرسول صلى الله عليه وسلم للرسالة

١ - الله أعلم حيث يجعل رسالته

روى الإمام الورع المحتسب الجليل أحمد بن حنبل ، والبزار ،
والطبراني والحاكم والبيهقي عن العرباض بن سارية السلمى - رضى
الله عنهم جميعا - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
إني عند الله لخاتم النبيين ، وإن آدم لمنجدل في طيئته وسأخبركم
عن ذلك :

أنا دعوة أبي إبراهيم .

وبشارة عيسى .

ورؤيا أمى التى رأت وكذلك أمهات النبيين يرين ، وأن أم رسول
الله صلى الله عليه وسلم رأت حين وضعت نورا أضاعت له قصور
الشام^(١) .

(١) راجع ص ٣٦٠ ج ٤ تفسير ابن كثير ، الطبرى ج ١ ص ٥٥٦ راجع

الفتح الكبير ج ١ ص ٤٥٥ شرح المواهب ج ١ ص ٣١ .

إن الحديث عن إعداد الرسول صلى الله عليه وسلم ليس بحثاً ولا دراسة عن سؤال كيف أعد عليه الصلاة والسلام لأن يكون نبياً ، وليس تنقيباً عن الأسباب التي جعلته نبياً .

فإن الجرى وراء ذلك النمط من الدراسة عبث وعجز وضلال .

إنما الحديث عن إعداد الرسول صلى الله عليه وسلم معناه الاتجاه إلى الخصائص الربانية التي اختص الله بها حبيبته وصفيه سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم ليكون للعالمين نذيراً .

ذلك لأن النبوة اصطفاء (الله يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ) ٧٥ سورة الحج .

يقول العلامة أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي :

« يخبر تعالى أنه يختار من الملائكة رسلاً فيما يشاء من شرعه وقادره ، ومن الناس لإبلاغ رسالته » (١) .

ولقد كانت إرادة الله تعالى وهو يختار ما يشاء قد حددت اصطفاء محمد صلى الله عليه وسلم رسولاً خاتماً : (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج ٣ ص ٢٣٥ .

ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَبْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ
الشَّاهِدِينَ^(١) . آل عمران الآية ٨١ .

قال علي بن أبي طالب وابن عباس رضي الله تعالى عنهما :

ما بعث الله نبيا من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث الله محمداً
وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه ، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته لئن
بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه .

ويؤيد هذا التفسير قول النبي صلى الله عليه وسلم :

(وإنه والله لو كان موسى حياً بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعني) :

وفي تفسير القرآن العظيم : وفي بعض الأحاديث :

(لو كان موسى وعيسى حين لما وسعهما إلا اتباعي)^(٢) .

وذلك هو في نظري جزء من معنى قوله عليه الصلاة والسلام :

(إني عند الله لخاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طينته) .

(١) راجع الشفاء ج ١ ص ٢٤٠ - ٢٤٦ .

(٢) تفسير القرآن العظيم ج ١ ص ٣٧٧ ، ٣٧٨ راجع هذا في نسيم الرياض في شرح
شفاء القاضى عياض لمولانا أحمد شهاب الدين الخفاجى المصرى وعلى هامشه راجع شرح
الشفاء لعلى القارى ص ٢٤٥ ، ٢٤٦ ج ١ ط الأزهرية ١٣٢٥ هـ أولى راجع شرح
الزرقانى على المواهب اللدنية ج ٥ ص ٢٤٣ راجع القرطبي ، ط الشعب .

ولهذا الميثاق كانت دعوة سيدنا إبراهيم عليه السلام :
(رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ
الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) .
١٢٩ — البقرة .

فقد جعل ابن كثير نص الحديث المذكور شرحاً لهذه الآية ، قال :
يقول تعالى لإخباراً عن تمام دعوة إبراهيم لأهل الحرم أن يبعث
الله فيهم رسولا منهم أى من ذرية إبراهيم وقد وافقت هذه الدعوة
المستجابة قدر الله السابق في تعيين محمد صلوات الله وسلامه عليه
رسولا في الأميين إليهم وإلى سائر الأعجميين من الإنس والجن كما
قال الإمام أحمد : أخبرنا عبد الرحمن بن مهدي عن معاوية بن صالح
عن سعيد بن سويد الكلابي عن عبد الأعلى بن هلال السلمي عن العرباض
ابن سارية ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إني عند الله
لخاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طينته وسأنبئكم بأول ذلك .
دعوة أبي إبراهيم ، وبشارة عيسى ، ورؤيا أمي التي رأت ، وكذلك
أمهات النبيين يرين^(١) .

(١) تفسير القرآن العظيم ج ١ ص ١٨٤ راجع الحاشية ج ١ ص ٥٦ وما
بعدها .

وأما فيما يتعلق ببشارة سيدنا عيسى عليه السلام ، ففي القرآن الكريم :

(وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ) ٦ - الصّاف .

ثم ساق ابن كثير مجموعة من الأحاديث تدور حول الذي نقلناه عنه آنفاً^(١) .

وأما رؤيا أم النبي صلى الله عليه وسلم فقد روى البيهقي في دلائل النبوة :

« وكانت آمنة بنت وهب أم رسول الله صلى الله عليه وسلم تحدث أنها أتيت حين حملت بمحمد صلى الله عليه وسلم فقيل لها : إنك قد حملت بسيد هذه الأمة فإذا وقع على الأرض فقولى : أعيناه بالواحد من شر كل حاسد » .

وقال : فإن آية ذلك أن يخرج معه نور يملأ قصور بصرى من أرض الشام فإذا وقع فسميه محمداً فإن اسمه في التوراة والإنجيل أحمد يحمده أهل السماء وأهل الأرض^(٢) .

(١) راجع تفسير القرآن العظيم ج ٤ ص ٣٥٩ ، ٣٦٠ - راجع حول هذه المادة شرح نسيم الرياض وشرح على القارى على الشفاء ص ٢٥٠ ج ٢٥١ ج ٢٠٠ راجع كذلك ص ٢١٧ ج ٢ شرح على القارى .

(٢) دلائل النبوة للبيهقي ج ١ ص ٩٣ ، ٩٤ تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان .

ويروى كذلك . : ليلة ولدته قالت : فما شئ أنظر إليه في البيت إلا نور وإني لأنظر إلى النجوم تدنو حتى إني لأقول ليقعن علي^(١) .
يقول ابن الجوزي في كتابه الوفا بأحوال المصطفى ، قالت آمنة : لقد رأيت ليلة وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم نورا أضاءت له قصور الشام حتى رأيتها .

وقالت آمنة أيضاً لما ضربها المخاض قالت : فجعلت أنظر إلى النجوم تدنو حتى قالت ليقعن علي . فلما وضعت خرج منها نور أضاء له البيت والدار حتى جعلت لا ترى إلا نوراً^(٢) .

وبعد :

فإن : (الله أعلم حيث يجعل رسالته)^(٣) .

عن عطاء ومجاهد عن ابن عباس رضى الله عنهم قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : فداك أى وأمى ، أين كنت وآدم في الجنة ؟

قال فتبسم : حتى بدت نواجذه ، ثم قال : كنت في صلبه ، وركب بي السفينة في صلب أبي نوح ، وقذف بي في صلب أبي إبراهيم ، لم يلتق أبواى على سمحاح قط ، لم يزل الله

(١) دلائل النبوة للبيهقي ج ١ ص ٩٣ ، ٩٤ تحقيق عبد الرحمن بن محمد عثمان .

(٢) الوفا بأحوال المصطفى ج ١ ص ٩٤ .

(٣) من الآية رقم ١٢٤ من سورة الأنعام .

ينتقلني من الأصلاب الحسبية إلى الأرحام الطاهرة صفيا مهذباً
لا تشيب شعبتان إلا كنت في خيرهما ، وقد أخذ الله بالنبوة ميثاقى ،
وبالإسلام عهدى ، ونشر في التوراة والانجيل ذكرى ، وبين كل
نبي صفتى ، تشرق الأرض بنورى والغمام بوجهى ، وعلمنى كتابه
وزادنى شرفاً فى أسمائه ، وشق لى اسماً من أسمائه فذو العرش محمود
وأنا محمد وأحمد ، ووعدنى أن يجهونى بالخوض والكوثر ، وأن
يجعلنى أول شافع وأول مشفع ، ثم أخرجنى من خير قرن لأمتى وهم
الحمادون يأمرؤن بالمعروف وينهون عن المنكر^(١) .

لقد نجد رسول الله صلى الله عليه وسلم من خير بيته ومن خير
قرن ، يقول عليه الصلاة والسلام :
بعثت من خير قرون بنى آدم قرناً قرناً حتى بعثت من القرن الذى
كنت فيه .

وفى صحيح مسلم : أن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل واصطفى
من بنى إسماعيل كنانة ، واصطفى من بنى كنانة قريشاً ، واصطفى من
قريش بنى هاشم واصطفانى من بنى هاشم^(٢) .

(١) السيرة النبوية لابن كثير ج ١ ص ١٩٦ .

(٢) السيرة النبوية لابن كثير ج ١ ص ١٩١ - الشفاء ج ١ ص ٤٣١ ، ٤٣٤
ومسلم باب - فضائل النبى - راجع شرح على القارى على الشفاء ص ٤٣١ ج ١ ط أولى
١٣٢٥ هـ المطبعة الأزهرية وكذلك ص ٤٣٣ راجع ج ٢ ص ٢٠١ على القارى الجامع
الصغير ج ١ ص ٦٧ .

وفى البخارى : بعثت من خير قرون آدم قرنا فقمنا حتى بعثت من القرن الذى كنت فيه^(١) .

ويروى الحاكم والبيهقى من حديث موسى بن عبيدة . : : عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال جبريل : قلبت الأرض من مشارقها ومغاربها فلم أجد أفضل من محمد .

وقلبت الأرض مشارفها ومغاربها فلم أجد نبى أب أفضل من نبى هاشم^(٢) .

أخرجه البيهقى والطبرانى .

وفى الصحيحين : أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر .

ذلك اختصاص الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم ، وذلك لإعداده هو جل شأنه له ليكون عليه الصلاة والسلام للعالمين رسولا .

(١) البخارى ج ٤ ص ١٨٦ فى باب صفة النبى صلى الله عليه وسلم شرح فتح البارى .

(٢) السيرة النبوية لابن كثير ج ١ ص ١٩٤ راجع الخصائص الكبرى ج ١ ص ٩٦ .

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا) . ٣٦ - الأحزاب .

ولقد شاء الله تعالى أن يملأ الجو الإنساني بأنباء هذا الرسول الكريم ليهيء المجتمع الإنساني لاستقبال دعوته حتى لا تكون فجأة ويكون للدين الحنيف إرهاصات تمهد له ، وتهيء النفوس لاستقباله : وكان أمر الله مفعولا .

وفي الطبراني ، عن ابن عمر :

أنه صلى الله عليه وسلم قال : إن الله عز وجل اختار خلقه ، فاختار منهم بنى آدم ، ثم اختار بنى آدم فاختار منهم العرب ، ثم اختار العرب فاختار منهم قريشاً ثم اختار بنى هاشم فاختارنى ، فلم أزل خياراً من^١ خيار^(١) :
وكفى بالله حسيباً .

٢ - ومبشرا

لم يكن المجتمع العربى غافلاً عن مستقبل يوم يشرق فيه فجر صادق ، فلقد كان الحنفاء نجوماً تتلألأ فى سماء الفكر العربى وكانت عنكاظ ومجنة وذو الحجاز مصابيح ليل تنير الطريق .

(١) راجع شرح الشفاء لعل القارى ج ١ ص ٤٣٤ .

وكانت رحلات الباحثين عن الحنيفية أعلامها على الطريق المسواء .
ومع هذا فإن الله جل شأنه قد هياً بمبشرات عديدة فرصاً توعى
المجتمع بحقيقة يوم النبوة الأخيرة .

فكانت هناك إرهابات بدلائل النبوة بدت في جميع مستويات
الأمة وعلى مراحل من الزمن حتى إشراقة الفجر الصادق .

وقد شاء الله أن تشمل هذه المراحل : ما قبل البدء ، وفي أثناء
الحمل وعند الرضاع ، وفي فترة الصبا ، وعند الشباب وقد آذن
الوحي بالنزول .

ثم استتبع هذه التوعية في المستقبل بعد البعث المحمدي آثارها
فكانت سبباً لحناب من الذين استيقظوا بها فدخلوا في دين الله آن
الشروق ،

ولنعرض نماذج لهذه المراحل فقد يطول بنا الحديث لو اتبعنا منهاج
الاسترسال في عرضها :

١ - قبل البدء

كانت أم قتال : رقية^(١) بنت نوفل تسمع من أخيها ، العلامة
ورقة بن نوفل : أن في الإنجيل والتوراة علامات النبي الخاتم وكان

(١) يرجع ابن سعد أن التي عرضت نفسها على عبد الله هي : قتييلة بنت نوفل
أخت ورقة بن نوفل ، وإليه تميل لوجود علاقة بين عرضها وأسبابه الثقافية التي قد =

ورقة يحتل منزلة عليا ، وشهرة في الحياة الفكرية والدينية عند العرب ، وكانت أخته أم قتال أكثر الناس سماعاً منه وكان اتصالها به ميسراً والثقة فيه كبيرة .

وبفراستها العربية شاهدت في جبين عبد الله بن عبد المطلب أنوار النبوة فتمنت للحظتها أن تكون هي أم ذلك النبي المترقب .

فاندفعت — وهي منفعة بلهب أمنيته — ودون تحفظ ولا اختيار للألفاظ قالت له :

لك مثل الإبل التي نحرت عنك وقع على الآن .

فقال لها :

أنا مع أبي ولا أستطيع خلافه ولا فراقه ^(١) :

== سمعتها من أخيها ، راجع ج ١ ص ٩٥ الطبقات ، راجع تاريخ الطبراني ج ٢ ص ٢٤٣ راجع الحلبية ج ١ ص ٤٦ المواهب ج ١ ص ١٠١ .

(١) راجع عبارة ابن هشام ج ١ ص ١٦٨ ، ١٦٩ ، ورواية أبي نعيم : أنها امرأة مشهودة تسمى : فاطمة بنت مرة الخثعمية ج ١ ص ٣٩ ولعل القصة ذات تكرار لعدد وقائعها ففي رواية أبي نعيم قال : كان عبد الله بن عبد المطلب احسن رجل رُئي قط ، خرج يوماً على نساء قريش مجتمعات ، فقالت امرأة منهن : أيكن يتزوج بهذا الفتى فتصيب النور الذي بين عينيه ، فاني أرى بين عينيه نورا « دلائل النبوة » ج ١ ص ٣٩ ، ٤٠ .

ويعضى أبو النبي عبد الله بن عبد المطلب بالنور الذى يحمله إلى منزل وهب بن عبد مناف بن زهرة وهو يومئذ سيد بنى زهرة : شرفاً ونسباً ، فيتزوج من آمنة وهى يومئذ أفضل امرأة فى قريش نسباً وموضعاً وأكرم امرأة فى حى العرب من جميع نواحي التفضيل والطهر والنقاء كمالات ، ورفعة وسموا . .

ثم يخرج من عندها ويلتقى مرة أخرى بأُم قتال فلا تعرض نفسها عاينه كما فعلت فى المرة الأولى فيسألها :

مالك لا تعرضين على اليوم ما كنت عرضتيه بالأمس ؟
فتجيبه :

لقد فارقت النور الذى كان معك بالأمس فليس لى بك اليوم حاجة .
ويروى صاحب الحلبية : أن سبب تزويج عبد الله بن عبد المطلب من آمنة بالذات ، أن عبد المطلب كان يأتى اليمن ، وكان ينزل فيها على عظيم من عظمائهم ، فنزل مرة عنده ، فاذا عنده رجل ممن قرأ الكتاب ، فقال له : ائذن لى أن أفتش منخرك ؟

فقال : دونك فانظر .

فقال : أرى نبوة ، وملكاً ، وأراهما فى المنافين :

عبد مناف بن قصي ، وعبد مناف بن زهرة .

فلما انصرف عبد المطلب ، انطلق بابنه عبد الله فتزوج عبد المطلب :
هالة بنت وهب فولدت حمزة ، وزوج ابنه عبد الله آمنة فولدت له
رسول الله صلى الله عليه وسلم^(١) ؟

لقد صدق عبد المطلب هذا التنبؤ ، واتخذ لذلك طريقاً عملياً واحتاط
وحرص ، عسى أن تتحقق النبوءة . أو تكون ملكاً . فجمع نسباً له
ولولده من بنى عبدى المناف (المنافين) ليكون من أحدهما المجد
المنتظر ؟

٢ - مع البدء

يروى ابن الجوزى ، وابن كثير :
لما حملت به آمنة بنت وهب كانت تقول :

ما شعرت أنى حملت به ، ولا وجدت له ثقلاً كما تجد النساء ،
إلا أننى أنكرت رفع حيضتى فأتانى آت ، وأنا بين النائم واليقظان ،
فقال :

هل شعرت أنك حملت ؟
فكأنى أقول : ما أدرى ؟

(١) السيرة الحلبية ج ١ ص ٤٤ .

فقال : إنك حملت بسيد هذه الأمة ونبيها ، وتقول :
ثم أمهلني حتى إذا دنت ولادتي أتاني ذلك الآتي فقال :
قولي : أعينه بالواحد من شر كل حاسد .
قالت : كيف أقول ذلك ؟

فذكرت ذلك للنساء فقلن تعلقي حديداً في عضديك وفي عنقك
قالت :

ف فعلت ، فلم يكن يترك على إلا أياماً فأجده قد قطع ، فكنت
لا أتعلقه ، ولقد قالت آمنة : لقد علقت به فإ وجدته مشقة حتى
وضعتته وأمرت أن أسميه أحمد (١) .

٣ - عند الوضع

يروى ابن الجوزي :

قالت آمنة : لقد رأيت ليلة وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم
نورا أضاعت له قصور الشام حتى رأيتها (٢) .

(١) الوفا بأحوال المصطفى ج ١ ص ٨٨ ، ٨٩ ، السيرة النبوية لابن كثير
ج ١ ص ٢٠٧ .

راجع الشفاء ج ٣ ص ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، راجع الخلية ج ١ ص ٥٤ - ٥٨ المواهب
ج ١ ص ١٦٦ .

(٢) الوفا بأحوال المصطفى ج ١ ص ٩٤

وفي أعلام النبوة للماوردي :

عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت :

كان يهودى يسكن مكة فلما كانت الليلة التي ولد فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حضر مجلس قريش فقال : يا معشر قريش : هل ولد فيكم الليلة مولود ؟

فقال القوم : ما نعلم ؟

قال : الله أكبر ، أما إذا أخطأكم فلا بأس ، انظروا واحفظوا ما أقول لكم : ولد في هذه الليلة نبي بين كتفيه علامة فيها شعرات متواترات كأنها عرف وثن ، فتصارع القوم عن مجلسهم وهم متعجبون من قوله ، فلما صاروا إلى منازلهم أخبر كل إنسان منهم أهله ، فقالوا : ولد لعبد الله بن عبد المطلب غلام سموه : محمدا ، فانطلق القوم إلى اليهودى فأخبروه ، فقال : اذهبوا بي حتى أنظر إليه .

فأدخلوه عند آمنة وقالوا اخرجى إلينا ابنك ؟ فأخرجته ، وكشفوا عن ظهره ، فرأى اليهودى تلك الشامة فوق مغشياً عليه .

فلما أفاق ، قالوا له : مالك ؟

قال : ذَهَبَتْ — والله — النبوة من بنى إسرائيل يا معشر قريش
والله ليسطون بكم سطوة يخرج خبرها من المشرق إلى المغرب ^(١) .
وصدق الله العلي العظيم [: (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ
كَمَا يَعْرِفُونَ آبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ
يَعْلَمُونَ) . (٢) آية رقم ١٤٦ من سورة البقرة .

٤ — مع الطفولة

يروى ابن هشام :

أن نفرا من النصارى رأوه — يعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم —
معها — يعنى حليلة — حين رجعت به بعد فطامه ، فنظروا إليه
وسألوا عنه . وقلوبه . ثم قالوا لها :

لنأخذ هذا الغلام فلنذهب به إلى ملكنا وبلدنا فان هذا الغلام كائن
له شأن نحن نعرفه ^(٢) .

(١) اعلام النبوة للماوردي ص ١٠٤ ، ١٠٥ راجع الوفا بأحوال المصطفى
ج ١ ص ٩٥ دلائل النبوة لليهوق ج ١ ص ٨٩ السيرة النبوية لابن كثير ج ١ ص ٢١٢
على القارى ج ٣ ص ٢٦٣ الحلبي ج ١ ص ٨٢ المواهب ج ١ ص ١٢٠ ، ١٢١ .
(٢) راجع حول هذه المعاني نسيم الرياض وشرح على القارى على الشفاء ج ٣ ص ٢٧٤ .
(٣) راجع سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٦٧ تحقيق شلبي ، السقا . السيرة النبوية
لابن كثير ج ١ ص ٢٣٢ الحلبي ج ١ ص ١١٤ .

ويروى ابن هشام :

أن رجلاً من لُهب كان عائفاً ، إذا قدم مكة أتاه رجال من قريش
بغلمانهم ينظر إليهم ويعتاف لهم فيهم ، قال :
فأتى به أبو طالب وهو غلام مع من يأتيه ، فنظر إلى رسول الله
صلى الله عليه وسلم ثم شغله عنه شيء ، فلما فرغ قال :

على به ؟ .

فلما رأى أبو طالب حرصه عليه غيبه عنه فجعل يقول :
ويلكم . . . ردوا على الغلام الذي رأيت آتياً ، فوالله ليكونن
له شأن (١) .

وفي الرحلة الأولى إلى الشام مع أبي طالب يشاهد بحيرا الراهب
النصراني من الدلائل ما يساوى الذى عنده من العلم فصنع طعاماً ثم

= وإذا استندنا إلى رواية ابن هشام التى يذكر فيها أن هؤلاء النصراني من الجبنة :
ادركنا فى مستقبل الدعوة لماذا كان التوجه فى الهجرة الأولى إلى هناك . ولعل الاستفهام
الذى حاول أن يجيب عليه الدكتور هيكل ليس بذى معنى إذا كان القوم على استعداد
لاستقبال النبى صلى الله عليه وسلم منذ طفولته . راجع حياة محمد ص ١٥٤ فإذا اضيف
إلى هذا أن النجاشي أرسل وفد من علماء المسيحية ليسمعوا من رسول الله صلى الله عليه
وسلم ويروونه ففاضت اعينهم دما بما عرفوا من الحق ونزلت فيهم آيات فى سورة المائدة
كان سؤال الدكتور فى غير محله راجع ابن كثير ج ٢ ص ٨٥ .

(١) المرجع السالف

دعى القافلة . ولبوا ، وقد تخلف عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم
وكان يوم ذاك غلاما حدثاً فتفحص بحيرا العلامة التي شاهدها من
قبل فوجدها هناك بعيداً ما زالت عنده ، فسألهم : هل تخلف منكم
أحد ؟

قالوا : غلام .

فقال لهم : ادعوه فليحضر هذا الطعام ، فلما حضر جعل بحيرا
يلاحظه لحظاً شديداً ، وينظر إلى أشياء في جسده الشريف .

ثم دار بينهما حديث . فكان كلما أخبره النبي — صلى الله عليه
وسلم — خبرا وافق بحيرا ، ثم نظر إلى ظهره الشريف فرأى خاتم
النبوة بين كتفيه الشريفين على موضعه من الصفة التي علمها في الانجيل ،

فسأل عمه : ما هذا الغلام ؟

قال : هو ابني .

قال بحيرا : ما ينبغي أن يكون لهذا الغلام والد حي ؟

قال : فانه ابن أخي ؟

قال بحيرا : فما فعل أبوه ؟

قال : مات وأمه حبلى فيه .

قال بحيرا : صدقت ؟

فارجع بابن أخيك إلى بلده ، واحذر عليه اليهود فوالله لئن رأوه وعرفوه ليبغنه شرا ، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم^(١) .

مع الدكتور هيكل

في سطور موجزة جدا تحدث الدكتور هيكل عن هذا اللقاء^(٢) ، ولكنه في التعليق على الحادث استفاض حتى خرج عن مستوى الأسلوب الذي يصور الفكرة الإسلامية لقد قال :

في هذه الرحلة وقعت عيننا محمد الحميلتان على فسحة الصحراء ، وتعلقنا بالنجوم اللامعة في سماها الصافية البديعة ، وجعل يمر بمدين ووادي القرى ، وديار ثمود ، وتسمع أذناه المرهفتان إلى حديث العرب وأهل البادية عن هذه المنازل وأخبارها وماضي نبأها :

وفي هذه الرحلة وقف من بلاد الشام عند الحدائق الغناء اليانعة التي أنسته حدائق الطائف وما يورى عنها ، والتي تبدت له جنات إلى جانب جذب الصحراء المقفرة والجبال الجرداء فيما حول مكة .

وفي الشام كذلك عرف محمد أخبار الروم ونصرانياتهم وسمع عن كتبهم وعن مناوئة الفرس من عباد النار لهم وانتظارهم الواقعة بهم^(٣) .

(١) المرجع السالف ، الكامل في التاريخ ج ٢ ص ٣٧ .

(٢ ، ٣) حياة محمد ص ١١٤ ، ١١٥ .

هذا الأسلوب رغم أنه لم يصف الحقيقة فإنه مقدمات أدلة للمستشرقين .

ولقد نسي الباشا أن العادة العربية لم تكن تسمح بلقاء الأطفال مع الرجال في أحاديث وجلسات كما هو واضح من ترك (محمد) عند الرحال وقت أن لبي القوم دعوة بحيرا .

وأن لقاءه مع بحيرا كان لرغبة في نفس بحيرا لما عنده من العلم :
وأن المعارف لدى رسول الله صلى الله عليه وسلم للدنية ،
(أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى) ؟ فليس له مرب غير الله ، وفي الحديث : أدبني ربّي فأحسن تأديبي .

ولهذا . فإنني أنكر عليه استخدام مثل هذا الأسلوب في عرض الفكرة الإسلامية ، لأنه في أدنى فحص له يؤدي إلى أن الدكتور هيكل يريد أن يقول :

إن أخبار عاد وثمود ، وغلبة الروم للفرس : : الخ :

دراسات تعاملها محمد من رحلاته : فما أشبه هذا بدعوى المستشرقين حديثا والمشكلين في القرآن قديما : إن محمدا صانع القرآن من عند نفسه :

نعم ، قد لا يكون الدكتور هيكل يقصد هذا المعنى الافتراضي . لكن أسلوبه يمكن أن يؤدي إلى هذا . وتلك خطورته في مجال عرض مبدأ من المبادئ الفكرة الإسلامية .

وقصة بحيرا هذه مشهورة في كتب العلماء الكبار وقد أوردوها
المشتغلون بدلائل النبوة فجزاهم الله خيرا^(١) :

٥ - مع الشباب

ومرة أخرى يسافر محمد - صلى الله عليه وسلم - في تجارة
إلى الشام ، لأنها تجارة خديجة بنت خويلد :

كان في المرة الأولى في كنف عمه أبي طالب وهو غلام صغير ،
أما هو هذه المرة فشاب ، إنه وكيل متصرف له إرادة ورأى وكان
موثوقا فيه على مستوى المجتمع كله :

وعمر في رحلته الميمونة المباركة براهب في صومعته ، إنه على
ما قاله المشتغلون بمثل هذه التحقيقات يسمى نسطورا^(٢) رأى هذا
الراهب من مبشرات النبوة وعلاماتها ودلائلها وارهاساتها بمثل
ما رأى بحيرا ، وكما عرفا من الإنجيل الذي قرآه :

وحول هذه الحادثة يقول ابن هشام :

(١) راجع الروض الأنف ج ١ ص ١١٩ دلائل النبوة لأبي نعيم ج ١ ص ٥٣ ،
الوفاء بحوال المصطفى ج ١ ص ١٣٢ - ١٣٤ ، السيرة النبوية لابن كثير ج ١ ص ٢٤٤
دلائل النبوة للبيهقي ج ١ ص ٣٠٨ .

(٢) الوفا ج ١ ص ١٤٤ السيرة النبوية لابن هشام ج ١ ص ١٨٨ .

فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت شجرة قريبا من صومعة راهب فاطلع الراهب إلى ميسرة فقال له :

من هذا الرجل الذى نزل تحت هذه الشجرة ؟

قال له ميسرة : هذا رجل من قريش ، من أهل الحرم :

قال له الراهب : ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي (١) ، كان الراهب فى صومعته يعلم أن زمن النبوة الحاتمة قد حان . وكان يعلم أن من علامات النبوة فى الساعة التى راقب فيها الطريق ، أن النبي المنتظر يستظل تحت الشجرة المجاورة لمنطقته التى يعيش فيها فانتظر .. حتى يشاهد الحوادث على نهج ما علم وصدق الله ما عرف من الحق .

* ويروى أبو نعيم فى دلائله :

حضر رسول الله صلى الله عليه وسلم سوق بصرى فباع سلعته التى نخرج بها واشترى فكان بينه وبين رجل اختلاف فى سلعة فقال له الرجل : احلف باللات والعزى ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما حلفت بها قط .. وإنى لأمر بهما فأعرض عنهما .

(١) دلائل النبوة لأبى نعيم ج ١ ص ٥٤ ، والسيرة النبوية لابن هشام تحقيق شلبى والسقا ج ١ ص ١٨٨ والشيخ محمد محيى الدين ص ٢٠٣ السيرة النبوية لابن كثير ج ١ ص ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، الوفا بأحوال المصطفى ج ١ ص ١٤٣ دلائل النبوة للبيهقى ج ١ ص ٣٣٧ .

فقال الرجل : القول قولك :

ثم قال لميسرة : — ونخلابه — ياميسرة هذا نبي والذي نفسي بيده إنه لو هو ، ويجده أحبارنا منعوتا في كتبهم^(١) .

لقد كانت بشائر ترى ، وعلامات تتعاضد لتوجه فكر الناس إلى حدث خالده فيه سعة الحياة ورضوان من الله أكبر .

ولقد شهد بذلك ورقة بن نوفل عندما عرضت عليه السيدة خديجة رضى الله عنها ما ذكره إليها ميسرة من قول الراهب (نسطورا) ومما شاهده فتمال لها :

لئن كان حقا يا خديجة إن محمدا لنبي هذه الأمة ، وقد عرفت أنه كائن لهذه الأمة نبي ينتظر ، هذا زمانه^(٢) .

٦ - قبيل الشروق

يروى ابن الجوزى :

قال طلحة بن عبيد الله : نحضرت سوق بصرى فإذا راهب في صومعة يقول :

ساوا أهل الموسم : هل فيكم أحد من أهل الحرم ؟

(١) دلائل النبوة لأبي نعيم ج ١ ص ٥٤ الوفاج ١ ص ١٤٣ .

(٢) السيرة لابن هشام ج ١ ص ١٩١ ويمكن ربط هذا بعرضها أن تتزوج من رسول الله صلى عليه وسلم بالإضافة إلى ما رواه الماوردي في أعلام النبوة من معرفتها عن نبي منتظر ص ١٠٥ .

قال طلحة : فقلت : نعم ، أنا :

قال لي : ظهر بمكة بعد أحمد ؟

قلت : من أحمد ؟

قال : ابن عبد المطلب ، هذا شهره الذي يخرج فيه وهو آخر الأنبياء ، ومخرجه من الحرم ، ومهاجره إلى نخلة ، وحره وسباخ .

قال طلحة : فوقع في قلبي ما قال الراهب ، فخرجت حتى قدمت مكة :

فقلت : هل كان من حديثه ؟

قالوا : نعم محمد بن عبد الله الأمين تنبأ :

وتابعه ابن أبي قحافة . فخرجت حتى أتيت أبا بكر ، فأخبرته ، وقلت له : بعث هذا الرجل ؟

قال نعم ، انطلق فتابعه ، فإنه يدعو إلى الحق . وذهب أبو بكر .

قال طلحة : فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته خبر الراهب وما قال لي ^(١) :

وشاهد هذه الإرهاصات كثيرة ، ونماذجها تذخر بها الكتب ، وإن أعظم ما يصدقها علمياً أنها شملت الحجر ففي صحيح مسلم :

(١) الخلية ج ١ ص ٣١٣ ، ٣١٤ .

إني لأعرف حجرا بمكة كان يسلم علىّ قبل أن أبعث ، إني
لأعرفه الآن^(١) .

تعليق :

لقد كانت هذه الدلائل والبشارات تفيض بها الأنخبار على جميع
المستويات من علماء أهل الكتاب ، والكهان ، والعظماء ، وعامة
الناس .

ومن أمثلة ذلك :

أولا : مارواه أهل الكتاب من اليهود :

يروى محمد بن مسلمة قال :

لم يكن في بني عبد الأشمل إلا يهودى واحد يقال له . يوشع ،
فسمعته يقول وأنا شلام — قد أظلمكم خروج نبي يبعث من نحو هذا
البيت ثم أشار بيده إلى بيت الله تعالى فمن أدركه فليصدقه .

فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلمنا وهو بين أظهرنا
ولم يسلم حسدا وبغيا^(٢) .

(١) مسلم ج ٤ ص ١٧٨٢ تخريج المرحوم محمد فؤاد عبد الباقي .

(٢) الوفاق ١ ص ٤٣

وفي دلائل النبوة لأبي نعيم :

كانت يهود بني قريظة يدرسون ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم في كتبهم ويعلمون الولدان بصفته واسمه ومهاجره إلى المدينة ، فلما ظهر حسدوا ، وبغوا ، وأنكروا^(١) .

ثانياً : مرواه أهل الكتاب من النصارى :

يقول الماوردي :

إن جماعة من النصارى قدموا من الشام تجارا إلى مكة ، فنزلوا بين الصفا والمروة فرأوه وهو ابن سبع سنين — فعرفه بعضهم بصفته في كتبهم وسمته بفراستهم فقال له : من أنت ، وابن من أنت ؟

فقال : أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب .

فقال له : من رب هذه . وأشار إلى الجبال ؟

فقال : الله ربها لا شريك له :

فقال له : من رب هذه . . وأشار إلى السماء ؟

فقال : الله ربها لا شريك له .

فقال له النصراني : فهل له رب غيره ؟

(١) دلائل النبوة ج ١ ص ١٨ من هذه الأخبار ما رواه الجوزي في الوفا ج ١

فقال : لا تشككني في الله ، ما له شريك ولا ضد .
فقام بالتوحيد في صغره ، وفصح النصراني بخبره ، وأندر
بنبوته^(١) .

ثالثا : ما رواه الكهان

يقول صاحب السيرة الحلبية :
« ومنها أيضاً خبر عمرو بن معد يكرب رضى الله تعالى عنه قال :
والله لقد علمت أن محمداً رسول الله قبل أن يبعث .
ف قيل : وكيف ذلك ؟

قال : فرعنا إلى كاهن لنا في أمر نزل بنا ، فقال الكاهن :
أقسم بالسماء ذات الأبراج ، والأرض ذات الأدراج ، والرياح
ذات العجاج ، إن هذا إلا أ ج^(٢) ، وإقح ذى نتاج .
قالوا : وما نتاجه ؟ ، قال : نتاجه ظهور نبي صادق بكتاب
ناطق وحسام فائق .

(١) أعلام النبوة ص ١٠٥ من هذه الأخبار ما رواه ابن الجوزي في الوفا ج ١
ص ٥٦ وسيرة ابن هشام ج ١ ص ١٧٩ ت محي الدين من مراجع هذا البحث فصل
من دلائل نبوته شرح على القارى ص ٢٥٦ .

(٢) آ ج : ملتهب .

قالوا : وأين يظهر ، وإلى ماذا يدعو ؟

قال : يظهر بصلاح ، ويدعو إلى فلاح ، ويعطل القداح ، وينهى
عن الراح والسفاح وعن كل أمر قباح :

قالوا : من هو ؟

قال : من ولد الشيخ الأكرم حافر زمزم ، وعزه سرمد ، وخصمه
مكماه (١) .

رابعاً : على لسان الملوك والعظماء

وفي تاريخ الطبري : قال :

بعث الله إلى كسرى ملكاً وهو في بيت إيوانه الذي لا يدخل عليه
فيه ، فلم يرعه إلا به قائماً على رأسه في يده عصا بالهاجرة في ساعته
التي كان يقبل فيها .

فقال يا كسرى أتسلم أو أكسر هذه العصا ؟

فقال بهل ، بهل . فانصرف عنه ، ثم دعا أحراسه وحجابه
فتغيظ عليهم وقال :

من أدخل هذا الرجل علي ؟

(١) السيرة الحلبية ج ١ ص ١٨٧ ، ١٨٨ .

فقالوا : ما دخل عليك أحد ، ولا رأيناه :

حتى إذا كان العام القابل أتاه في الساعة التي أتاه فيها فقال له
كما قال له ، ثم قال له : أتسلم أو أكسر هذه العصا ؟

فقال ، بهل ، بهل ، بهل ثلاثا فخرج عنه ، فدعا كسرى حجابيه
وحراسه وبوابيه فتغيظ عليهم وقال لهم كما قال أول مرة ، فقالوا :
ما رأينا أحدا دخل عليك .

حتى إذا كان في العام الثالث أتاه في الساعة التي جاءه فيها ،
فقال له كما قال : أتسلم أو أكسر هذه العصا ؟ فقال ، بهل ، بهل :
قال : فكسر العصا ، ثم خرج فلم يكن إلا تهور ملكه وانبعث ابنه
والفرس حتى قتلوه^(١) :

ويروى كذلك :

أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا : يا رسول الله
ما حجة الله على كسرى فيك ؟

قال : بعث إليه ملك فأخرج يده من سور جدران بيته الذي هو
فيه يتلأل نورا فلما رآها فزع ، فقال لم ترع يا كسرى ؟ إن الله قد بعث
رسولا وأنزل عليه كتابا فاتبعه تسلم دنياك وآخرتك قال ؟ سأ أنظر^(٢) ،

(١) تاريخ الطبري ج ٢ ص ١٩١ راجع الوفاج ١ ص ١٧٩ - ١٨٠ .

(٢) تاريخ الطبري ج ٢ ص ١٩٠ ، ١٩١ وفي تذكرة الحوادث نجد أن كسرى =

وفى البخارى حديث طويل دار بين هرقل وأبى سفيان ، فيه :

« وكان ابن الناطور صاحب إيلياء وهرقل اسقف على نصارى الشام يحدث أن هرقل حين قدم لإيلياء أصبح خبيث النفس ، فقال له بعض بطارفته : قد استنكرنا هيئتك ؟

قال ابن الناطور : وكان هرقل حزاء ينظر فى النجوم ، فقال لهم حين سألوه إنى رأيت الليلة حين نظرت فى النجوم : أن ملك الختان قد ظهر ، فمن يختن من الأمة ؟

قالوا : ليس يختن إلا اليهود ، فلا يهمنا شأنهم واكتب إلى مدائن ملكك فيقتلوا من فيهم من اليهود ، فبينما هم على أمرهم أتى هرقل برجل أرسل به ملك غسان يخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما استخبره هرقل ، قال : اذهبوا ، فانظروا أمختن هو ، أم لا ؟ .

فنظروا إليه فحدثوه : أنه مختن ، وسأله عن العرب .

فقال : هم يختنون .

فقال هرقل : هذا ملك هذه الامة قد ظهر .

== هذا مزق الكتاب الذى بعثه اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم مع سفيره عبد الله بن جذافة السهمي فدعا عليه النبي صلى الله عليه وسلم : مزق الله ملكه كل مزق ص ٢٠٠ نور اليمين .

ثم كتب إلى صاحبه في رومية — وكان نظيره في العلم ، وسار
هرقل إلى حمص فلم يرم حمص حتى أتاه كتاب من صاحبه يوافق
على رأى هرقل على خروج النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنه نبي ،
فأذن هرقل لعظماء الروم في دسكروه له بحمص ثم أمر بأبوابها
فغلقت ثم اطلع فقال : يامعشر الروم ، هل لكم في الفلاح والرشد
وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا الرجل ؟ فحاصوا حيصة حمص الوحش
إلى الأبواب فوجدوها قد غلقت ، فلما رأى هرقل نفرتهم أيس
من الإيمان وقال ، ردوهم على وقال ، إني قلت مقاتلي آنفا أختبرهم
شدتكم على دينكم فقد رأيت . فسجدوا له ، ورضوا عليه ، فكان
ذلك آخر شأن هرقل^(١) لقد حاصوا حيصة حمرة الوحش لما هم
عليه من التقاليد والعادات والتعصب والركود على ماورثوه من الآباء
والأجداد .

خامسا : على لسان العامة من الناس

كانت البشارات والإرهاصات قد عمت أرجاء الجزيرة العربية
يسمعونها في الأسواق ، وفي صوامع الرهبان ، ومن الكهان .
فتمنى ثلة من الناس أن تكون النبوة في أولادهم فسموا أبناءهم
باسم محمد .

(١) البخارى كتاب الإيمان باب بدء الوحي .

يقول ابن الجوزى :

عن خليفة بن عبدة المنقري قال :

سألت محمد بن عدى ، كيف سمك أبوك محمدا ؟

قال : أما أنى سألت أبى عما سألتنى عنه فقال : خرجت رابع أربعة من بنى تميم ، أنا أحدهم ، وسفيان بن مجاشع ويزيد بن عمر بن ربيعة ، وأسامة بن مالك بن جندب ، نريد ابن جفنة الغسانى .

فلما قدمنا الشام نزلنا على غدير فيه شجيرات ، وقربه دير وفيه ديرانى ، فأشرف علينا وقال : إن هذه اللغة ماهى لأهل هذا البلد ؟

قلنا : نعم ، نحن قوم من مضر .

قال : من أى المضريين ؟

قلنا : من خندف .

قال : أما أنه سيبعث فيكم وشيكما نبى فسارعوا إليه ونخذوا بحظكم منه ترشدوا ، فإنه خاتم النبیین واسمه محمد ، فلما انصرفنا من عند ابن جفنة وصرنا إلى أهلنا ، ولد الكمل رجل منا غلام فسماه محمدا^(١) .

(١) الوفا ج ١ ص ٤٦ ، ٤٧ ، راجع لسان العرب ج ٤ ص ١٣٥ المحبر

ص ١٣٠ - فتح البارى ج ٤ ص ٤٣٤ راجع الخلية ج ١ ص ٩٥ - ٩٨

قال ابن كثير في السيرة ، ثم إن الله حمى كل من تسمى به أن يدعى النبوة أو يدعيها له أحد ، أو يظهر عليه سبب يشكك أحداً في أمره حتى تحققت الشيمتان له صلى الله عليه وسلم لم ينزع فيهما (١) .

هكذا هيأ الله المجتمع البشري فيما قبل الرسالة ببشارات توعية أن حالته التي — يعيش عليها — حتى ولو كانت فاضلة — سوف يأتها نبي خاتم :

ينقل أخلاقها الفاضلة من دائرة المحامد إلى دائرة العبادات :
وينقل شذوذها الأخلاقي إلى دائرة التآثم والتوبة فإن التبعيد لا يرتبط بالسلوك الأمثل على منهاج علم الأخلاق ، فوظيفة الإنسان في هذا الوجود محددة :

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ، مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ) ٥٦ - ٥٨ الذاريات .

وقد ربط الله ثوابه وعقابه باتباع رسله :

(وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ تَبْعَثَ رَسُولًا) ١٥ - الإسراء .

ولقد كان من رحمة الله أن وعى الناس بإرسال النبي عليه الصلاة والسلام حتى لا تكون حيرة إذا ما فاجأهم وليدركوا أن طاعة الله ليست في رفيع الأخلاق ، وإنما هي في استسلام الوجه لجلاله والإنسان محسن :

(وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ) ٢٢ - لقمان .
ومن رحمة الله كذلك أن بعث لهم رسولا من أنفسهم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم^(١) .

٣ - فانك بأعيننا

تمهيد :

(اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ)
ذلك حق الله المطلق في اصطفاء رسله وأنبيائه ، وربك يخلق ما يشاء ويختار ، وليس من حق إنسان مهما كانت عبقريته ومنزلته وجاهاه أن يقترح علة لهذا الاختيار بله أن يسأل عن علته وبواعثه .

(١) راجع حول هذا الموضوع :

الطبقات الكبرى لابن سعد ج ١ ص ١٥٠ - ١٦٩ ط بيروت ١٩٦٠ م .

ذلك أن السياج الذى يمنع العقلية المتدينة هو :

١ - الله أعلم حيث يجعل رسالته .

٢ - وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب :

٣ - وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم .

فإن أفعال الله هي أفعال الألوهية صاحبة الجلال والسلطان والتدبير والتصرف وما للناس تجاه هذا التدبير الإلهي إلا القبول والرضا والاستمسك بالذى أوحى إليهم ولأنه لمن الدخول في العقيدة أن يطرق المسلم أبواب بحث في موضوع هو أحق حقائقه تدبير إلهي خاص بجلاله العظيم الذى وسع كرسيه السموات والأرض ولا يثوده حفظهما وهو العلى العظيم .

وأفعال الله جل ثناؤه ومنها اصطفاء الأنبياء والرسول وتفضيل البيت الحرام على غيره . . . الخ وتفضيل ليلة القدر وشهر رمضان وأشهر الحج ورجب على غيرها . . . لمن أوليات تلك الأمور الداخلة في حيز السلطان الإلهي الذى يعرضه القرآن الكريم لنا في قوله تعالى :
(لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ) ٢٣ - الأنبياء .

ولانى لأستغفر الله العظيم من ذنب مثل هذا . . فاست أقصد من هذه الدراسة فحص عوامل اختيار سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم

للنبوة . فذلك ضعف في ثقة العالم المسلم بحدود تكبره ، وإنى والحمد لله أنى غنى عن هذا فقد رضيت . واطمأن قلبي بالله تعالى ربا وبالقرآن دستوراً ، وبالإسلام ديناً وبسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولاً .

غير أن مهمتى هنا هى كشف الدلائل السرية فى جانب حياة الرسول العظيم قبل بعثته .

تلك الدلائل التى تشرف التاريخ بها فأثبت أن شخصية صاحب الدعوة عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام - شخصية فريدة سوية تسمو بأقطارها جميعاً على كل أوصاف الشرف التى تتحلى بها أكبر الشخصيات الانسانية لقباً مثل : :

قائد زعيم بطل عبقرى : : : الخ :

فتلك صفات محدودة ، وهى حدود مكررة : : : فكم شهد التاريخ أبطالاً ؟ وحفظ الأدب والفلسفة عباقرة ؟ ورأس الدول قواد وزعماء : : : الخ :

ولكنهم جميعاً كانوا دوناً فى الخلق ، ودوناً فى الذكاء ، ودوناً فى الكمال :

لقد كانوا دوناً فى كل شئ بالنسبة لصفة الانبياء بله صفات سيدنا محمد بن عبد الله سيد ولد آدم ولا فخر .

لقد كان عليه السلام شخصية يتيمة به لم تسبق في التاريخ أبدا ،
وان تلحق بند لها في المستقبل بتاتا ، إنها شخصية خاصة به لن
تكرر أبدا .

وما تكبروت من قبل أبدا :

وان تتكرر فيما بعد أبدا :

فقد هيأه الله جل شأنه وتعالى كـ ياؤه لحمل الرسالة العظمى :
الاسلام الحنيف الذي ارتضاه ، وجعل النفوس على الالتئام بمبادئه ،
وهيا ظروف الحياة لتظهر فضله ، وربط حظ الانسانية به في شطرى
الحياة : الدنيا والآخرة : وجعل من رحمته وفضله على ذلك دلائل
تشرفت هي بالانتساب إلى سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام :

فكان وحده — صلى الله عليه وسلم — البشر السوي الذي اكتملت
فيه البشرية السوية فلم :

* يتأثر وجوده — حتى وهو طفل بالسلوك العادى القابل للمخطأ
والتصحيح فلقد كان يتجنب الاطفال وهم يلعبون ، يقول في السيرة
الحلبية :

« كان يخرج إلى الصبيان وهم يلعبون فيتنجنبهم »^(١) .

(١) السيرة الحلبية ج ١ ص ٢٢٧ ، دلائل النبوة للبيهقي . ج ١ ص ١١١ .

* ولم يكن اليتيم له مضيقا كما هو العادة العادية في أغلب ظروفه
اليتامى ، فلقد وجدته ربه يتما فأواه :

* ولم يكن الفقير له مذلة كما هو الشأن في العلاقات البشرية
في أى مجتمع . فقد وجدته ربه عائلا فأغناه .

* ولم ينفصل عن المجتمع في وجوده كله ، ولم يندمج فيه كلية
فقد وجدته ربه هكذا فهناه .

لم يشارك المجتمع في انحرافات ، ولم يتأثر به في عاداته ثم كان هو
الأمين الذى تحفظ عنده الأمانات والودائع ، وكان هو الحكم
في مدطحات الأمور وأعقد المشاكل . انه كما هيأه الله جل شأنه :

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ، وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ، الَّذِي أَنْقَضَ
ظَهْرَكَ ، وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ^(١)) .

لقد كان سويا ولم يكن عاديا .

وكان سويا ولم يكن شاذا .

فالشخصية العادية ومنها الشاذة هي التي :

تتأثر في وجودها ونموها . : فيكون لها في الطفولة سلوك ،
وفي مستقبل العمر سلوك آخر :

(١) آيات ١ - ٤ من سورة الشرح راجع تفسيرها في روح المعاني ج ٣٠ ص ١٦٧ .

ويكون لها اليتيم — غالبا — مضياعا :

ويكون لها الفقر — عادة — مذلة يدفع إلى الانحراف .

إن الشخصية العادية التي تتأثر بفقه الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية حسب اللون الذي يعيشه المجتمع وتلك الشخصية هي التي تقبل تقسمة علم النفس إلى :

شخصية عظيمة أو حقيرة

شخصية محترمة أو مهانة :

شخصية طبيعية أو شاذة .

شخصية ناجحة أو فاشلة .

شخصية ذكية أو غبية .

شخصية اجتماعية أو انطوائية .

شخصية كبيرة أو صغيرة : . . الخ .

إن الشخصية العادية كالماء .

إنها تتلون بلون الثقافة البيئية ، وتنفعل في وجودها بالحو الذي

يحيط بها .

أما البشرية السوية فإنها بشرية الأنبياء المصطفين وهي أرفع وأسمى من كل نماذج المصلحين التاريخيين لأنها مهيأة بقدرته الله للأجل لاصلاح الوجود البشرى بوحى الله :

إن البشرية السوية تحس بالآلام الناس لتشعر لهم مايزيل الآلام دون أن تنفعل بها فتحمل آثارا ربما تكون غير حميدة العواقب . فيتأثر بها الاصلاح :

ولقد طال أذى المشركين فى مكة للنبي صلى الله عليه وسلم وجماعة المسلمين من الأولين السابقين . وجاء جبريل باستعداداته الا لمحدودة يطبق عليهم الأخشبين ، ولكن السوية فى بشرية النبي العظيم عليه أفضل الصلاة والسلام تجيب :

(اللهم اهد قومي فانهم لا يعلمون) .
ليس هناك أثر نفسى لتعذيب ثلاثة عشر عاما . ولا ما جد بعدها من حروب شنوها بأنفسهم ، وأوقدوا لها الحمية ، ليحطموا دين الله ودولته . فقال لهم : اذهبوا فأنتم الطلقاء .

لم يكن عليه الصلاة والسلام بشرا عاديا فينتقم بل كان رحمة سويا وكان — رسولا نبيا ، أدبه ربه فأحسن تأديبه (١) .

(١) الحديث : ادبنى ربى فأحسن تأديبى أخرجه ابن السمعاني فى أدب الاملا

عن ابن مسعود راجع الجامع الصغير للسيوطى ج ١ ص ١٢ .

وتلك وجهتي التي أيممها ببركة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم تتشرف فتصادف فتوحا ربانيا فأقدم ضوءا يقدس مما أمستطيع على جوانب تلك الحياة السوية التي هيأ الله بها حبيبته محمدا فرباه وآواه وأخناه وهداه وقال له :

فإنك بأعيننا .

وإنك لعلی خلق عظیم .

وسوف تشمل الدراسة هذه النقاط :

١ - الرضاع .

٢ - شق الصدر .

٣ - اليتيم والشخصية .

٤ - رعى الغنم والتدريب السياسى .

٥ - الوجدان الاجتماعى فى :

(أ) العمل والعمال .

(ب) الأسرة .

(ج) العدل الاجتماعى .

(د) الشذى العطر .

وبالله التوفيق ؎

أولا : الرضاع

فى الدراسات النفسية : أن الطفل فى مرحلة حياته الأولى يكون متمسكا بأمه أشد ما يكون التمسك . وعلاقته بوالديه وأسرته تعتبر من أهم الحاجات الأساسية للطفل فانها تقوم بدور فعال رئيسى فى إشباع حاجته الوجدانية^(١) .

فالتغذى بلبن الأم الحقيقية يسهم فى التطور العضوى البيولوجى للطفل ويؤثر فى سمات شخصيته واتجاهاته مستقبلا وحول هذا المعنى يقول الدكتور فؤاد الهى السيد :

إن الطفل فى باكورة حياته يشق الأمن من والديه ، وأن حاجته إلى العطف تقرب من حاجته إلى الغذاء^(٢) .

(١) راجع كتاب الخدمة الاجتماعية ص ١٨٨ دكتور محمد كامل البطريق .

(٢) علم النفس الاجتماعى ص ٢١٦ .

والأسرة حسب الدراسات النفسية تعتبر المصنع الذى يصقل الطفل ،
ويخرجه فى الاطار المرغوب فيه ، والطفل يتأثر طرداً وعكساً بظروف
الأسرة ، إيجاباً وسلباً ، تجاذباً وتنافراً ، تلاهما وتفككاً^(١) .

فإذا مارجعنا بهذه النظريات إلى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم
وهو الطفل نجد القضية على العكس ، لقد رضع بعد أمه من ثوية ،
وأم أيمن ، وخولة بنت المنذر^(٢) .

إن البشر العادى المتأثر بمقومات الحياة يخضع فى حياته لمقاييس
علم النفس .

أما البشرية الدوية فإنها على النقيض تماماً ، إنها ليست داخلة فى
دائرة علم النفس لأنها أسمى فى وجودها من البشرية العادية التى هى
محيط الدائرة لعلم النفس .

لقد كانت العادة العربية القديمة أن يبعث بالأطفال الرضع إلى
آثار من البادية فان فى إرضاعهن لأطفال مكة عافية .

إن هواء البادية الرائق النقى السافى يسرع فى نمو أطفال قريش
ويكسبهم قوة .

(١) سيكولوجية الطفولة والمراهقة ص ١٧٥ دكتور مصطفى فهمى .

(٢) السيرة الحلبية ج ١ ص ٨١ المعارف لابن قتيبة ص ٤٣ . . . الخ .

وإن تربيتهم الأولى بعيداً في البادية يحسم عن الأجسام الرقيقة شر
هواء مكة المحرق ، و يقيمهم شرور ما يحمله الوافدون إليها من أمراض
وأدواء (١) .

لأنها بيئة تغذى الطفل . بمشاعر الشجاعة والمروعة والثقة والكرم :
وتعلمه الحركة والصدق والنشاط : وتدريبه على السعى واحترام
الوجود الإنساني (٢) .

فكانوا يرسلون أولادهم إلى البادية لهذا :
وانتظرت السيدة آمنة بنت وهب مع المنتظرين مجئ المرضعات
من بني سعد . وحضرن ، وكن عزوفاً عن اليتامى ، إذ أنهن يبعين
من وراء الإرضاع رزقاً . وأنهن لينتظرن أجراً :
وليس لليتامى — حسب العرف — عصب يمكن للمرضعات الاعتماد
عليه في تحقيق آمالهن ، فكانت الرغبة ، منهم في الأيتام قليلة . فعزفن
جميعاً عن إرضاع « محمد » — صلى الله عليه وسلم .

حتى إذا ما اكتمل اكل واحدة منهن رضيع ، وهمن بالإياب :
لم تكن حليلة قد صادفت لها حظاً ، ومن قبل كانت قد عزفت عن

(١) محمد في طفولته وصباه ص ٥٠ الأستاذ محمد شوكت التوني .

(٢) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية ج ١ ص ٦٢ ، نور اليقين ص ٧ الحضري
يلك ، السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة ١٩٨ دكتور محمد بن محمد أبو شهبة .

لإرضاعه ، فلما وجدت نفسها — ودكنا جهازها الله تعالى — ستعود نارغة ، قالت لزوجها :

والله إني لأكره أن أرجع من بين صواحي ، ولم آخذ رضيعاً .

والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فـلأخذه^(١) ، وذهبت — وقد صب الله في قلبها شوقاً وحنيناً للرضيع اليتيم ، يقول الأستاذ التونسي :

وتملكها شعور قوى غريب فعادت تقول :

وإن بي لحنيناً إلى الطفل اليتيم ، لقد آذيتهم وكنت قاسية عليه وعليهم ٥

ونظر إليها الرجل الكريم بعين فاحصة واعية ثم قال : لاتنكرى على من أمرك شيئاً يا حليلة . فقد رأيتك تتقلبين طوال الليل لم يغمض لك جفن ، ولم ترقاً لك دمة ، ولست أدري من أمر سهرك شيئاً ولا أعرف لبكائك سبباً ، وأنت دائماً الضاحكة الراضية القانعة .

فترد عليه :

والله إني لا أدري للأمرين من سبب ولكني أحس حنيناً للوليد^(٢) .

(١) السيرة لابن هشام ج ١ ص ١٦٣ ، الوفا ج ١ ص ١٠٨ ، السيرة النبوية لابن كثير ج ١ ص ٢٢٦ ، تاريخ الطبري ج ١ ص ١٥٩ ، السيرة النبوية دكتور أبو شهبة ص ١١٩ - ٢٠٠ ، الخصائص الكبرى للسيوطي ج ١ ص ١٣٥ .

محمد في طفولته وصباه ص ٥٠ ، ٥١ . (٢) المرجع السابق .

وعادت تحمله حباً لها وهي حنان عليه ، وغادر ركب الآظار مكة
فقرى حليلة من بشائر النبوة ماتحكيه للتاريخ :

* فخرجت على أتان لي قمراء — بيضاء فيها كدرة — معنا شارف
لنا — ناقة — والله ماتبض بقطرة ، وماننام ليلنا أجمع من صبينا الذي
معنا من بكائه من الجوع ما في ثدي ما يغنيه ، وما في شارفنا ما يغذيه .
فلما أخذته — رجعت به إلى رحلي فلما وضعته في حجرى أقبل
ثدياى بما شاء من لبن ، فشرب حتى روى ، وشرب معه أخود
حتى روى ، ثم ناما ، وما كنا تنام معه قبل ذلك .

وقام زوجي إلى شارفنا تلك ، فاذا أنها لحائل فحلب منها ما شرب
وشربت معه حتى انتهينا ريا وشبعاً فبتنا بخير ليلة .

قالت : يقول صاحبي — حين أصبحنا : تعلمي^(١) والله يا حليلة
لقد أخذت نسبة مباركة^(٢) .

(١) هكذا في أصل السيرة لابن هشام قال محققوها : يريد اعلمى وفي الطبرى
أعلمين : راجع الطبرى ج ٢ ص ١٥٩ وعبارة ابن كثير : يا حليلة والله إنى لاراك
قد أخذت نسخة مباركة ج ١ ص ٢٢٧ راجع الوفا ص ١٠٩ ج ١ فعبارة بمائلة عبارة
ابن كثير السالفة .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ج ١ ص ١٦٣ ، تاريخ الطبرى ج ٢ ص ١٥٩
راجع نسيم الرياض وشرح على القارى على الشفاء ج ٣ ص ٢٧٦ الحليلة ج ١ ص
١٠٧ .

إنها أول بشارات الفيض يظهرها الله جل شأنه في محيط الأسرة الصغيرة .

لقد بدأت بركاته رخاء وأمنًا وهو طفل رضيع لقد كان منذ هذه الطفولة الوديمة نسيم خير ورفق وعافية . وكان ذلك من فضل الله ارهاصا بمستقبل كريم للحياة على يديه .

* وتمضي حليلة مع ركب الآطار وهي تحمل نسمة البركة فتشاهد جديداً من البركات :

ثم خرجنا ، وركبت أتانى ، وحملة عليها معى فوالد، لقطعت بالركب ما يقدر عليه شئ من حرهم حتى أن صواحي ليقلن لى :
يا ابنة أبى ذؤيت : ويحك أربعى علينا أليست هذه أتانك التى خرجت بها ؟

فأقول لهن : بل ، والله إنها لهى هى ، والله إن لها لشأنا (١) .

* ويصل الركب ، وتستمر البشائر تترى قالت حليلة : م قدمنا منازلنا من بلاد بنى سعد ، وما أعلم أرضاً من أرض الله أجذب منها ، فكانت غنمى تروح على حين قدمنا به معنا شباعاً لبنا فنحلب

(١) السيرة لابن هشام ج ١ ص ١٦٤ دلائل النبوة لأبى نعيم . ج ١ ص ٤٨ السيرة

الحلبية ج ١ ص ٨٥ ، الوفا ج ١ ص ١٠٧ - ١٠٩ .

ونشرب وما يحلب إنسان قطرة لبن ، ولا يجدها في ضرع حتى كان
الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم :

ريابكم ، اسرحوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيت^(١) .

هكذا اختار الله ولا معقب لحكمه . ولقد كانت بشائر الخير التي
عمت حياة الأسرة مؤشرات ذكاء : أن الاختبار كان هبة من الله :
وأن عمل العبقریات في دراسة هذه المجالات أن تفهم — تعبدا :

١ — ان رضاع النبي صلى الله عليه وسلم من حلیمة وهی فی فقر
وجذب كان تکرماً من الله وإرهاصاً بأن الذين سیتبعون هذا النبي
ویسلمون له قيادة حیاتهم سیکون لهم مثل هذا الخير والیسر والرخاء
والأمن والسکينة :

٢ — ویفید هذا الخير الذى سکبه الله على حلیمة أن البیئة التى
تربی فی حجرها سیدنا محمد علیه الصلاة والسلام رغم أنها بیئة بدیلة
إلا أن جوا متكاملاً من الحنان والوداد والزاد والهناء كانت ترفل فیهِ
هذه الأسرة وكان الأب والأم على وفاق تام وانسجام رفیع فکانت
بیئة أسمى من متطلبات دراسة علم النفس ، لأنها بیئة ربانیة اختارها

(١) من لمراجع هذا البحث — بالاضافة إلى ما ذکر سالفاً — شرح المواهب

الدنیة للزرقانی ج ١ ص ١٤٢ — ١٤٥ .

ﷲ لتكون لبيبه الحاضن والأنيس ، لقد كانت حياة محمد صلى الله عليه وسلم في بني سعد قلباً لحقائق علم النفس .

وكان علم النفس واهى القوى ضعيف الشخصية بالنسبة لذات النبي الكريم ، فليضع هباء جهد أى باحث يريد أن يتجاسر ليدرس شخصية الرسول العظيم بقواعد علم النفس ، فلقد كان عليه السلام عند ربه يطعمه ويسقيه فهو بشر لكنه نبي .

ثانيا : شق الصدر

التنقية حسيًا ومعنويًا في عالم البشر شيء مألوف ومرغوب فيه ، إن استحمام الإنسان استعداداً للقاء عزيز عمل يزينه العقل وتدعو إليه العادة :

وتألف الإنسان لصديق عن خطأ ألم به في حقه مثل أخلاقى محمود ومعتول .

ذلك شأن البشر العادى الذى يربط في حياته بأخلاقيات الأرض ، ويتصل في شئون عمره بأنظمة البشر .

أما الأنبياء فهم أصحاب بشرية سوية ، لأنهم يعيشون على الأرض وهم متصلون بالسماء رعاية وتربية وإعداداً لرسالة المستقبل ، وتنقية هؤلاء الأنبياء تأخذ مستوى سلطان المربى وما يملك من وسائل الإعداد^(١) .

إن حياة الأنبياء منذ الاصطفاء حياة ربانية ، واصطفائهم عند الله منذ الأزل ، فإعدادهم له هذا المستوى الربانى ، وليس عند العقل ما يرفض ذلك الواقع لادراكه الفرق الكبير بين تربية أبناء الأسرة المالكة وأبناء الأسرة الفقيرة . إن تفاوت البشر في القدرة على

(١) راجع حول هذا المعنى المواهب ج ١ ص ١٤٩ - ١٥٣ .

استخدام أفضل وسائل العيش في جميع الشعوب المعاصرة . هما اختلفت
ميراث مناهجها ليعطى فقها عاقلا : ان حياة الأنبياء لها ميزة خاصة
لأنهم يربون في رحاب الله (فإنك بأعيننا) .

ولقد كان شق الصدر الشريف عملية تربية وتنقية لرسول الله صلى
الله عليه وسلم .

فلقد رضع من ثويبة ، ومن حليمة . وتناول طعامه من الأرض
وهو نور^(١) في الذات : انى عند ربى لخاتم النبیین وأن آدم لم نجدل فى
طينته . .

لم يزل الله ينقلنى من الأصلاب الحسبية إلى الأرحام الطاهرة
صفيا مهذباً .

فكان لازما أن تنقى الهيولى النورانية من علائق الحياة العادية لتبقى
الذات سوية^(٢) فكان شق الصدر .

يقول ابن هشام :

إذ أتانا أخوه يشتد فقال لى ولأبيه : ذاك أخى الفرشى قد أخذه
رجسلان عليهما ثياب بيض فأضجعهما فشقا بظنه فهما يسوطانه

(١) راجع الخصائص ج ١ ص ١٤٠ .

(٢) فى اعلام النبوة للمارودى كلام حول هذا المعنى راجع ص ١٥٢ .

-- راجع حول هذا الموضوع شرح المواهب اللدنية ج ٢ ص ٢٤٢ .

بحر كانه — قالت : حليلة : فخرجت أنا وأبوه نحوه ، فوجدناه قائما ممتقعا وجهه ، قالت فالترمته ، والتزمه أبوه ، فقلنا له : مالك يا بني ؟ قال :

جاءني رجلان عليهما ثياب بيض فأضعجعاني ، وشقا بطني ، فالتسا فيه شيئا لا أدري ماهو . . . قالت : فرجعنا إلى خمائنا . . . قالت : وقال لي أبوه .

يا حليلة لقد خشيت أن يكون هذا الغلام قد أصيب فألحقه بأهله . قبل أن يظهر ذلك به .

قالت : فاحتملناه فقدمنا به على أمه ، فقالت ما أقدمك يا ظئر (١) وقد كنت حريصة عليه وعلى مكثه عندك ؟ (٢) .

قالت : فقلت : نعم ، قد بلغ الله بابني . وقضيت الذي على ، وتخوفت الأحداث عليه فأديته عليك كما تحبين .

(١) الظئر : الناقة الحانية على ولد غيرها ، استعير في التراكيب العربية لكل مربية ترضع ولد غيرها .

(٢) يشير هذا الجزء إلى : أن حليلة كانت قد أرجعت النبي صلى الله عليه وسلم إلى أمه بعد فطامه وقد بلغ العامين ، ثم أرجعته أمه ثانية إلى حليلة فيكون هناك قدر مشترك بين العلماء في وقت شق الصدر : انه بعد غودته ثانية إلى حليلة سواء كان في العام الذي رجع إليها فيه أو العام الرابع راجع ص ١٩٨ أبو شهبه .

قالت : ما هذا شأنك فأصدقيني خبرك ؟

قالت : فلم تدعني حتى أخبرتها .

قالت آمنة : أتخوفت عليه الشيطان ؟

قالت : حليلة — نعم .

قالت : كلا والله ما للشيطان عليه من سبيل ، وان لابني لشأناً .

فلا أخبرك خبره ؟

قالت : بلى .

قلت : رأيت حين حملت به ، أنه خرج مني نور أضاء لي به
قصور بصرى من أرض الشام ، ثم حملت به ، فوالله ما رأيت من
حمل قط كان أخف ولا أيسر منه .

وقع حين ولدته ، وأنه لو اضع يديه بالأرض رافع رأسه إلى السماء
دعاه عنك وانطلقى راشدة^(١) .

من جانبنا نرى أن هذه العملية كانت طبيعية بالنسبة لإعداد
الرسول صلى الله عليه وسلم للرسالة ، انه من أجل أن سيكون رسولا
كان لازماً أن تنقى ذاته النبوية من التغذية البشرية لتظل تربيته ربانية .

(١) السيرة لابن هشام ج ١ ص ١٦٥ راجع تاريخ الطبري ج ١ ص ١٦٠ الدلائل
للبيهقي ج ١ ص ٢٩٥ الوفا ج ١ ص ١١٠ الخصائص الكبرى ج ١ ص ١٣٦ السيرة
لابن كثير ج ١ ص ٢٢٨ الروض الأنف ج ١ ص ١٠٩ ، دلائل النبوة للبيهقي ج ١
ص ٩٤ أعلام النبوة للماوردي ص ١٣٤ .

قال في المواهب اللدنية :

واستخراج العلقه منه تطهيره عن حالات الصبا حتى يتصف في سن الصبا بأوصاف الرجولية ولذلك نشأ على أكل الأحوال من العصمة من الشيطان وغيره .

وخلقت هذه لأنها من جملة الأجزاء الإنسانية فخلقت تكملة المخلوق الإنساني ولا بد ، ونزعها كرامة ربانية طرأت بعد فإخراجها بعد خلقها أدل على مزيد الرفعة وعظيم الاعتناء والرعاية .

قال العلامة السبكي : لو خلق سائبا منها لم يكن اللادمين اطلاع على حقيقته فأظهره الله على يد جبريل ليتحققوا كمال باطنه كما يبرز لهم مكمل الظاهر^(١) .

ولمذه الخاطرة أسانيد ، وأسانيدها ذاتها . فقد تكررت هذه التنقية في أوقات توحى ظاروفها أن الذات النبوية أو البشرية السوية تستأزم التنقية من مظاهر الصورة البشرية العادية^(٢) . من تغذية الأرض ولقد كفاني مؤنة جمع هذا التكرار شيخنا العارف بالله فضيلة الدكتور عبد الحليم محمود إذ يقول^(٣) :

« وهذا الحادث وقع لرسول الله صلى الله عليه وسلم من طقولاته المبكرة » .

(١) المواهب ج ١ ص ١٥٣ ، ١٥٤ .

(٢) الرسول صلى الله عليه وسلم لمحات من حياته ونفحات من هدية ٤٩ - ٥٣ .

سلسلة للبحوث الإسلامية الكتاب الرابع عشر من السنة الثانية .

راجع نور الابصار في مناقب آل بيت النبي المختار للشيخ مؤمن الشبلنجي ص ١٩ .

* لقد كان صلوات الله وسلامه عليه إذا ذاك في بادية بني سعد عند مرضعته ، وبينما هو يلعب مع الغلمان على ما يرويه الإمام مسلم — أنه جبريل فأخذه فضجعه فشق عن قلبه فاستخرج ، منه عاقبة فقال :

هذا حظ الشيطان منك ، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم ثم لأمه ، ثم أعاده إلى مكانه .

وجاء الغلمان يسعون إلى أمه يعني مرضعته ، أن محمدا قد قتل فاستقبلوه وهو ممقع اللون ، وكان ذلك وهو ابن أربع سنوات تقريبا .

* فلما كان ابن عشر سنين تكرر حادث شق الصدر فقام روى الإمام^(١) أحمد وابن حبان والحاكم وابن عساكر عن أبي بن كعب أن أبا هريرة رضى الله عنه كان جريئاً أن يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أشياء لا يسأله عنها غيره فقال :

يا رسول الله : ما أول ما رأيت في أمر النبوة ؟

فاستوى رسول الله صلى الله عليه وسلم جالساً وقال :

لقد سألت أبا هريرة . .

(١) راجع الرواية في تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٥٢٤ في سورة الشرح راجع الوفا ج ١ ص ١١٥ راجع مجموع الروايات في تفسير سورة الشرح من روح المعاني للآلوسى ج ٣٠ ص ١٦٧ . راجع باب المعراج ج ٦ ص ٢٠٣ ارشاد السارى للقسطلانى . الخلية ج ١ ص ٤٠٦ راجع مسلم ج ١ ص ١٤٧ .

إني لفي صحراء ابن عتير سنن وأشهر ، وإذا بكلام فوق رأسي ،
وإذا رجل يقول لرجل :
أهو هو ؟

قال : نعم فاستقبلاني بوجوه ، لم أرها لخلق قط وأرواح لم أجدها
من خاق قط ، وثياب لم أرها على أحد قط ، فأقبلا إلى يمشيان حتى
أخذ كل واحد منهما بعضدى لا أجد لأحدهما مساً فقال أحدهما
لصاحبه :

اضجع به ، فأضجعاني بلا فسر ولا هصر ، وقال أحدهما لصاحبه :
افلق صدره فهوى أحدهما إلى صدرى ففلقه فيما أرى بدون دم
ولا وجع ، فقال له :

أخرج الغل والحسد فأخرج شيئاً كههيئة العاقبة ثم نهذا فطرحها ،
فقال له :

أدخل الرأفة والرحمة ، فاذا مثل الذى أخرج يشبه الفضة ، ثم هت
لبهام رجلى اليمنى فقال : أغد واسلم .

فرجعت بها أغد ورقة على الصغير ، ورحمة للكبير .
ويقول :

بينما كان فى الخطيم أو فى الحجر مضطجعا بن النائم واليقظان أتاه
فشق عن صدره حسماً يروى البخارى ومسلم واستخرج قلبه . . ثم

أتيت بطست من ذهب مماءة إيماناً ، فغسل قلبي ثم حشيت ، ثم أعيد .. (١) .

* وكان المعراج فتكرر شق الصدر فعن أبي بن كعب - فيما رواه الإمام أحمد والإمام مسلم - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

فرج سقف بيتي وأنا بمكة ، فنزل جبريل ففرج صدرى ثم غسله من ماء زمزم ، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئة حكمة وإيماناً فأفرغه في صدرى ثم أطبقه (٢) .

ولا يمننا هنا - لا في قليل ولا في كثير - أن نجارى الماديين في جادلهم فيما يتعاق بشق الصدر .

فالأمر أسمى بكثير من الممارسة في الشكل والكيف والزمان والمكان .

(١) يمكن أن يرجع هذا الجزء في أعلام النبوة للماوردى ص ١٥٣ ، الخصائص الكبرى ج ١ ص ٢٣٢ وقد ذكر في المنتخب من السنة ج ١ ص ٦٤ عن دلائل النبوة لأبي نعيم وللدكتور أبو شهبه حديث حول هذا الموضوع راجع كتابة : السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة ص ٢٠٤ - ٢٠٦ راجع ج ٢ ص ٢٢٠ شرح على القارى على الشفاء .

(٢) راجع تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٢ ، ٨ ، ٩ ، ١١ ، ١٧ راجع شرح على القارى ج ٢ ص ٢٢٠ راجع صحيح مسلم ج ١ ص ١٤٨ تخريج المرحوم عبد الباقي .

والمغزى أعمق من أن نتجاوزه إلى المباحكة التي تشعر بضعف الإيمان أكثر مما تشعر بنور اليقين .

لقد روت كتب السنة بالأسانيد^(١) الصحيحة ، وروت كتب السيرة^(٢) هذه الحادثة التي توجه النظر إلى عناية الله سبحانه وتعالى برسوله صلى الله عليه وسلم منذ طفولته المبكرة .

وإن من مظاهر هذه العناية ، أن يستخرج الله حظ الشيطان من قلبه منذ سنيه الأولى حتى لا يكون للشيطان عليه سبيل^(٣) .

إن الله سبحانه وتعالى - وقد شاءت إرادته منذ الأزل أن يكون محمد خاتم الأنبياء والمرسلين أراد سبحانه أن يجعل منه المثل الكامل للإنسان الكامل .

(١) البخارى ج ١ ص ١٨٢ فتح المبدى ط رابعة حلبي ، مسلم ج ١ ص ١٠١ ط أولى حلبي سنة ١٩٦٠ م .

(٢) الوفا ج ١ ص ٢١٩ السيرة لابن هشام ج ١ ص ١٦٤ ، ١٦٥ السيرة لابن كثير ج ١ ص ٢٢٨ - ٢٢٩ الخصال ج ١ ص ١٣٤ ، ١٣٥ دلائل النبوة لبيق ج ١ ص ٢٩٣ أعلام النبوة ص ١٥٣ كتاب المعراج ص ٣٦ ، ٣٧ تحقيق الدكتور علي حسن عبد القادر شرح المواهب اللدنية ج ١ ص ١٤٩ ، ٢٢٥ ، راجع الاسراء والمعراج للدكتور عبد الحليم محمود : سلسلة البحوث الإسلامية ، راجع الشفاء بشرحه ج ٢ ص ٢٨٠ ، ٢٨١ .

(٣) راجع فقه السيرة لفهيملة الشيخ محمد الغزالي ٦٣ - ٦٥ .

والإنسان يبدأ السير نحو الكمال بطهارة القلب وتصفية النفس ،
والتوبة ، والإخلاص أو بتعبير آخر بشق الصدر ، واستخراج حظ
الشيطان منه .

وأرسل الله ملائكته فشقوا عن صدر الرسول ، واستخرجوا حظ
الشيطان منه .

وأرسلهم فشقوا عن صدره ولأوه سكينه :
ثم أرسلهم ، فشقوا عن صدره ولأوه رافة ورحمة :
فكان صلوات الله وسلامه عليه رقة على الصغير ورحمة للكبير :
ثم أرسلهم فشقوا عن صدره فلأوه إيماناً .
ثم شقوا عنه فلأوه حكمة (١) .

إنه صلى الله عليه وسلم يعد ليكون الأسوة الحسنة والمثل الكامل
للقاء والصفاء والرحمة والسمو . إنه سيكون المقياس والدايل والإمام
فلا بد وأن يتحقق فيه سنام النقاء وذروة الصفاء وغاية السمو . حتى
يكون هو وحده المثل .

(١) راجع الموضوع بجملة في ص ٥٤ - ٥٦ الرسول (ص) لمحات من حياته
ونفحات من هديه الكتاب الأول من سلسلة البحوث الإسلامية ، راجع الآلوصى ج ٢٠ -
ص ١٦٦ ، ١٦٧ * تفسير سورة الشرح .

ولقد كانت هذه الإجابة من النبي صلى الله عليه وسلم على سؤال
أبي هريرة :

إنني لفي صحراء ابن عشر سنين وأمهري : الرواية اشارة إلى ان تنفيذه
بدأت مصاحبة لطفولته وليس ذلك بغريب إذا تصورنا القضايا في
جوها المتناسق :

نبوة تصطفى من رب العالمين .

ولقد كان محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم هو ذروة النقاء
والصفاء والسمو ، والسكينة ، والرحمة والإيمان والحكمة .

وصدق الله العلي العظيم : (وإنك لعلی خلق عظیم) ٤ — سورة
القلم .

وصدق الرسول الأمين : أدبني ربي فأحسن تأديبي^(١) .

(١) راجع الجامع الصغير ص ١٢ ج ١ .

على الهامش مع الدكتور هيكل

غير أن شواذا من الكتاب الإسلاميين الذين يستحبون الاستشراق على الذاتية الإسلامية لا يستر يحون لرواية شق الصدر^(١).

يقول الدكتور هيكل باشا :

قصة لا يطمن إليها المستشرقون، ولا يطمن جماعة من المسلمين كذلك إلى الملكين هذين . . . ويرونها ضعيفة السند :

فالذي رأى الرجلين في رواية كتاب السيرة إنما هو طفل لا يزيد على - سنتين إلا قليلا ، وكانت كذلك سن محمد يومئذ^(٢).

والمستشرقون ومعهم الجماعة من المسلمين الملتفين معهم في غلالة الشك مخطئون في الفهم والبحث من عدة جوانب :

الجانب الأول :

زاوية تفهم حياة الرسول صلى الله عليه وسلم فيما قبل البعثة وفيما بعدها :

(١) راجع نبى الانسانية ص ٢٧٨ - ٢٨٨ .

(٢) حياة محمد ص ١١١ .

الجانب الثانى :

رواية التعمل التاريخى لرواية الحادثة .

الجانب الثالث :

محاولة تحقيق البصمة ولو برواية تتمشى مع الزاوية التى ينبغى
أن نفهم منها شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم .

ومستوى الرواية فى الحديث .

الجانب الأول بشر يوحى

أما فيما يتعلق بالجانب الأول : فالخطئون من جماعة المسلمين ومعهم المستشرقون عندما يدرسون السيرة النبوية العطرة يركزون في دراساتهم على جانب البشرية البحتة في شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم ولا ينتبهون إلى أن هذه البشرية داخلة في إطار : (يوحى إليه) . فينبغي إذا درس هؤلاء القوم حياة الرسول صلى الله عليه وسلم أن يلاحظوا أقطار الشخصية النبوية الكريمة كلها في إطار الرسالة والبشرية معا من قبل ومن بعد الابتعاث .

وهذا أمر واضح جداً في عصرنا الحديث : عصر الإيمان بالتخصص فليس هناك مجال من المجالات يقوم على شأنه مدير غير متخصص ، بل لن يسمح ألبتة بطبيب متخصص في جراحة العيون أن يقوم بإجراء جراحة في القلب أو في الأمعاء . مثلاً .

بل إن المتخصصين أنفسهم ليتفاوتون في مجال تخصصهم نتيجة لتفاوت الذكاء والنشاط ، والاستفادة من التدريب ، واستيعاب المعلومات ، والقدرة على دقة تطبيقها .

والنبوة مجال أعظم من كل مجالات الحياة ، وأخطر كثيراً جداً
من جميع مجالات التخصص ، فإن الأنبياء هم المصطفون من عند الله
لتبليغ وحيه وقواعد الحياة التي أرادها الله للإنسان ليحيا عليها .

وبالطبع وحسب مجريات الأمور في الحياة العادية . لابد وأن
يكون للأنبياء حظ وافر من التهيئة والاعداد الرباني قبل الرسالة :
والذي يتولى هذه التهيئة والتربية والاعداد هو صاحب الكون والملكوت
الذي سيدينهم عن جلاله في تبليغ أحكامه .

وإذا تواضعنا في القياس فإن رئيس الدولة يتخير الممثل له الذي
سيتمحدث باسمه ، ويجرى له تدريبات واختبارات حتى يتحقق من
قدرته على النيابة عنه .

فاذا كان الله جل جلاله هو المختار المصطفى وهو فعال لما يريد
فكيف يكون الاختيار ؟

وإذا كان هو جل شأنه المربي وهو الذي أتقن كل شيء فكيف
تكون التربية ؟

يقول الإمام الماوردي :

فصل : تدرجت إليه أحواله في النبوة حتى علم أنه نبي مبعوث
ورسول مبلغ ، ترتب تدرجه على ستة أحوال نقل فيهن إلى منزلة
بعد منزلة حتى بلغ غايتها . . ثم يقول : والمنزلة الثانية ما ميز به عن

سائر الخلق من تقديسه عن الأرجاس ، وتطهيره من الأدناس ليصفو
فيصطفى ، ويخلص فيستخلص فيكون ذلك إنذاراً لأمر وتنبيهاً على
العاقبة^(١).

ويقول في موضع آخر :

« ولا منزلة في العالم أعلى من النبوة التي هي سفارة بين الله تعالى
وعبادته تبعث على مصالح الخلق وطاعة الخالق ، فكان أفضل الخلق
بها أخص وأكملهم بشروطها أحق وأمس ، ولم يكن في عصر الرسول
وما داني طرفيه من قاربه في فضله ولا دانه في كماله خلقاً وخلقاً ،
وقولا وفعلاً وبذلك وصفه الله تعالى في كتابه بقوله :

(وإنا لك لعلى خلق عظيم)^(٢).

يروى صاحب السيرة الحلبية :

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

ما هممت بقبيح مما هم به أهل الجاهلية إلا مرتين من الدهر ،
وكلتاها عصمني الله عز وجل منهما^(٣).

(١) اعلام النبوة ص ١٥٢ . (٢) اعلام النبوة ص ١٣٧ .

(٣) السيرة الحلبية ج ١ ص ١١٧ راجع اعلام النبوة للماوردي ص ١٣٥ -
راجع كذلك الخصائص الكبرى ج ١ ص ٢١٩ .

فالعصمة للنبي صلى الله عليه وسلم طبيعة وجبله منذ اصطفى
وآدم منجذبل في طينته .

إنها له جبله منذ تعلق إرادة الله جل شأنه في الأزل البعيد بأن
سيكون محمد صلى الله عليه وسلم للعالمين رسولا .

وعلى هذا فزاوية الدراسة التي ينبغي أن تلاحظ ، هي أن بشرية
الرسول صلى الله عليه وسلم بشرية معصومة منذ طفولتها المبكرة ، منذ
وجوده في الحياة ، منذ ولادته .

ومن الإشارات اللطيفة واللفتات الحسان التي كان يجرد بها فضيلة
الدكتور محمد بن فتح الله بدران رحمه الله تعالى ما يغذى هذا المعنى ،
يقول :

لم يقرن القرآن أبدا لمحمد صلى الله عليه وسلم صفة البشرية وحدها
بل أفرد له صفات الرسالة وجعلها مقصورة عليه ، وجعله مقصورا
عليها في مثل قوله سبحانه : (وما محمد إلا رسولا) سورة آل
عمران — ١٤٤ .

(إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل) سورة هود — ١٢ .

(ان عليك الا البلاغ) سورة الشورى — ٤٨ .

(ان أنت الا نذير) سورة فاطر — ٢٣ .

(إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً) سورة فاطر — ٢٤ .

(وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون) سورة سبأ — ٢٨ .

يا صاحبي : وتدبر معي قوله تعالى في سورة الأحزاب — ٤٠ :

(ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين) .

واتخذ شعارك دائماً من سورة الفتح — ٢٩ قوله سبحانه :

(محمد رسول الله)^(١) .

فقد وضح أنه من الخطأ البين — وهو الذي بسببه لا يطمئن — المستشرقون وخدامهم من تلاميذهم في الشرق الإسلامي — أن يتفهموا شخصية الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام إن قبل البعثة وإن بعدها من زاوية البشرية البحتة فقط ويجعلون عقولهم — وهي صغيرة جداً في ساحة هذا الشرف العظيم — هي المقياس في إدراك حقائق عليا تخص نبياً شاء الله تعالى له منذ الأزل أن يكون للعالمين نذيراً .

(١) الفلسفة الحديثة في الميزان ص ١٥٧ للمرحوم فضيلة الدكتور محمد بن فتح الله بدران .

ولولانا العارف بالله الدكتور عبد الحليم محمود استفاضات نورانية
في عرض منهاج للباحثين الذين يرغبون في تفهم سيرة النبي الكريم
عليه أفضل الصلاة والسلام يقول :

بعض الناس حينما يقرأ القرآن الكريم فتعمر عليه الآية الكريمة :

﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى ﴾

يقف عند كلمة « بشر » :

فيحاول التركيز عليها ، وتوجيه الانتباه كله إليها وتحويل الأنظار
كلها نحوها ، فيتحدث عن خصائص البشرية العادية ويبرزها ، ويندفع
في هذا الاتجاه المنحرف اندفاعاً لا يتناسب قط مع قوله تعالى :

(يوحى إلى) سورة الكهف - ١١٠ .

بل إنه في اندفاعه الهوجاء ينسى (يوحى إلى) ومهلها إهمالاً .

وينسى في كل ذلك :

(وما ينطق عن الهوى) ٣ - سورة النجم .

وينسى في كل ذلك :

(يوحى إلى) .

وينسى :

(لست كهيئتكم) .

وينسى :

(لا تجعوا دعا الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا) ٦٣ - سورة
النور .

ويستمر فضيلته في توضيح المسألة فيقول :

ومن الغريب أنهم حينما يتحدثون عن البشرية ويركزون عليها
يعتبرون أنفسهم تقدميين متطورين وفاتهم أن هذه النظرة لأبي جهل
إنما هي النظرة التي يتبناها المستشرقون المبشرون في العصر الحاضر
ليقللوا من شأن الرسول في نظر مواطنيهم :

وما كان المستشرقون في تركيزهم على بشرية الرسول إلا متابعين
في ذلك زعيمهم الأكبر - في هذه النزعة - وهو : أبو جهل

وكل من يركز على بشرية الرسول من الكتاب المسلمين إنما هر
بذلك يتابع المستشرقين والمبشرين في هذه النزعة أو يتابع أبا جهل ، وهم
في ذلك ليسوا تقدميين ولا متطورين ، وإنما هم من الرجعيين حيث
ترجع فكرتها إلى ما قبل ثلاثة عشر قرنا مضت يتزعمهم فيها أبو جهل
كله ، وأبو الظلمة القلبية كاهها .

ثم يحدد الموقف فيقول :

هناك إذن طرفان يمثلان فريقين من الناس .

طرف : (بشر) أو (قل : إنما أنا بشر مثلكم) .

وطرف : (يوحى إلى) أو (رسولا) .

وبين الطرفين يتأرجح عدد لا يحصى من المسلمين نزولا وارتفاعا
انخفاضا وسموا .

وان مقياس الإيمان : قوة وضعفا .

مقياس درجة الإيمان الذى لا يخطئ ، إنما هو ما وقر في القلب
أوغلب عليه من البشرية ، أو من : (يوحى إلى) .

لأنهما يمثلان ما يوضع في كفتي ميزان :

دع ما ادعته النصرى في نبيهم

واحكم بما شئت مدحا فيه واحتكم^(١)

ولإذن فالزاوية التى ينبغى أن يلتزمها الباحثون في السيرة النبوية
هى : بشرية النبي ، البشرية السوية ، البشرية التى ربها ربها بشرية
يوحى إلى . حتى لا يخطئون وتلك هى الزاوية التى يتجنبها هيكىل باشا
وجماعة المسلمين الذين معه في حاققة الاستشراق . . . ولذا فإنهم
مخطئون .

(١) الرسول صلى الله عليه وسلم لمحات من حياته وثقافات من هدية ص ١١٧
وما بعدها .

الجانب الثانى أثر المخيط

أما فيما يتعلق بالجانب التاريخى ، ومن الذى يتحمل مسؤولية الرواية فالذى روى القصة للتاريخ وتحمل تبعاتها ليس هو طفل حليلة ، بل حليلة نفسها هى التى روت حادث شق الصدر الأول :

فالتحمل التاريخى لهذه الرواية مرتبط بأخبار السيدة الفاضلة حليلة بنت أبى ذؤيب . وهى لم تتحمل الرواية عن أخبار والدها الذى جاءها وهو يشتد . بل انتقلت هى وزوجها إلى مكان الحادث : وبنفس الألفاظ التى نقلها والدها إليها وهو يصور الواقعة أنجرها رضيعها محمد ابن عبدالله صلى الله عليه وسلم كذلك بنفس التفاصيل التى حملها التاريخ عن حليلة وهى تروى مشاهدتها :

ورواية ابن هشام :

« قالت : فخرجت أنا وأبوه نحوه . فوجدناه قائماً ممتعاً وجهه . قالت : فالتزمته ، والتزمه أبوه ، فقلنا له : مالك يا بنى ؟ »

قال : جاءنى رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعانى وشتما بطنى ، فالتزمتا فيه شيئاً لا أدرى ما هو .

قالت : فرجعنا إلى خمائنا^(١) .

ورواية ابن كثير :

فخرجت أنا وأبوه نشد نحوه ، فجدده قائماً ممتعاً لونه فاعتنقه
أبوه :

وقال : يا بني ما شأنك ؟

قال : جاءني رجلان عليهما ثياب بيض أضجعاني وشقا بطني
ثم استخرجا منه شيئاً فطرحاه ثم رداه كما كان^(٢) .

ورواية ابن الجوزي :

قالت : فخرجت وخرج أبوه نشد نحوه ، فأنهينا إليه وهو
ناثم^(٣) ممتع لونه فاعتنقه أبوه واعتنقته ، وقال : مالك يا بني ؟
قال : أتاني رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاني وشقا بطني^(٤) .

(١) السيرة لابن هشام ج ١ ص ١٦٥ .

(٢) السيرة لابن كثير ج ١ ص ٢٢٨ .

(٣) هكذا في ص ١١٠ ولعلها خطأ مطبعي وأصلها قائم أو حال أخرى في هذه
الرواية .

(٤) الوفا ج ١ ص ١١٠ .

ورواية السيوطي :

فخرجت أنا وأبوه نشد نحوه ، فوجداه قائماً منتقعا لونه فاعتنقه
أبوه وقال : أي بني ما شأنك ؟

قال : جاءني رجلان عليهما ثياب فأضجعاني فشقا بطني ثم
استخرجوا منه شيئاً فطرحاه ثم رداه كما كان (١) .

ورواية الماوردي :

فخرجت أنا وأبوه فوجدناه قائماً قد انتقع لونه ، فلما رأنا أجهش
إلينا باكياً ، قالت : فالتزمته والتزمه أبوه ، وقلنا له : مالك ؟
فقال : « جاءني رجلان فأضجعاني فشقا بطني (٢) » .

ورواية الإمام مسلم : حدثنا شيبان بن فروخ حدثنا حماد بن
سلمة حدثنا ثابت البناني عن أنس بن مالك . أن رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه فشق عن قلبه
فاستخرج القلب فاستخرج منه عاقرة فقال : هذا حظ الشيطان منك ثم
غسله في طست من ذهب بماء زمزم ثم لأمه ثم أعاده في مكانه ، وجاء
الغلمان يسعون إلى أمه يعني ظئره فقالوا : إن محمداً قد قتل فاستقبلوه
وهو منتقع اللون . قال أنس : وقد كنت أرى أثر الخيط في صدره (٣) .

(١) الخصائص ج ١ ص ١٣٦ . (٢) اعلام النبوة للماوردي ص ١٣٤ .

(٣) مسلم باب الاسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم ج ٢ ص ٢١٦ - ٢١٨
المطبعة المصرية . راجع طبعة الأستاذ المرحوم محمد فؤاد عبد الباقي ج ١ ص ١٤٧ .

فالمحدث في هذه الروايات هو حليلة ، يعنى المتحمل تاريخياً
رواية شق الصدر الأولى هى حليلة ، غاية ما هنالك انها تلقت الخبر
أولاً من طفلها . لكنها لم تتحمل منه الرواية بل انتقلت إلى مكان
الحادث فلقد اتفقت الروايات على افادة أن حليلة وزوجها قد انتقلا
إلى مكان محمد صلى الله عليه وسلم .

ثم سمعت القصة من غلامها الذى وقع به الفعل وأن أول دليل على
صدق الحادثة انها تمت فى جوها الطيبى .

وجوها الطيبى :

انفعال ولدها الصغير ورعبه من هول الحادث فى زمن ليس للطب
الجراحى فيه اسم ولا يمكن إدراكه لطفل من حيث رؤيته فجاءه .
ثم انتفال حليلة بناء على أخبارها ومشاهدتها امتناع لون ولدها
الرضيع عنها .

ولا يمكن أن تصدر الحادثة عن غير هذا الجو ، صحيح أن الواد
صغير ولكن صحة الرواية وصدقها لا يرتبط فى مثل هذه الأمور التى
لا يراها إلا الأطفال وبحسب العادة فى رعاية اليهم أنها لا تكون إلا عن
طريق الغلمان فهم الحاضرون والمشاهدون للواقعة .

والطفل فى البادية أصدق لساناً وأصنى وجدانا وأكثر ذكاء .
وألح قريحة فى التعبير عن مشاهداته وانفعالاته .

وحول هذا يقول هيكلم نفسه :

ويجد هو في الصحراء وخشونة عيش البادية مايسرع به إلى التو
ويزيد في وسامة خلقه وحسن تكوينه^(١).

حتى لو يعترف هو بهذا ، فإن ابن كثير يقول :
فكان يشب شباباً لا تشبه الغلمان فوالله ما بلغ السنتين حتى كان
غلاماً جهوراً^(٢).

ويقول ابن الحوزي :

قالت : وكان يشب في اليوم شباب الصبي في الشهر ، ويشب
في الشهر شباب الصبي في السنة ، قالت : فبلغ سائتين وهم غلام
جفر^(٣).

فإذا ما رأى الطال شهاداً مرعباً فانفعل واشتد نحو أمه . وحضرت
وسمعت من غلامها الرضيع فإنما تسمع من غلام جفر له كمال التكوين
وسلامة العقل وصدق الإحساس ، ودقة التعبير عنه ولقد كان تعبيره
صادقاً ، وكان التحمل صحيحاً . وكان الطريق إليه طبيعياً فإذا ما انضم
إلى هذا خوف حليلة على ولدها وتقريرها هي وزوجها ارجاعه إلى
أمه ، ثم استفسار أمه عن سبب ارجاعه وقد كانت حليلة أشد تمسكاً
ببقائه ، وأخبار حليلة أمه بما حدث . . . الخ ، يفيد أن الذي روى

(١) حياة محمد ص ١١٠ .

(٢) السيرة لابن كثير ج ١ ص ٢٢٧ .

(٣) الوفا ج ١ ص ١٠٩ راجع كذلك شرح المواهب اللدنية ج ١ ص ١٤٨

للزرقاني ط أولى سنة ١٣٢٥ هـ . الأزهرية المصرية .

الحادثة للتاريخ هي حليلة وأن طريق التحمل كان غاية في الدقة لأنه طريق التحمل الطبيعي .

على أن المسألة أخيراً قد انتقلت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فما يرويه الإمام مسلم من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل عليه السلام وهو يلعب مع الغلمان ، فأخذه فصرعه فشق عن قلبه فاستخرج القلب ، واستخرج منه علة سوداء فقال : هذا حظ الشيطان ، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم ، ثم لأمه ، ثم أعاده في مكانه ، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه يعني ظئره . . . فقالوا : ان محمدا قد قتل ، فاستقبلوه وهو منتقع اللون ، قال أنس : وقد كنت أرى أثر الخيط في صدره^(١) .

فاذا ما كانت المسألة قد وصلت إلى أخبار سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد انتقلت إلى مرتبة الإلزام والقبول وإلا كان الدخول في العقيدة الطعن في مستوى العقل إذ لا يمنع من مثل هذه الحادثة في عصر أصبح شق المصادر دون إحساس أو آلام أمراً مكرراً مألوفاً . وإذن فمن رفض قبول الرواية ، أو شك فيها فقد انتحل مذهب الجاهلية ، وأفسد عقله بانحراف منه هو . ومن قبلها فقد أحترم عقله وصان دينه وما يعقلها إلا العالمون .

(١) مسلم ج ٢ ص ٢١٦ شرح الامام النووي ، راجع صحيح مسلم ج ١ ص ١٤٧ اخراج عبد الباقي .

الجانب الثالث

كراع حول الحمى

أما فيما يتعلق بالجانب الثالث ، محاولة تحقيق القصة بما يتمشى مع الزاوية الطبيعية التي ينبغى أن تتخذ أسوة في تفهم حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وهى (بشر يوحى إلى) . ومقدار درجة الروايات من وجهة مقياس الحديث ؟

فإن هؤلاء الذين لا يطمثون لهذه الحادثة لم يكلفوا أنفسهم عناء البحث عن رواية تحسن عندهم وتتفق مع الجوى الإسلامى لصدق القصة بل اقتصروا على ما عندهم من ظن عقلى لا يغنى من الحق شيئاً ، ورفضوا الأسانيد وعللوا الرفض بأنها ضعيفة .

وكان يمكن التسليم بهذا الأمر لو لم تتكرر الحادثة ولو لم يروها أحد الكتب الصحاح التى تعتبر ذخيرة الأمة الإسلامية ، للنصف الثانى من أساسيات التشريع الإسلامى وهو : السُّنَّةُ المطهرة .

أما وقد تكررت الحادثة على نحو ما عالجته فى صدر هذا الحديث .

وأما وقد رواها الأئمة البخارى ومسلم وأحمد بن حنبل وابن هشام ، وابن كثير وابن الجوزى والبيهقى ، والماوردى والسيوطى

والقشيري : (١) وأبو نعيم وكلها طرق يقوى بعضها بعضا . وليس في إحدى الروايات وضع يفسد أو يشوش على الروايات الأخرى :

[فإن القضية لا تحتل التضعيف أو التشكيك أو الشك بقدر ما تحتل للثبوت ، والقبول ، والاعتراف وإذا كان الذين لا يرضون قصة شق الصدر — ولا يقبلونها من جماعة المستشرقين ولفائف مجتمعهم من الذين لا يجيدون إدراك المناقشة في علوم الحديث ، فلأنى أضع في مجاباتهم عالما متخصصا في الحديث وعلومه والتفسير وعلومه ليكون الرد على شكوك غير المتخصصين بأدلة من المتخصصين الكبار .

يقول فضيلة الدكتور محمد بن محمد أبو شبة :

أما قول البعض ، إن هذه القصة ضعيفة السند فنقد مجمل ، وكنا نحب من الناقد أو المنكر وقد تعرض لانكار أمر يقره جمهرة المسلمين وفيهم أئمة كبار لهم بعد بالنقد والتبديل والتجريح للرواة أن ينقد سند القصة نقداً تفصيلياً :

(١) راجع كتاب : المراج لأبي القاسم القشيري ص ٢٨ ، ٢٩ ، وقد سبق أن رمزنا للروايات الأخرى . راجع القسطلاني ج ٦ ص ٢٠٣ ط السابعة بولاق الأميرية ١٣٢٥ هـ ، راجع شرح المواهب اللدنية للزرقاني ص ٢٢٥ ج ١ — الطبعة الأولى ١٣٢٥ هـ ، المطبعة الأزهرية المصرية ، راجع فتح الباري ج ٨ ص ٢٠١ — ٢٠٥ .

أما وقد أتى به نقداً مجملاً فهو معارض بتوثيق أئمة كبار لسند هذه القصة ، وقد سمعت آنفاً ^(١) أن القصة رواها الإمام مسلم في صحيحه ، وإن كانت مجملة وأن أسانيد القصة إن لم تكن صحيحة فهي حسنة وجيدة وتصلح للاحتجاج بها ، بل قصة الشق ليلة الإسراء والمعراج مروية في الصحيحين — ^(٢) وغيرهما من كتب الحديث .

بل قال بعض العلماء المحققين أنها متواترة ، قال الحافظ ابن حجر بعد أن عرض لذكر الروايات الدالة على شق الصدر وتكراره (وجميع ماورد من شق الصدر واستخراج القلب . وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة مما يجب التسليم به دون التعرض لصرفه عن حقيقته لصلاحيته القدرة فلا يستحيل شيء من ذلك ^(٣) .

وقال القرطبي في « المفهم » لا يلتفت لانكار الشق ليلة الإسراء والمعراج لأن رواته ثقات مشاهير .

وطبيعي أن من صدق به ليلة الإسراء والمعراج يلزمه التصديق به في الصغير وعند البعثة مادام الأمران ثابتان بالروايات التي يحتج بها .

(١) راجع السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة ص ٢٠٥ ، ٢٠٦ .

(٢) في البخارى باب كيف فرضت الصلاة ، كتاب التوحيد باب المعراج في كتاب الفضائل وفي مسلم باب الاسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم ج ١ ص ١٠١ ط ١ أولى حلبي .

(٣) فتح البارى ج ٨ ص ٢٠٣ حلبي ١٣٧٨ هـ . ١٩٥٩ م .

أما ما قيل : من أن ابن إسحاق رواها مرسله عن رجل لم يسم من الصحابة فلا ينهض الطعن إذ المعروف في قواعد « أصول الحديث » أن الصحابة عدول فلا تضر جهالة الصحابي^(١) أ. هـ .

* ومما قاله ابن حجر رحمه الله تعالى :

رجع عياض أن شق الصدر كان وهو صغير عند مرضعته حليلة وتعبه السهيلي بأن ذلك وقع مرتين وهو الصواب : ومحصله .

أن الشق الأول كان لاستعداده لنزع العلقمة التي قيل له عندها :
« هذا حظ الشيطان منك » :

والشق الثاني كان لاستعداده للتلقا الخاصل له في تلك الليلة :
وقد روى الطيالسي والحاتم من حديث عائشة أن الشق وقع مرة أخرى عند مجيء جبريل له بالوحي في غار حراء والله أعلم ومناسبته ظاهرة .

وروى الشق أيضا وهو ابن عشر أو نحوها في قصة له مع عبد المطلب أخرجها أبو نعيم في الدلائل .
وروى مرة أخرى خامسة . . (٢) .

(١) راجع كتاب السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة ص ٢٠٩ ، ٢١٤ .

(٢) راجع شرح المواهب اللدنية ج ١ ص ١٥٣ ط ١ أول ١٣٢٥ هـ .

* ومن روايات البخارى رضى الله تعالى عنه :

حدثنا عبد العزيز بن عبد الله ، حدثني سليمان عن شريك بن عبد الله أنه قال ، سمعت ابن مالك يقول ليلة أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم من مسجد الكعبة أنه جاء ثلاثة نفر وهو نائم في المسجد الحرام فقال أولهم : أيهم هو ؟ فقال أوسطهم : هو خيرهم ، فقال آخرهم : خذوا خيرهم ، فكانت تلك الليلة فلم يرهم حتى أتوه ليلة أخرى فيما يرى قلبه وتنام عينه ولا ينام قلبه ، وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم ، ولم يكلموه حتى احتملوه فوضعوه عند بئر زمزم فتولاه منهم جبريل ، فشق جبريل ما بين نحره إلى لبتة حتى فرغ من صدره وجوفه فغسله من ماء زمزم حتى أنقى جوفه ثم أتى بطست من ذهب فيه نور محشوا إيماناً وحكمة فحشا به صدره ولغاد يده - يعنى عروق حلقه - ثم أطبقه ، ثم عرج به إلى السماء . . الحديث (١) .

* وفى تفسير روح المعانى لعمدة المدققين مفتى بغداد أبى الفضل شهاب الدين السيد محمد الآلوسى : أخرج الشيخان والترمذى والنسائى من حديث أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بينا أنا فى الحجر - وفى رواية فى الحطيم - بين

(١) صحيح البخارى كتاب التوحيد .

النائم واليقظان إذ آتأت آت فشق ما بين هذه فاستخرج قلبي فغسله ثم أعيد ثم أتيت بدابة . . الحديث (١) .

ومن روايات البخارى أيضا عن أنس بن مالك قال كان أبوذر يحدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

فرج عن سقف بيتى وأنا بمكة فنزل جبريل ففرج صدرى ثم غسله بماء زمزم ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيمانا فأفرغه فى صدرى ثم أطبقه ثم أخذ بيدي فخرج به إلى السماء الدنيا (٢) .

ولإذن :

أفلا يكون — فى أقل تقدير — هؤلاء العلماء ، ابن هشام ، والآلوسى وابن كثير ، وابن الجوزى ، وأبو نعيم ، والماوردى ، والسيوطى ، والبيهقى وابن حجر والقرطبى ، والقشيرى . . . الخ . أقرب إلى التصديق من ادعاءات السير ولیم مویر ، ودر منجم ؟

أفلا يكون مسلم والبخارى أقرب إلى الصواب من هیکل باشا ؟

وهل المحدثون من كتاب التاريخ الإسلامى ذو غیرة ودراية بأحوال المصطفى صلى الله عليه وسلم أكثر وأصدق من المتقدمين . ؟

(١) روح المعانى ج ١٥ ص ٤ - ٥ إدارة الطباعة .

(٢) صحيح البخارى باب كيف فرضت الصلاة . .

ولنفرض ذلك جدلاً . . . فهل سلوك المحدثين وتغذيتهم وأجواؤهم الاجتماعية تؤهلهم ليكونوا أكثر صدقاً وغيره على مصادر قصة شق الصدر عن الورعين الطاهرين المخلصين السابقين من علمائنا الأجلاء ؟

إن طريق الرواية وتعدد رواياتها ، وكثرة رواياتها من كبار العلماء والحو الاجتماعي الذي عاشوا فيه ليؤهلهم للثقة غير المحدودة ، ويوجب بالإلزام الخلق والعلم أن تكون مقالتهم هي الصدق .

ومن خالفهم فقد تجرأ على حمى من حمى الدين يوشك أن يواقعه .

ثالثاً : اليتيم والشخصية

تعتبر التنشئة الاجتماعية قديماً وحديثاً هي المقوم الأساسى لشخصية الفرد والجماعة .

إنها فى أبسط تصوراتها :

نقل خصائص البيئة إلى الجيل القادم ليحمل عن آباءه مقومات الأسرة ضماناً لاستمرارها على موارث الآباء .

وكذلك شأن الدول :

والتنشئة الاجتماعية فى العصر الحديث أخذت نصيباً كبيراً من جهود الحكومات ، خاصة تلك الدول ذات المذهب المعين ، ولقد تفنن المسؤولون فى تطوير وسائل التنشئة الاجتماعية من المدرسة ، والجامعة ، ودور الثقافة ، والمتاحف ، والتلفزيون والإذاعة ، والمسارح ، والمعارض ، وصلات السينما ، والندوة والتنظيم والنشرة .

وبات العلماء الاجتماعيون فى كل دولة حديثة يبحثون مشاكل التنشئة الاجتماعية وتطوير وسائلها . والتخطيط إليها . وانتخاب وتدريب القائمين على تنفيذها وذلك بالمحافظة على سلامة تنفيذ التنشئة الاجتماعية حتى لا تتخالف أهدافها المرسومة .

وذلك كله من أجل حصر عقول الخيل القادم في سور ثقافى معين
يكون دافعاً للسلوك المرجو تحقيقه مستقبلاً : ولقد أجهد هذا النشاط
المسؤولين عن التنشئة الاجتماعية في عدة مجالات أخصها :

مجال البحث في تطوير آليات التنشئة الاجتماعية :

ومجال متابعة تنفيذ الخطة :

ومراقبة نتائجها :

وكل ذلك من أجل تخريج جيل له فقه خاص لسلوك خاص :

فهل كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم مثل هذا الحظ ليكون
رائداً لبناء فقه اجتماعى جديد لأمة العرب ؟ بل العالم كله ؟

أكانت المعايير والثقافة في الحياة العربية بل في العالم كله يومها لها
من الصلاحية والتوافق بحيث تنتج للعالم رائداً يشرع ويضمن للحياتين :
الدنيا والآخرة عيشاً رفيعاً ؟ بدون تخرج ولا حاجة إلى دليل .

إن الجواب : لا

فإذا أضيف إلى هذا أن علم النفس وهو مفخرة الباحثين في هذا
المجال يقرر :

أن الذكاء رغم أنه قدرة فطرية فإن عوامل البيئة تلعب دوراً هاماً
في إثارة هذه القدرة إيجاباً وسلباً ومن هذه العوامل :

١ — الحالة الصحية ، والاقتصادية ، والثقافية للأسرة :

٢ — الرفاق وأثرهم :

٣ — التعليم المدرسى :

وقد يحدث فى بعض الحالات : أن يولد الطفل مزودا بقسط كبير من الذكاء إلا أن ظروفه البيئية تحول بينه وبين الذهاب إلى المدرسة ليتعلم العلوم ويكتسب الخبرات ومن ثم : لم يتيح لهذه القوة الفطرية الظهور بالشكل المفروض أن تظهر به لو اختلفت هذه الظروف (١) :

ويقول علماء التربية :

إن الطفل الذى ينشأ فى أسرة مفككة ، دب الشقاق بين أطرافها يضطرب اتزانه الانفعالى .

والطفل الذى يعيش فى ظلال أسرة فقيرة ليست لديها وسائل التعليم والثقافة يفقد فرصاً كثيرة من المعرفة اللازمة لحياته (٢) .

ويقولون :

إن من عوامل التربية المصاحبة : حال الوالدين :

فإذا لم يكونا على جانب من الثقافة فقد الطفل فرصاً كبيرة للتثقيف بله الأثر السبىء الذى قد ينعكس عليه من والديه ، نتيجة عدم معرفتهما لطبيعة 'مراحل نموه' (٣) .

(١) سيكولوجية الطفولة والمراهقة للدكتور مصطفى فهمى ١٧٥ - ١٨٠ .

(٢) أساسيات التربية ص ٢٢ - ٤٤ دكتور ابراهيم شهاب .

(٣) أساسيات التربية ص ٢٢ - ٢٤ .

وقالوا أيضاً :

إن خروج المرأة للعمل : أدى إلى انتقال جزء من الوظيفة التربوية للأسرة إلى مدارس الحضانة أو إلى الخدم ، ولما كانت مدارس الحضانة قليلة الشيوع فالنتيجة الحتمية أن تترك طفلها للخدام ، الأمر الذى له أسوأ الأثر على النمو النفسى للطفل .

فالأم أكثر حساسية لمطلب طفلها ، وأكثر استجابة لهذا المطلب وأكثر سرعة فى الاستجابة إليه .

بل إن الجو المشبع بالحنان الذى ينشئه وجود الأم حول طفلها يشعره بالأمن والسعادة مما يساعد على نمو الطفل نموا متكاملا سليما :
أما ترك الطفل تحت إشراف الخدم فإن له أثراً سيئاً عليه^(١) :

ثم يستنتجون :

ومن هنا كان لازماً على الأم أن تشرف إشرافاً دقيقاً على تربية طفلها ، ولهذا نجد أن تثقيف الأم من الضرورة بمكان^(٢) .

هذه هى القواعد النفسية والتربوية التى قالها العلماء المتخصصون فى هذين الفنين كمقاييس أو معايير لحياة الإنسان العادى .

إنه يحتاج فى تكوينه النفسى والتعليمى إلى شروط عدة لكي يكون إنساناً مثقفاً ، لا أن يكون زعيماً أو مصلحاً .

(١) ، (٢) أساسيات التربية ص ٢٥ - ٢٦ دكتور ابراهيم شهاب .

فإذا قسنا حياة الرسول صلى الله عليه وسلم بهذه الموازين فما تكون هذه الموازين بالنسبة إليه ؟

لن يكون يتمه سبباً في اضطراب نمو ثقاقى أو وجدانى له ، ولن يكون الفقر معطلا لما أودع فيه من الذكاء الفذ :

إنه فوق كل موازين علم النفس والتربية . فقد كان يتما وفقيراً ، ولكنه كان بشهادة التاريخ الواقعى الطويل كان أعظم رجل فى الوجود كله .

ما كان فى مجتمعه العربى ذا ثروة تحميه عيشاً رغيداً وكان محمد عليه الصلاة والسلام أعلام ذكاء ، وأرهفهم حساً ، وأصدقهم وجدانا ، وأعفهم خاطرا ، وأكيسهم حلماً ، وأعظمهم عقلاً . وكان هو الصادق الأمين حسبنا نخلع عليه المجتمع له هذا الولاء وتلك الثقة .

ولإذن :

فما قيمة كل النظريات النفسية والتربوية فى جانبها البشرى إذا دنت من روضة النبوة التى أحيطت بالعلم اللدنى : (فإنك بأعيننا) ؟

لقد نشأ وهو صغير فى يتم . بعيداً عن أمه ، وبعيداً عن أبيه بعداً لا يمكن له معه فى الحياة لقاء . وغاية ما يمكن أن يقدمه السلوك الاجتماعى فى أى عصر مهما كان المجتمع راقياً وحنوناً لا يعدو أن يكون

محافظا على جسده ليكفل لنفسه في المستقبل لقمة عيش تبقى بها المجتمع ما قد يظن فيه من انحراف لو شب عاطلا محروماً : . : !!

أما أن يعد اليتيم أو يؤهل عن طريق المجتمع ليكون في المستقبل رائد أمة ، أو مصلح جيل ، فذلك ما تبخل به ظروف المجتمع وتشح به كل النفوس فيه ، فإن الرياسة والشرف حوافز تنافس تورث بين الناس أضغاناً ، فإذا ما ذكر يتم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم توارث علوم النفس والتربية والاجتماع .

تتوارى كل القواعد البشرية ، وتتلاشى كل التخصصات الإنسانية البشرية وتنهار كل النظريات الفكرية . فإنها عرجاء في ساحة المدخل الذي يوصل إلى روضة النبي العظيم محمد بن عبد الله فقد أدبه ربه فأحسن تأديبه :

لقد كان يتمه لازماً : فلم يكن رجل واحد من الناس يهيش لإصلاح تنشئة خاصة :

لم يكن رجل المستقبل لحماية تنشئة اجتماعية عربية : أو فارسية أو شرقية أو غربية أو بشرية على الإطلاق : جغرافية أو جنسية أو قومية أو وطنية .

لقد كان رجل المستقبل للعالم كله لتوصيل تنشئة عالمية ربانية بديلة تنشئة البشر ، وهى ذات أصول من عند الله رب الناس ملائكة الناس ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم :

ولإذن فمن يكون له أستاذ ؟

أمه ؟

أبوه ؟

لا . : لن يكونا :

ومن هنا كان اليتيم له تهيئة وإعدادا من أجل انه سيكون للعالمين رسولا .

وتنتقل كفالة محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام إلى جده عبد المطلب وهو شيخ وقور مجرب حكيم . فأعز محمدًا لأنه ولد عبد الله الذي ارتحل عنه وفي شرح صباه : حلوا ، فتيًا ، جذعا . لقد ارتفع الجسد العظيم بحفيده العظيم فوق حدود الفقه الاجتماعي الذي تموج به التقاليد في المجتمع العربي آنذاك . فكان يجلسه على فراشه الخاص به الذي كان يعد له عند الكعبة المشرفة .

وكانت التقاليد لا تسمح بهذا : ولذا كان بعض أعمامه يحاول أن يمنعه من الجلوس فيقول الجدة الحكيمة عبد المطلب « دعوا ابني ، إن له شأنًا » ثم يجلسه على الفراش ، ويمسح ظهره بيده ويسره ما يراه يصنع ^(١) .

(١) السيرة لابن هشام ج ١ ص ١٦٨ الوفا بأحوال المصطفى ج ١ ص ١٢٠
١٣٠ راجع السيرة لابن كثير ج ١ ص ٢٤٠ راجع الخصائص الكبرى ج ١ ص ٢٠١ .

إنه يسره ما يراه يصنع ، ولا يقترح عليه سلوكاً : ولا يلقيه شيئاً من ثقافة القوم ، لم تكن كفالة هذا الجسد العظيم وهو بحفيده ودود رءوف إلا أنه :

١ — يجلسه على فراشه الخاص به :

فيخالف بهذا التصرف التقاليد الاجتماعية . فكأن عمله هذا إرهاباً بأن حفيده سيبعث لقلب نظام التقاليد الاجتماعية .

٢ — ويسره ما يراه من محمد عليه الصلاة والسلام فهو يتقبل أفعاله ، ولا يعرض عليه شيئاً ما من نماذج أفعال المجتمع :

لقد ارتفع عبد المطلب بحفيده وهو في طفولته المبكرة فوق أقطار الثقافة الاجتماعية وتنبأ له بأن له شأناً :

ثم ينتقل عبد المطلب إلى جوار ربه وقد أوصى به عمه أبا طالب خيراً : يقول ابن كثير :

فلما حضرت عبد المطلب الوفاة أوصى أبا طالب بحفظ رسول الله صلى الله عليه وسلم وحياطته^(١) :

ويقول ابن الجوزي :

قالوا : لما حضرت عبد المطلب الوفاة أوصى أبا طالب بحفظ رسول الله صلى الله عليه وسلم وحياطته^(٢) :

(١) السيرة لابن كثير ج ١ ص ٢٤٠ .

(٢) الوفا لابن الجوزي ج ١ ص ١٢٠ .

ولقد كان عبد المطلب يوصى أم أيمن :
يا بركة لا تغفلى عنه ، فإن أهل الكتاب يزعمون أن ابني نبي
هذه الأمة ^(١) .

انتقل محمد عليه الصلاة والسلام إلى عمه أبي طالب وهو له هذه
المنزلة أنه مسيح بدثار البشرية السوية التي عليها تربي الدنيا : فهو على
صلة بالحياة من حواليه لكنه غير مغامس لها كل المغامرة فيحيها
بعواطفه ، وهو غير جاهل بها فيغفل عنها كل الغفلة فيترفع عليها ^(٢) :

لقد كان فيها كما تكون المعادن النفيسة مع ما دونها في علبة واحدة
يتم بينها الاتصال دون تنافر أو تمازج .

يقول الأستاذ محمد جاد المولى :

لم يكن محمد صلى الله عليه وسلم في نشأته جارياً على المألوف في
الصبيان من تأثر عقولهم ونفوسهم بما يرون ويسمعون ويحسون في
بيئتهم ، ولو جرى الأمر على ذلك لشارك — حاشاه — قومه في تعظيم
الأصنام وعبادتها ، ولانغمس عصمه الله في ضلالات الوثنية وأوهامها
ولكن عناية الله قد تكفلت بتربيته فنشأ على أكمل ما تتحلى به النفوس
من جميل الصفات وحميد الحصال ^(٣) .

(١) المرجع السالف والطبقات ج ١ ص ١١٨ .

(٢) راجع هذا المعنى ص ٧٧ وما بعدها الظاهرة القرآنية مالك بن نبي .

(٣) محمد المثل الكامل ص ١٢ راجع الوفا ج ١ ص ١٣٩ .

ولقد قال لبحيرا : لا تسألني باللات والعزى ، فوالله ما أبغضت شيئا قط بغضهما ^(١) .

يقول ابن الجوزي :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في زمن الصبا يبغض الأصنام ولا يلتفت إليها ، وكان أهله يسألونه أن يخرج معهم إلى ناحيتها فلا يفعل ولا يقرب منها ويعيبها ^(٢) .

ويروى الإمام السيوطي :

أخرج ابن سعد وأبو نعيم وابن عساكر من طريق عكرمة عن ابن عباس قال : حدثني أم أيمن قالت : كان بوانه صنما يحضره قریش يوما في السنة وكان أبو طالب يحضره مع قومه ، وكان يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحضر ذلك العيد مع قومه فيأبى ، حتى رأيت أبا طالب غضب عليه ورأيت عماته غضبن عليه يومئذ أشد الغضب ، وجعلن يقلن : إنا نخاف عليك مما تصنع من اجتناب آلهتنا . وجعلن يقلن : يا محمد ما تريد أن تحضر لقومك عيداً ولا تسكث لهم جمعاً ؟ فلم يزالوا به حتى ذهب . فغاب عنهم ما شاء الله ، ثم رجع إلينا مرعوباً فزعاً : فقلن عماته

(١) السيرة لابن هشام ص ١٨٢ .

(٢) الوفا ج ١ ص ١٣٨ .

ما دهاك ؟ قال : إني أنحشئ أن يكون بي لمم ؟ فقلن : ما كان الله ليبتليك بالشیطان وفیک من نحصال الخیر ما فیک ؟ فما الذی رأیت ؟ قال : إني كلما دنوت من صنم منها تمثل لی رجل أبيض طويل یصیح بی :

وراءك یا محمد لا تمسه ، قالت : فما عاد إلى عید لهم حتی نبی^(١) ؟ قال ابن کثیر :

وشب رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أبي طالب یكأؤه الله ویحفظه ویحوطه من أمور الجاهلیة ومعائبها لما یرید من کرامته ، حتی بلغ أن کان رجلاً أفضل قومه مروءة ، وأحسنهم خلقاً ، وأكرمهم مخالطة ، وأحسنهم جواراً وأعظمهم حلاً وأمانة وأصدقهم حديثاً وأبعدهم من الفحش والأذى : حتی سماه قومه الأمین ، لما جمع الله فیهِ من الأمور الصالحة فكان أبو طالب یحفظه ویحوطه وینصره ویعضده حتی مات^(٢) .

هكذا هیأ الله نبیه محمداً صلى الله علیه وسلم ، وكفی فی ذلك قوله تعالى :

(ألم یجدك یتیمًا فآوی ، ووجدك ضالًا فهدی ، ووجدك عائلاً فأغنی) ٦ - ٨ الضحی . :

(١) الخصائص الکبری ج ١ ص ٢٢١ ، ٢٢٢ .

(٢) السیرة لابن کثیر ج ١ ص ٢٤٩ .

وفي هذا يقول قاضي القضاة عبد الجبار الهمداني :
« فتأمل ما في هذا ، فإنه صلى الله عليه وسلم ما عرف العز بالأبوين
كما يعرف من رباه أبواه فإن أباه مات وهو حمل ، وماتت أمه وهو
رضيع فآواه الله أكرم إيواء ، فلما كمل أتاه النبوة : وكان امر
الله مفعولا (١) :

(١) تثبت دلائل النبوة لقاضي القضاة عبد الجبار بن أحمد الهمداني ٤١٥ هـ ،
تحقيق د : عبد الكريم عثمان ج ١ ص ٨٥ ط ٢ دار العربية ببيروت ، راجع شرح عل
القاري للشفاء ص ٢١٠ - ٢١١ ج ١ ط الأزهرية ١٣٢٥ هـ .

رابعاً : رعى الفنم . . . والتدريب السياسى

علم إدارة الأعمال ووظائفها وتدريب القيادة ومستوياتها أخذ في العصر الحديث لوناً خاصاً من الأهمية والانتباه الكبير ، والتفنن « والخلقة » في التدريب من حيث : النظرية والتطبيق وذلك نتيجة الصعوبات التى تواجه الحكومات فى إدارة الأعمال ، ونتيجة كذلك لظروف التخلف الوجدانى عن الصفاء النفسى فى إدراك وحدة الجماعة وأحقية عيشها فى مستوى يصل فيه الحق إلى صاحبه دون معاناة أو وساطة : ونتيجة كذلك للتخلف السياسى فى فهم مدلول السلطة : تلك الخلة التى منى بها الوسط السياسى للدول النامية : ولقد كان من نتائج ذلك كله أن صار كل ميدان يخدم المجتمع أو يلتجئ به المجتمع أو فيه حاجة إلى تخطيط أو رسم سياسة وتدريب : الخ ، كان ذلك كله من أجل أن يسوس الإنسان أخاه الإنسان . وهى فى الواقع قضية غاية فى الصعوبة وغاية فى الدقة ، إذ البشرية تسوس البشرية ، والنفوس الإنسانية تسوسها النفوس الإنسانية والمشاعر تسوس المشاعر ، والحال أن الكل فى حق الحياة سواء : فلماذا هذه تسوس وتلك تسوس ؟ .

ولذا فتمد كانت عملية الإدارة من أهم الوظائف وأصعبها ، ومارالت حتى عصرنا هذا تعاني أزمة في جميع نواحيها مع كمال الإدراك بما تعانيه . إن في مجال التقنين وإن في مجال التطبيق ؟

وعلة ذلك أن ميدان الإدارة يفتقد عنصر الحساسية الاجتماعية كم عاطفة خائفة تدفع إلى الشعور بحتمية توصيل الحقوق إلى أهلها ، أو كم عاطفة خلقية تكثر في النفس الرغبة في حب الخير وإيصاله إلى الناس ومن أوليات هذه العاطفة .

الصبر والرضا واحترام ظروف الغير وتلك العناصر مجالها في الفرصة التي يمنحها الجو الاجتماعي بما فيه من خليقة شريفة وعمل يربى هذه العاطفة وذلك القدر هو في شأن البشرية العادية ؟

أما البشرية السوية بما هيء لها من الجبله والهيولى النورانية فأنها مع براعتها من الاحتياج إلى مثل هذا الجو فقد بزت في سبق غير مدرك جميع أجيال الفن الإداري ؟

لقد كانت الصحراء أجود بيئة ، وخير وسيلة للتمرس القيادي الذي يورث الصبر ، والرضا واحترام ظروف الغير .

في الحياة العادية يضيق الإنسان ذرعاً بفصل في مدرسة أو بمتابعة قسم في مصنع ، وقد ينوء المشرف الاجتماعي بأثقال الشكاوى ولا يجد لها حلا ، وقد يعجز السياسي الداهية : وكثيراً ما تكون الأهواء مطايا الفشل تحت ستار الخلق والتخصص .

فكيف إذا ما أدار العاقل الحيوان وساس البهيمة في صحراء شاسعة حدودها آفاقها البعيدة وأبوابها منافذها المترامية الأطراف ، تشرّد هذه وتجري تلك ، وتتخلف واحدة ، وتسبق أخرى : يتصارعان ، أو يتناطحان ، أو يهرولان ، ليس للنصح قيمة :

ولا للهور عليهن مغزى :

فكيف تكون صفة الصبر التي يتمرس بها راعى الغنم ؟ وكيف يكون رضاه بعمله : وكيف يكون احترامه لظروفه الغير ؟

وفي العادة البشرية قد يضيق الرجل بطفله إن أكثر من البكاء وأزعج ليله :

فكيف بالراعى مع غنمه يجمعها من تشردها ، ويحميها في تحركها ذهاباً وإياباً : في الغدوة والروحة ، عند الشروق ، ومع الغروب : وبدلها على الطريق ويختار لها الكلاً ويحاول أن يقيها شر العوادي : لا يمنعها من خدمتها شرودها أو مروقها أو عصيانها .

بل إنه ليدرك أن الغضب عليها سوء في الرعاية ، والضرر بها ليس من كرم الإدارة .

إنه لها أنيس ، وعليها أمين ، فهو بها رفيق ولها رائد : . هنا تظهر للحق في كل جانب من الحياة حكمة المرسى النبوى برعى الغنم :

لقد رعى كل نبي الغنم ، روى الصحابي الجليل أبو هريرة رضى الله تعالى عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ما بعث الله نبيًّا إلا رعى الغنم ؟

قال له أصحابه : وأنت يا رسول الله؟

قال : وأنا ، رعيتهما لأهل مكة بالقراريط :^(١)

يقول ابن الجوزي :

عن أبي هريرة : عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

ما بعث الله نبيًّا إلا رعى الغنم ، قال أصحابه : وأنت؟ قال : نعم ، كنت أرهاها على قراريط لأهل مكة .

انفرد بإخراجه البخاري^(٢) .

يقول صاحب الروض الأنف :

ولما جعل الله هذا في الأنبياء مقدمة لهم ليكونوا رعاة الخلق ولتكون أهمهم رعاياهم^(٣) .

(١) القراريط : أجزاء من الدراهم أو الدنانير ، وقيل : هى اسم لموضع ، راجع دلائل النبوة لأبي نعيم ج ١ ص ٥٥ ، السيرة الحلبية ج ١ ص ١٥٠ فتح الباري البخاري ج ٥ ص ٣٤٧ الوفا ج ١ ص ١٤٢ هامش .

(٢) الوفا ج ١ ص ١٤٢ ، البخاري باب رعى الغنم على قراريط ، ابن كثير

ج ١ ص ٢٦٥ .

(٣) الروض الأنف ج ١ ص ١١٢ راجع الطبقات الكبرى ج ١ ص ١٢٥

وما بعدها .

قال ابن عقيل : لما كان الراعى يحتاج إلى سعة خلق وانشراح صدر للمدارة وكان الأنبياء معدين لأصلاح الأمم حسن هذا في حقهم :^(١)

لقد كان رعى الغنم مجال تدريب وإعداد للأنبياء على الإدارة وحسن رعاية الأحوال ، وأنه يتمرس في أجود مجالات التدريب وأصدقها صقلاً لتربية عاطفة حب الخير من غير انحراف بالعاطفة الخاصة وأنه كذلك لأجود مجال لاكتساب خبرات أساسية في القيادة : الصبر ، والرضا ، واحترام ظروف الغير :

ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم بتوجيه الله له راعياً للغنم :
ففي البخارى حديث عن أحمد بن محمد المكي عن عمرو بن يحيى عن جده عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
مابعث الله نبياً إلا رعى الغنم ، فقال له أصحابه ، وأنت ؟ ، فقال :
نعم كنت أرهاها على قراريط لأهل مكة^(٢)

لقد كان رعى الغنم في مرحلتين من حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم :
الأولى : وهو صغير في بني سعد :

(١) الوفا ج ١ ص ١٤٢ .

(٢) البخارى ج ٥ ص ٣٤٨ راجع الروض الأنف ج ١ ص ١١٢ ، دلائل

النبوة للبيهقى ج ١ ص ٣٣٦ .

الثانية : وهو شاب في مكة .

والأخيرة هي التي يشير إليها حديث البخاري .

لقد كان رعى الغنم — كما شاءه الله تعالى — واحداً من ألوان
التهيئة التي أعد الله بها نبيه من أجل أن سيكون للعالمين رسولا تشمل
عاطفته الرحيمة : الحيوان^(١) والإنسان ، وكل ذى نفس رطبة ؛
وذلك واحداً من مدلولات صفته العالمية .

(وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) ١٠٧ — الأنبياء .

السوية والعصمة

في ظلال تلك النفحات الرفيعة التي أعد الله بها حبيبه محمدا صلى
الله عليه وسلم يتحدد مفهوم « البشرية السوية » التي تميز بها النبي عليه
الصلاة والسلام .

فقد رأينا أن اليتيم لم يكن له مضياغا على عكس مستوى البشرية
العادية في هذه الحالة :

وما كان رعى الغنم له مهنة بل كان تمرسا وتدريباً على عالمية نشأة
ربانية المصدر سيلغى بها محمد الأمين صلى الله عليه وسلم جميع مفاهيم

(١) ففي الحديث : دخلت امرأة النار في هرة حبستها لا هي أطعمتها ولا تركتها
تأكل من خشاش الأرض ، الفتح الكبير للسيوطي ج ١ ص ١١٠ .

التنشآت الاجتماعية القومية والوطنية والجنسية : الخ ، ليكون
الإنسان في هذه الدنيا عبداً لله وحده :

في تلك الظلال من التهيئة الربانية تتضح للباحثين مدلولات السوية التي خص الله بها نبيه محمداً عليه الصلاة والسلام ، إنها « بشرية النبي » التي خلقه الله عليها وأعدّه بتعليم من لدنه ليكون للعالمين نذيراً .
إنها بشرية مجردة عن القابلية لأي فعل غير مرضى عنه من الله تبارك وتعالى^(١) .

إنها بشرية مهيأة لكل كمال ، وليست محتوية على أدنى عنصر يمكنه أن يستقبل أدنى نوع يتجافى مع الكمال الذي هيئت له البشرية السوية •
يؤازر هذا المعنى ما جاء في البخاري وابن هشام :

« لما بنيت الكعبة ذهب النبي صلى الله عليه وسلم وعباس ينقلان الحجارة فقال عباس للنبي صلى الله عليه وسلم ، اجعل إزارك على

(١) راجع حاشية الشيخ عبد الله الشرقاوي على شرح المدهدي ص ١١١ ط ٤

رقتك يقيك من الحجارة ، فخر إلى الأرض ، وطمحت^(١) عيناه إلى السماء ثم أفاق فقال :

إزارى ، إزارى : . فشده عليه إزاره .^(٢)

السلوك العادى فى مثل هذه الحالة هو كشف العورة . . . ولا ملامة فيها ولا مؤاخنة عليه فذلك هو ما سلكه حاملو الأحجار ، ومعهم العباس . إنه سلوك متفق مع طبيعة البشرية العادية .

أما محمد صلى الله عليه وسلم فإن بشريته من طراز خاص لأنها البشرية المعصومة بشرية النبى . . . وهى بهذا لا يجوز أن تتناول سلوكا عاديا مثلما يفعله أصحاب البشرية العادية .

يقول السهيلي :

إنه لما سقط ضمه العباس إلى نفسه وسأله عن شأنه ، فأخبره أنه نودى من السماء : أن اشدد عليك إزارك يا محمد .

يقول ابن هشام راوياً مثل هذه الحالة :

لقد رأيتنى فى غلمان قريش ننقل الحجارة لبعض مايلعب به

(١) ، (٢) راجع البخارى باب كراهية التعرى فى الصلاة ، فتح البارى لابن حجر ج ٢ ص ٢٠ ، راجع السيرة النبوية لابن هشام ج ١ ص ١٨٣ تحقيق شلبى ، والسقا ، والأبيارى ، راجع السيرة النبوية لابن كثير ج ١ ص ٢٥٠ ، ٢٥١ ، راجع فتح البارى ج ٨ ص ١٤٦ باب بنيان الكعبة ، الحليبة ج ١ ص ١٤٥ . المواهب ج ١ ص ٢٠٥ .

الغلمان ، كلنا قد تعرى وأخذ أزاره فجعل على رقبته يحمل عليه
الحجارة ، فاني لأقبل معهم كذلك واذبر إذ لكمي لاكم ماأراها
لكمة وجيعة ، ثم قال :

شد عليك أزارك قال :

فأخذته وشدته على^(١) :

وفي رواية ابن سعد أول شيء رأى النبي صلى الله عليه وسلم من
النبوة أن قيل له استتر وهو غلام^(٢) .

إن اليم ، ورعى الغنم وستر العورة . . . كلها أنماط من التربية
الالهية التي اختص الله بها سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام .

يقول ابن هشام :

فشب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والله تعالى يكافؤه ويحفظه
ويحوطه من أقدار الجاهلية ، لما يريد به من كرامته ورسالته ، حتى
بلغ أن كان رجلا أفضل قومه مرءة ، وأحسنهم خلقا وأكرمهم حسبا
وأحسنهم جوارا ، وأعظمهم حلما ، وأصدقهم حديثا ، وأعظمهم

(١) السيرة لابن هشام ج ١ ص ١٨٣ دلائل النبوة للبيهقي ج ١ ص ٣١٤ -
اعلام النبوة ص ١٣٥ ، السيرة لابن كثير ج ١ ص ٢٥٢ - ٢٥٣ الحلبي ج ١
ص ١٤٥ .

(٢) الطبقات الكبرى ج ١ ص ١٥٧ ط بيروت .

أمانة : : حتى ما اسمه في قومه الا الأمين لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة^(١) ،

والامام الماوردي يروى في كتابه أعلام النبوة :

روى علي بن أبي طالب رضى الله عنه انه قال : سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : ما هممت بشئ مما كان في الجاهلية يعملون به غير مرتين كل ذلك يحول الله تعالى بيني وبين ما أريد فاني قلت ليلمة لغلّام من قریش كان يرعى معى بأعلى مكة ، لو أبصرت إلى غنمى حتى أدخل مكة فأسمر بها مايسمر الشباب ؟ فقال : أدخل .

فخرجت أريد ذلك . حتى إذا جئت أول دار من دور مكة سمعت عزفا بالدفوف والمزامير فقلت : ما هذا ؟ قالوا : فلان بن فلان تزوج فلانة ابنة فلان فجلست أنظر اليهم فضرب الله على أذنى فنمت ، فما أيقظنى إلا مس الشمس ، قال فوجدت صاحبي ، فقال ما فعلت ؟ فقلت : ما صنعت شيئاً وأخبرته الخبر . قال : ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك ، فقال : افعل ، فخرجت فسمعت حين جئت مكة مثل ما سمعت ودخلت مكة تلك الليلة ، فجلست أنظر فضرب الله على أذنى فوالله ما أيقظنى إلا مس الشمس .

فرجعت إلى صاحبي فأخبرته الخبر .

(١) ابن هشام ج ١ ص ١٨٣ ، السيرة الحلبية ج ١ ص ١١٧ ، السيرة لابن كثير ج ١ ص ٢٥٠ .

ثم ما هممت بعدهما بسوء حتى أكرمني الله برسالته :

يلتق الإمام الماوردي على هذه الرواية فيقول :

« فهذه أحوال عتسمته قبل الرسالة ، وصده عن دنس الجاهلية ، فافتضى أن يكون بعد الرسالة أعظم ^(١) :

إن البشرية السوية هي (بشرية يوحى إلى) إنها عصمة الله لنبيه بما جبله ورباه عليه من رفيع الآداب ، وجليل الأخلاق إنها إحاطة الله تعالى نبيه بكامل الرعاية وسلامة الفطرة منذ تعلق الاختيار الإلهي باصطفائه في الأزل إلى أن يشاء الله له بتأدية الرسالة .

إنها بشرية في إطار ، فلأنك بأعيننا .

قال في شرح الشفاء :

قال أنس رضي الله عنه فيما رواه الشيخان : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم « أحسن الناس خلقاً » فيما ذكره المحققون مجبولاً أي مخلوقاً ومطبوعاً عليها من أصل خلقته أي من ابتداء نشأته الروحية « أول فطرته » أي مخلوقاً مطبوعاً على كرام الأخلاق في أصل خلقته وأول فطرته التي فطره الله عليها أي من غير تكاف ولا تعلم ، لم تحصل باكتساب ولا رياضة إلا بجود إلهي وخصوصية ربانية ^(٢) ١ . ه .

(١) اعلام النبوة ص ١٣٥ مطبعة شركة التمدن الصناعية الجليلة ج ١ ص ١٤٥ ١٤٦ .

(٢) راجع شرح الشفاء نسيم الرياض ج ١ ص ٤٨٢ يلاحظ أن هذه الصفحة

مرقمة خطأ برقم ٤١٠ وقد ابتدا الترقيم خطأ من ص ٤٨٠ .

ويقول في موضع آخر :

وهذه — أى الخصال الممدوحة — كانت حاله — وفى نسخة خلقه صلى الله عليه وسلم — أيضا — قبل أن يبعث — لما خلقت هذه السمائل وطبعت هذه الفضائل فى أصل فطرته ومادة خلقته قبل بعثته بل قبل حصول ولادته كما ورد « كنت نبيًا وآدم بين الروح والجسد »^(١) .

وهنا ندرك مرة أخرى معنى « بشر » فى قوله تعالى :

(قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى) .

إنه بشر سيكون نبيًا له خبرة بحدود النفس البشرية ولديه إدراك كامل بأقطارها ، وعنده معرفة واضحة بكل مطالبها .
ولكنه ليس من مستواها ، كما أنه ليس ملكا .

فلذا ما شرع كان أعلم مشرع .

ولذا ما حكم كان أعدل حاكم .

ولذا ما قضى كان الأحوط علما بفقه الأمور وعواقبها :

ولذا ما استشير أو أشار فنعمت المشورة وعظمت الشورى عن درية وإحاطة وكشف .

(١) ص ٣٧ ج ٢ المرجع السالف شرح على القارى على الشفاء ج ٤ ص ٤٧ .

ليس ملكاً بعيداً عن البشرية فيحمل الناس على طبعه وخصائصه
والملائكية نور لا شهوة فيه :

وليس ببشرى عادى يغامس الحياة كما يغامسها الناس فتتحكم فيه
الشهوة وتتغلب عليه العصبية ، وتجبره مواريث المجتمع على نوع خاص
من السلوك .

إنه ليس ملكاً ، وليس من البشر العام ولكنه بشر يوحى إليه .
سوى معصوم .

(وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك) .

٨٦ — القصص :

إنها بشرية هو ، فهي له خاصة .

وهو نبي الله بها :

فلو لم يكن هو ما كانت :

ولو كانت هي ما تكون إلا له :

قال العارف بالله أبو الحسن الشاذلى : فإن قلت بشر قلت : نعم
لا كالبشر كما تقول : الياقوت حجر لا كالحجر .^(١)

وكفى انه وحده الذى قيل له :

وإنك لعلى خلق عظيم . . .

(١) أبو الحسن الشاذلى ص ١٢٧ ط أملا م العرب .

خامسا : الوجدان الاجتماعى

١ - العمل والعمال :

كثير من التخطيط الذى ترسمه اللجنة المكلفة بخاف مكتبها
الفاخر . . . : ما يصيبه الفشل . . . ويعاد من جديد فيصيبه العطب
والفشل .

وكم من اخصائى اجتماعى مؤهل فى المبادئ العالية لفن الخدمة
الاجتماعية يتدرب فى حقول العمل الاجتماعى : ثم اصابه الركود
والتخلى عندما برز إلى العمل .

ذلك : لأن التخطيط للعمل ليست طبيعته مقعدا خاف مكتب
فخم ولا تصنع فكر مثالى . خاصة فى مجال يتصل بتحريك المجتمع ،
وإنما طبيعته مزاوله مرغوب فيها تولد حساسية ووجدانا يجد لذة
فى التعرف على قضايا المجتمع وفى السعى الحثيث لإيجاد حلول لها .
حلولا تتفق مع القيم الأصلية فى المجتمع وتنفذ بالإقناع والحجة
والمشورة ، والرضا لا بالعنف والثورة والجبروت .

فالحركة العمالية — فى العصر الحديث — قامت على أشلاء الأبرياء ،
وسحل الضحايا ، وإسالة بحور من الدماء لأن قيمة الفكر فيها لم تصل
إلى حالة الوجدان الاجتماعى الذى ينبغى أن يتحلى به المصالح ، وذلك

لأنها حركة عدائية لقيم الانسان فهان عليها ، ففعلت به أحقر ألوان التعذيب لأنها رضيت لنفسها احقر الشعارات والأسماء لعجزها عن ادراك المثل والقيم الرفيعة ^(١) .

انها حالة عصبية تضاف في قسوتها الانسانية إلى فشل المخططين والاختصاصيين الاجتماعيين الذين وصلوا في العمل الاجتماعي إلى الحد المهني الوظيفي ولم يبلغوا بعد التأهيل والتدريب إلى مستوى الحساسية الاجتماعية التي تذوقهم حلاوة خدمة العمل من أجل العدالة الاجتماعية للمحتاجين .

تلك حالة العصر الحديث في :

١ - التخطيط :

٢ - والقيادة الاجتماعية .

٣ - والحركة العمالية الخارجية بسلوكها على قيم الانسانية .

هذه الحالات كانت وليدة فكر البشر العادي الذي لا يملك من المعرفة أكثر من معلومات كلية . . . أو اصطناع نظرية عندية يزينها له الشيطان :

(١) في العصري كلمة (Connor Pape) (تساوى الحقيير وهي نصف الاسم الذي يطلق على حركة التقدم العالمية ص ١٤٨ .

وفي القاموس الأندونيسي الانجليزي كلمة (Morba) (تساوى الحقيير ص ٢٣٩ وهي كذلك اسم الحزب الشيوعي المجهد حالياً في اندونيسيا .

وذلك ليس مؤهلا للقيادة والاصلاح ولا مورثا لصفة الزعامة
للاصلاح الاجتماعى تلك التى تتوقف أول ما تتوقف على حجم
الادراك الوجدانى المستعد لبذل أقصى الجهد لخدمة الناس .

انما الأهلية أساسها ممارسة بالفعل ، وشهرة فى العمل ، وصدق فى
تأدية الأمانة حتى يجتمع له عند الناس صفة أنه الأمين الرفيق الصدوق .
ومجال الممارسة التى تؤدى إلى هذا : صلة العامل بصاحب العمل .

يستثمر فيها العامل قدراته ، ويتعرف على حقوقه الواجبة له على
صاحب المال ، ويقدم ماعليه من حقوق لصاحب العمل ، فيحصل
لديه معرفة بحال الطرفين :

١ — حقوق العامل الواجبة له نظير انتاجه .

٢ — حقوق صاحب العمل الواجبة له ، ليؤدى رأس ماله وظيفته
فى المجتمع .

وتثبت فى هذه الممارسة :

١ — حسن ادارته للمال مع كمال الصدق والأمانة .

٢ — حسن معرفته بحال العامل وصاحب العمل :

فاذا ما شرع أو تصدى للاصلاح كانت التجربة شاهدا ، والثقة
مؤكددة ، والاصلاح مأمولا :

وهذا هو ماهياً الله به حبيبته محمدا صلى الله عليه وسلم فقد ملأت
سيرة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم حياة العرب عطر شديدا بخلقه
الرفيع وأمانته العفيفة وصدقه اليتيم ، وحسن معاشرته ، وجود فكره
وشرف إنسانيته ونبل مقصده ، ورباحة عقله ونورانية فؤاده ،
وكانت خديجة رضى الله عنها صاحبة مال وتجارة وهى سيدة ذات
شرف ، وحسن نسب وذات بال ، وحسب يجلها المجتمع العربى
أجمع ، ويقدرها الناس فى مكة كافة .

من خلال العبير المتطاير وصلت اليها نفحة من شذا العبق ، فتمنت
أن توليه إدارة تجارتها فعرضت عليه ذلك . . يقول ابن هشام :

فلما بلغها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بلغها من صدق
حديثه وعظم أمانته ، وكرم اخلاقه بعثت اليه فعرضت عليه أن
يخرج فى مال لها إلى الشام تاجرا ، وتعطيه أفضل ما كانت تعطى
غيره من التجار مع غلام لها يقال له ميسرة ، فقبله رسول الله صلى
الله عليه وسلم منها وخرج فى مالها ذلك ^(١) .

وعلى الرحل الميمون سافر محمد الأمين يعمل فى تجارة خديجة
صاحبة رأس المال بوجدانه الاجتماعى الرفيع ، وهو وفى لفن التجارة
بالحق والعدل لا بالغش والخداع من أجل الربح المزيف .

(١) السيرة لابن هشام ج ١ ص ١٨٨ الحلبية ج ١ ص ١٥٧ ، ١٥٨ .

وهو كذلك حريص على تنمية المال بالحق والعدل لا بالظلم والغبن
من أجل الزيادة في الأجر :

وهو كذلك رعوف رفيق بمعاونة « ميسرة » بالحق والعدل لا بالسيطرة
والجأه لأنه حر وذاك رقيق .

وفي خلال الحل والترحال ، والسفر والاياب ، والبيع والشراء ،
شاهد ميسرة من صاحبه جديدا في المشاعر وجديدا في المعاملات . .
وجديدا في العلاقات وجديدا في الأخلاق لم يألفه من قبل مع الذين
سبق أن استعملتهم خديجة . فلما عاد بشر سيده بما رأى ، وشاهد
وأحس وأدرك .

والذى رآه ، وشاهده ، وأحس به ، وأدركه هو : عامل
ذو وجدان اجتماعى طيب الخلق رفيع الشئال ، مبارك التهوال ، كريم
النفس سخى المشاعر ، صادق الود ، رفيقا بالصدق مجودا أصول
الفن التجارى ، سمحا فى البيع أمينا فى الشراء رعوفا بالمتعاملين . . .
الخ ، فحرك ذلك التقرير فى نفس خديجة كصاحبة مال أن تتمكن
هذا العامل من رأس مالها بتفويض مطلق يعمل فيه لينمو بالبركة
والأمانة ، ويزداد بالخبرة والفن ، ويربو بالحلال الطيب ، ويعم
نفسه بأداء وظيفته فى تحقيق رفاهية مكة : وكان الطريق إلى ذلك
فى نظر خديجة أن تخطبه هى إلى نفسها زوجا كريما .

تلك المشاهد التاريخية والنبي صلى الله عليه وسلم في منتصف العقد الثالث من عمره الشريف ، فيقبل خطبة خديجة : ويتزوجها ، فتنتقل منزلته في المال من عامل أمين بأجر إلى وكيل أمين متصرف :

ذلك القدر من الاعداد لرسالة العالمية مفهومة أن التخطيط والعمل مع الجماعة أساسه الحساسية الاجتماعية ، والوجدان الاجتماعي الذي تربيته الممارسة بالرغبة وتشهد به العادات :

ليست القيادة مجموعات نظرية يدرب عليها نفر من أجل أن سيكون موظفا كلا . . انها لن تكون كذلك :

إنما هي تقوم على أساس من :

١ — الخلق الفطري والرغبة الوجدانية :

٢ — الوجدان والحساسية الاجتماعية التي ترغب أن تعطى كثيرا للمجتمع وتنازل عن كثير من أجل المجتمع ، ومنبع ذلك إنما هو الدين فقط الذي يعطى لكل واحد حقه دون نظر إلى تفاوت بالعلم أو بالمال أو بالجاه . . ويجعل الرقابة العليا على السلوك الانساني :

(اعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فإنه يراك) :

انها تورث الحساسية والوجدان الاجتماعى وفى الحديث :

(لا يؤمن احدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)^(١) .

أين المتحابون فى اليوم أظاهم بظلى يوم لا ظل الا ظلى^(٢) .

وفى القرآن الكريم أساس متين لها :

(من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة ،

والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون) . ٢٤٥ — البقرة .

لذلك كانت مرحلة العمل مع السيدة خديجة واحدة من عوامل
التهيئة للرسالة ليحمل له التاريخ وحده أنه أصدق مشرع يربط العامل
بصاحب العمل ارتباطا انسانيا يعطى العامل للعمل حقوقه وواجباته ،
ويأخذ من صاحب المال حقوقه كلها بما يكفى حاجته بالعدل والقسطاس
لا يعتدى صاحب حق بحقه على الآخر لأنه يملك جمهرة تعبث
فسادا إن أرادت ولا لأنه يملك جها فيطغى أن رآه قد استغنى :

ويكون التشريع مؤسسا على التجربة والمعرفة بأطراف القضايا يصور

ذلك حديث الرسول صلى الله عليه وسلم :

(أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه)^(٣) .

(١) البخارى : باب من الايمان أن يحب لأخيه ص ٦٣ ج ١ فتح البارى .

(٢) مسلم ج ٤ ص ١٩٨٨ .

(٣) الجامع الصغير للسيوطى ج ١ ص ٣٨ .

٢ - الأسرة :

كذلك من مظاهر ذلك الوجدان الاجتماعى الذى يفيض بالحنان على البشرية بالطبع والإعداد الربانى ، عطفه صلى الله عليه وسلم على الأسرة وإدراكه الواجب نحوها دون ماسؤال أو طلب . . : يروى ابن هشام :

أن قريشا أصابتهم أزمة شديدة ، وقد كان أبوطالب ذا عيال كثير ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للعباس عمه ، وكان من أيسر بنى هاشم ، ياعباس إن أخاك أبا طالب كثير العيال ، وقد أصاب الناس ماترى من هذه الأزمة ، فانطلق بنا إليه ، فلتخفف عنه من عياله ، آخذ من بنيه رجلا ، وتأخذ أنت رجلا ، فنكلهما عنه ؟ . فقال العباس : نعم ، فانطلقا حتى أتيا أبا طالب ، فقالا له : إنا نريد أن نخفف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه ، فقال لهما أبوطالب إذا تركتما لى « عقيلا » فاصنعا ما شئتما .

فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم « عليا » فضمه إليه وأخذ العباس « جعفرا » فضمه إليه فلم يزل عليا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بعثه الله تبارك وتعالى نبيا فاتبعه على رضى الله عنه وآمن به . (١)

هذا التصرف قبل البعثة قائم على أساس الوجدان الاجتماعى الذى هيا الله به حبيبه محمدا صلى الله عليه وسلم . فرأى أن وظيفة المال فى

(١) السيرة لابن هشام ج ١ ص ٢٤٦ السيرة لابن كثير ج ١ ص ٤٢٩ ،

المجتمع يجب أن تؤدي في تخفيف ويلات الفقر والعوز والأقدر دائماً عليه رعاية الأضعف دون ما مسألة منه أو امتنان عليه .

ولقد حمل ذلك الوجدان الاجتماعي الرفيع هذه الدعوة إلى العباس لينشر الخير ، ويدعو إلى التراحم والبر ثم انصرفا معا عندما استجاب العباس لنداء صاحب الوجدان الاجتماعي الرفيع محمد بن عبد الله رحمة الله للعالمين .

وكان على في حضن محمد عليه الصلاة والسلام محل الحنان والمودة والعيش الراقى خلقاً وتأديباً ، وحناناً :

يقول في ذلك شيخنا العارف بالله الدكتور عبد الحلیم محمود :
نشأ على مع رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ نعومة أظافره
فتفتحت عيناه - طفلاً - على أكرم مثل للقدوة الحسنة ، ممثلة في
الرسول عليه الصلاة والسلام ، وتفتحت عيناه على أكرم مثل للود
المتبادل بين الزوجين الطاهرين ، والحنان الذي يملأ البيت الكريم ،
والرحمة التي تفيض من قلب « محمد وخديجة » فيكون من أثرها :

حمل الكل :

وصلة الرحم .

وقرى الضعيف :

والإعانة على نوائب الدهر :

فترك ذلك في نفسه أكرم الأثر (١) .

لقد كان هذا السلوك فيضاً من ينابيع التربية الربانية التي هيأه الله تعالى بها لتكون الذاتية النبوية في محمد عليه الصلاة والسلام مدد كل خير ومعروف بالطبع والحبلة اللذين صنعهما الله فيه ليكون للعالمين رسولاً .

٣ - العدل الاجتماعي :

تركت حرب الفجار آثاراً سيئة في المجتمع العربي القديم ، انقطعت بها الصلات الاجتماعية ، وتأثرت بها حوافز النجدة مما جعل العاص ابن وائل يماطل في دفع حق رجل من زبيد (باليمن) ، فجعل الرجل يستجير ، حتى أجاره الزبير بن عبد المطلب بعد أن دعا إلى حلف الفضول ليعيد به الشكيمة العربية والنجدة الأصلية التي تأثرت بنتائج حرب الفجار .

لقد كانت مهمة حلف الفضول توصيل حق الضعيف إليه دون بخس أو إياس من الوصول إليه . . ولو كانت وسيلة ذلك الحرب : فإن درء المظالم دون مقابل كان ميثاق هذا الحلف تجديداً لخليقة العربية القديمة التي تتمركز في مثل هذا التجمع لتصون مقوماتها الأخلاقية وتنشر الخير والعدل في ربوع الديار (٢) .

(١) التفكير الفلسفي في الإسلام ص ١٦٧ .

(٢) راجع في هذا الموضوع « بحث . المرحلة التمهيدية للدعوة الإسلامية »

ص ٨٦ - ٩٣ راجع كذلك : السيرة لابن هشام ج ١ ص ١٣٣ .

وفي هذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم له النور والبركة ،
والهداية ولقد قال صلى الله عليه وسلم في شأنه :

لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلف ما أحب أن لي به
حجر النعم ولو أدعى به في الإسلام لأجبت :

ففي الحديث النبوي الشريف تصوير لمشاعر النبي الكريم وتقديره
صلى الله عليه وسلم لهذا الحلف الذي تحمل في القرون الوسطى مسئولية
العدل والأمان :

لم يكن محمد صلى الله عليه وسلم واحداً من الناس يوم أن استجاب
إلى هذا الحلف ، بل كان عملاً واستجابة من رجل متكامل صفات
العمل الاجتماعي والدعوة إلى رفيع سبل النهضة والمعروف . فقد
استمرت ذكريات هذا الحلف له أملاً فيما بعد الرسالة . بينما الذين
أسهموا فيه ماذكروه بعد ولو ذكروه لكانوا في حلف النبوة ينشرون
العدل بوحى أمين من عند الله .

لقد كان اشتراك النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحلف من عمليات
التهيئة والتوعية ليفهم فيما بعد أن قواعد العمل الاجتماعي المبينة على
الوجدان الاجتماعي المرهف والتجربة الهادفة الناجحة إنما يكون من
هذا النبي العظيم :

وفي ظلال هذا المعنى ينشرح الصدر بمفهوم هذه الآية السكرية :
(ولا تمنن تستكثر) . .

إن دعوتك إلى الحق والخير والعدل يجب أن تقوم على أساس من
التطوع والحسبة لوجه الله الكريم دون مقابل . . بل دون تفكير في
شيء من عرض الدنيا فقد كفيت أمرها .

إنها رسالة لا وظيفة لأكل العيش ولا لمنصب رفيع أو سامق في
الحياة الدنيا ، إنها رسالتك التي ربيت لها وهيت من أجلها فاصبر
إن أداءها يحتاج في توصيلها وهي في جوهرها الأصيل إلى الصبر .
وإني لأشهد أنه أداها كما أمر ، وصبر كيفما شاء الله له أن يحقق
بصبره خبراً عميقاً .

٤ - الشذى العطر وضوء الفجر الأمين

تلك الشمائل العليا ، والفضائل السوية التي وهبها الله جل شأنه لنبيه
محمد صلى الله عليه وسلم في حياته الإنسانية قبل البعثة عبق بها الوجود
الإنساني فسرت روائح شذاها في كل أرجاء المجتمع العربي القديم ،
حتى انفرد محمد صلى الله عليه وسلم وحده بلقب الأمين .

لم يكن لقب : الأمين ، وساما ذا درجات . . ولم يكن « بروتوكولا »
عاماً . أعطى غير محمد قبله أو بعده هذا اللقب .

ولكنه كان شهادة فذة يتيمة . وكان إحساساً اجتماعياً عاماً
بأن الشخصية المحمدية جديدة . جديدة في عالم الخلق ، وفي عالم
الإنسانية ، لم يتعرف — المجتمع على ند لها في السر أو العلانية .

لقد كانت جديدة في بشريتها السوية .
وكانت عليا في سموها الأخلاقي .
وكانت سابقة في ودها الاجتماعي :

حتى انجذبت إليها النفوس في استقطاب كلي ، ولقد انجذبت الناس
إليها : إلى شخصية محمد صلى الله عليه وسلم ، ليستودعوا أماناتهم في
عرين الأمان ويحفظوا أسرارهم في طيات من السر .

ولقد أحسوا بالراحة النفسية في كنفه ، وبلذة الحياة في صحبته ،
وأدركوا العزة في صداقته ، وأحبوا فيه صدقه ، وعشقوا فيه أمانته..
فلم يلبث المجتمع أن خلع عليه كل مايستطيع أن يعبر به عن هذه الحبة .
فلهجوا بالثناء عليه واختاروا له لقباً هو فيه أكمل وأفرد... إنه الأمين :

يقول ابن هشام :

وكانت قريش تسمى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن ينزل
عليه الوحي : — الأمين^(١) ويقول فضيلة الشيخ الحضري بك رحمه
الله تعالى :

فسموه الأمين ، لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة الحميدة ،
والفعال السديدة من الحلم والصبر والشكر والعدل ، والتواضع
والعفة ، والجلود والشجاعة والحياة حتى شهد له بذلك ألد أعدائه^(٢) .

(١) السيرة لابن هشام ج ١ ص ١٩٨ . (٢) نور اليقين ص ١٦ ، ١٧ .

هذا رأى العام حول (محمد) هو نوع فرد في أبواب التاريخ
فما تشرف التاريخ قط بتدوين رأى عام نحو واحد من الزعماء أو
قادة الإصلاح عامة إلا بمحمد النبي الأمي الخاتم .. فكان وساماً فريداً
وحيداً يسجله التاريخ في أرفع مكانة وحده دون توأم له أو شبيهه .

إن لقب الأمين لم يكن وصفاً عابراً ، ولا كلمة مجاملة ولكنه كان
خلقاً عند القوم أخذوا به وارتضوه حكماً وقاضياً يوم أن أعلنت السنة
الحرب والدمار حين أعاد الناس بناء قواعد البيت الحرام واختلفوا
في وضع الحجر الأسود لمن يكون شرف حمله ووضع في البناء ؟

أما بنود عبد الدار وشيعتهم من بنى نعدى بن كعب بن لؤى فقد
أدخلوا إيمانهم في جففته من الدم وهم يتقسمون :
« ألا ينال هذا الشرف العظيم أحد سوانهم » .

فلما رأى أبو أمية بن المغيرة المخزومي ماصارت إليه الحال من سوء
وتوتر ونزاع يكاد يكون حرباً دماراً قال للناس : وكان الأكبر سناً
والأطوع استجابة :

« إجعلوا الحكم فيكم أول من يدخل من هذا الباب » .

فلما دخل محمد الأمين عليه الصلاة والسلام قالوا :

هذا الأمين رضيينا به هذا محمد .^(١)

(١) راجع ابن هشام ج ١ ص ١٩٦ ، ١٩٧

يروى أبو نعيم في دلائل النبوة :

عن هلال بن خباب عن مجاهد قال :

حدثني مولاى عبد الله بن السائب قال :

كنت فيمن بنى البيت وأخذت حيجراً فسويته ووضعته إلى جانب البيت وإن قریشاً قد اختلفوا فى الحجر حيث أرادوا وضعه حتى كاد أن يكون بينهم قتال بالسيوف .

فقال اجعلوا بينكم أول رجل يدخل من الباب ^(١) فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا يسمونه فى الجاهلية : الأمين ، فقالوا قد دخل الأمين فقالوا : يا محمد ، قد رضينا بك .

فدعا بثوب فبسطه ثم وضع الحجر فيه ، ثم قال لهذا البطن ، ولهذا البطن . . . لجميع البطون من قریش ليأخذ كل رجل من كل بطن منكم ناحية من الثوب ، فرفعوه . . . فأخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم — فوضعه .

يقول الامام الماوردى تعليقا على هذا :

كان ذلك تأسيساً لما يريد الله تعالى من كرامته وتوطئة لقبول ما تحمله من رسالته والله أعلم بمغيب ما استأثر من علمه .

(١) يعلق فضيلة الدكتور محمد بن محمد أبو شهبة على هذا فيقول : هو باب بنى شيبة وهو يعرف اليوم باب السلام ص ٢٣٤ السيرة النبوية فى ضوء القرآن والسنة .

(٢) اعلام النبوة للماوردى ص ١٣٧ .

يقول شيخنا العارف بالله الدكتور عبد الحليم محمود :
« إن عناية الله رافقته ، ولا حظته ، ووجهته فكان خيرا زكيا ،
وكان أمة واحدة وسط هذا الضلال الديني » .

ومن أجل ذلك سماه قومه : الأمين .

لقد كان أميناً على نفسه ، فلم يسلمها إلى مهاوى الشرك أو الشهوة
أو الرجز ، وكان أميناً على الحديث إذا تحدث فلا كذب ولا مغالاة
وكان أميناً على الأسرار فلم يفشها ، ولم يذعها . إنه الأمين أجمع
عليها القرشيون . وقالوها حينما اختلفوا في رفع الحجر الأسود ،
 ووضعها في الكعبة ، وأوشكت الحرب أن تقع بينهم استقر رأيهم
على الاحتكام لأول داخل عليهم ، فغمرتهم الفرحة حينما رأوا محمداً
وصاحوا . . . إنه : الأمين ، رضينا . . . إنه محمد (١) .

بهذه الفرحة العارمة ينفعل المجتمع . لقد خرج من أزمة عسكرية
حادة كانت ستأتي على كل شيء وتدمر ما صادفت .
وتشهد هذه التجربة أن المجتمع العربي القديم قد : أعطى محمداً لقباً
يتبنا لأنه وحده الأحق به ، فما تحلى بشمائله أحد سواه .

(١) الرسول صلى الله عليه وسلم — سلسلة البحوث الإسلامية ص ٦٧ ، ٦٨ .

وقد ارتضاه "حكما في قضية من أخطر قضايا الشرف والرياسة عنده
بلغ التعصب لها مبلغ القسم والأيدى في الدماء : إما أن ينالوا هذا
الشرف أو تراق الدماء : ؟ كلها .

فلما دخل محمد هدأت العاصفة ، وركدت الدماء الثائرة : ورأوا
الخلاص والعدل ، وصاحوا . هذا محمد . هذا الأمين . رضينا بك :
وؤكدات تاريخية وإرهاصات منبهة ، أن الخلاص من الحرج والمأزق ،
والأزمات ليس له من سبيل إلى حل غير هذا الأمين .

لقد أقر المجتمع العربي أن العدل فقط هو فيما يراه محمد أنه إذا
حكم كانت الألفة والوحدة والسلام والتضامن وكان الخير والبركة
واليمن والأنس .

وأقر المجتمع أن الفضل فقط فيما يدعو إليه محمد وهو يومها في
منتصف العقد الرابع من حياته قبل أن يكون نبيًا فثبت في ذمة المجتمع
أنه عاش يوم الخلاص من حرب مدمرة بفضل حكومة محمد ،
وأن سيرته العطرة في شبابه توجت بتاج من الثناء خاص به : الأمين ..
وأنه وحده على المستوى السامي في وجدانه الاجتماعي وعمله القيادي .

لقد التزم بهذا المجتمع العربي فيما قبل البعثة ، وأقر به وبعثه من
وجهائهم — أبوسفیان بن حرب — في حديث له مع هرقل عندما سأله :
هل كنتم تهمونه بالكذب قبل أن يقول هذا القول ؟

فيجيب أبوسفیان : لا :

وفي ختام المناقشة يقول هرقل :

ما كان ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله (١) .

وإذن فقد اقتربت الحياتان :

الحياة البشرية السوية في محمد ، والحياة البشرية العادية في المجتمع .
اقتربت من لقاء .

لقاء : للسوى فيه القيادة :

وللعادى فيه التبعية :

وكان هذا اللقاء بعيداً عن عنصر المفاجأة كذلك لم يكن دون توعية
بل كان مسبوقاً بعدد من البشارات والإرهاصات .

لقد كان حظاً من البشارات والإرهاصات والإعداد لم يتوفر من
قبل لواحد من البشر مثلاً كان لمحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .
فما حمل التاريخ ولن يحمل أبداً من بعده لواحد من الناس مثل
هذه الثقة المطلقة التي أقر بها المجتمع العربي الجاهلي لمحمد بن عبد الله
رسول الله الخاتم :

وما شهد التاريخ قط أن غير محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم
يقبل الناس حكمة بالاجماع والرضا والقبول والفرحة في معضلة

(١) البخارى باب بدء الوحي .

من كبرى المضلات التي تكبد الأمن وتفسد المناخ المعيشي إلى درجة تبعث على سفك الدماء : وكان محمد هو الخلاص والفرح ، لقد كان لقاء بين النبي الخاتم والمجتمع الإنساني كله لقاء فريداً في توعيته وفي مستواه :

إنه لقاء يتيم في عالم الاصلاح والفكر سبقته توعية شاءها الله جل شأنه وكان لذلك فيما بعد البعث آثار من بركة النبي العاقب . عليه أفضل الصلاة والسلام :

الباب الثاني

الفصل الأول : الى الوحي - التحدث وطريقه ..

الفصل الثاني : في التطبيق التاريخي ..

الفصل الأول الى الوحي — التحدث وطريقه

كان محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم في حياته كلها خاصة قبل البعثة يعيش في كنف الله عز وجل .

لقد كانت العناية الإلهية تربيته لمستقبل العالم الإنساني كله ، فكان ربانيا في كل حركة يتحركها ، وتلك هي السوية التي نصطلح عليها في هذه الدراسة كميزة خاصة لمسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وتدل عليها مجريات الأمور في حياته الخاصة فيما قبل البعثة^(١) .

بهذه السوية كانت دلائل النبوة تقترب ، حتى تكلم الحجر ، وجل شأن الله في ما يكوته إذ يدبره مع أصفياه كيفما شاء ولقد وسع كرسيه السموات والأرض ، ففي مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة ، حدثنا يحيى ابن أبي بكير عن إبراهيم بن طهمان حدثني سماك بن حرب بن سمره قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم على قبل أن أبعث ، إني لأعرفه الآن^(٢) .

(١) راجع مقدمة ابن خلدون ج ١ ص ٣٤٥ - ٣٤٦ .

(٢) مسلم كتاب الفضائل : باب فضل نسب النبي صلى الله عليه وسلم رقم ٢٢٧٧ تخريج الأستاذ المرحوم محمد فؤاد عبد الباقي راجع شرح المواهب اللدنية للزرقاني ج ٥ ص ١٢٢ ط أولي ١٣٢٦ هـ . المطبعة الأزهرية .

كان الحجر يسلم على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل البعثة ، وما زال الحجر معروفا بعد البعثة للنبي صلى الله عليه وسلم .

وصيغة ألفاظ الحديث فيها مؤكدات عدة « إن » والنص على « مكة » و التعبير « بكان » ، « وقبل أن أبعث » ، ثم التوكيد « بأن » مرة أخرى والنص على معرفته « الآن » بعد البعثة الثريفة مما يوضح للباحث أن الله جل شأنه أكل للنبي صلى الله عليه وسلم بعد تربيته وإعداده للرسالة الجوى النفسى ، وقرب إليه يوم الوحي بدلائل خاصة ، كان منها تسامى الحجر ، تم كان منها الرؤيا الصالحة فى النوم ، فى البخارى :

حدثنا يحيى بن بكير قال : حدثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت :

أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة فى النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حجب إليه الحلاء وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه — وهو التعبد — الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء فجماعه الملك :

فقال : اقرأ .

قال : ما أنا بقارئ :

قال : فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني :
فقال : اقرأ .

قلت : ما أنا بقارئ :

فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني .
فقال : اقرأ :

فقلت : ما أنا بقارئ ، فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني :

فقال : اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خالق الإنسان من علق ،
اقرأ وربك الأكرم .

فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده ، فدخل
على خديجة بنت خويلد رضى الله عنها ، فقال : زمّلوني ، زمّلوني ،
فزمّلوه حتى ذهب عنه الروع :

فقال لخديجة وأخبرها الخبر : لقد خشيت على نفسي .

فقالت خديجة : كلا ، والله لا يخزيك الله أبدا إنك لتصل الرحم
وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضعيف ، وتعين على
نوائب الحق .

فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى
ابن عم خديجة ، وكان امرأ تنصر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب

العبرانى فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخا كبير قد عمى فقالت له خديجة : يا ابن عم اسمع من ابن أخيك ؟ فقال له ورقة : يا ابن أخى ماذا ترى ؟

فأنخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى .

فقال له ورقة : هذا الناموس الذى نزل الله على موسى يا ليتنى فيها جذعا ، ليتنى أكون حيا إذ يخرجك قومك ؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أو مخرجى هم ؟

قال : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى ، وأن يدركنى يومك أنصرك نصرًا مؤزرا ، ثم لم يلبث ورقة أن توفي وفتر الوحي :

قال ابن شهاب : وأنخبرنى أبو سلمة بن عبد الرحمن أن جابر بن عبد الله الأنصارى قال — وهو يحدث عن فترة الوحي — فقال فى حديثه : بينما أنا أمشى إذ سمعت صوتا من السماء فرفعت بصرى فاذا الملك الذى بجاءنى يجلس على كرسى بين السماء والأرض فرعبت منه فرجعت فقلت : زماونى ، فأنزل الله تعالى (يأيها المدثر قم فأأنذر) إلى قوله (والرجز فاهجر) فحمى الوحي وتتابع^(١) .

(١) البخارى بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال ابن حجر : بدئ بذلك ليكون تمهيدا وتوطئة لليقظة ، ثم مهد له في اليقظة أيضاً رؤية الضوء وسماع الصوت وسلام الحجر^(١) .

قال صاحب السيرة الحلبية : وجاء عن عمر بن شرحبيل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لحديجة :

إذا خلوت سمعت نداء ، أن يا محمد ، يا محمد :

وفي رواية : أرى نورا ، أى يقظة لا مناما ، وأسمع صوتاً وقد خشيت أن يكون والله لهذا أمر .

فترد عليه حديثه : كلا يا ابن عمي ما كان الله ليفعل ذلك بك فوالله إنك لتؤدى الأمانة وتصل الرحم ، وتصدق الحديث .

استدللت رضى الله تعالى عنها بما فيه من الصفات العلية والأخلاق السنية على أنه لا يفعل به إلا خيراً لأن من كان كذلك لا يجزى إلا خيراً^(١) .

يقول ابن هشام :

قال ابن اسحق : وحدثني عبد الملك بن عبيد الله بن أبي سفيان ابن العلاء بن جارية الثقفي — وكان واعية — عن أهل العلم :

« إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أراده الله بكرامته ، وابتدأه بالنبوة كان إذا خرج لحاجته أبعد حتى تحسر عنه البيوت ويفضي

(١) فتح الباري ج ١ ص ٢٥ ، راجع شرح المواهب اللدنية للزرقاني ج ١

(٢) الحاشية ج ١ ص ٢٧٠ .

ص ٢١٩ و ج ٥ ص ١٢٢ .

إلى شعاب مكة وبطون أوديتها ، فلا يمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بحجر ولا شجر إلا قال : السلام عليك يا رسول الله ، قال فيلتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم حوله وعن يمينه وشماله وخلفه فلا يرى إلا الشجر والحجارة فمكث رسول الله صلى الله عليه وسلم كذلك يرى ويسمع ما شاء الله أن يسمع ثم جاءه جبريل عليه السلام بما جاءه من كرامة الله وهو بحراء في شهر رمضان^(١) .

فكانت مقومات الجو البيئي للنبي صلى الله عليه وسلم قد هيأت له موعد البركة العظمى والرسالة الخاتمة فحبب بالبناء للمجهول إليه الخلاء للتحنف والتعبد لا من ذنب ، يستغفر ولا عن ذنوب يتبعد ، فقد سما روحانيا ووجدانيا ، وبدنياً ، وخلقياً ، وسلوكياً ، وعقلياً ، وفكرياً ، وخاطراً ، وتذكراً ، وإرادة وعملاً من كل شيء غير سوى يتفق مع كيانه السوى الرباني .

قال ابن حجر : قوله فيتحنث ، هي بمعنى يتحنف أى يتبع الحنفية وقوله حبب ، لم يسم فاعله لعدم تحقق الباعث على ذلك وإن كان كل من عند الله ، أو لينبه على أنه لم يكن من بواعث البشر ، أو يكون ذلك من وحي الإلهام^(٢) .

(١) سيرة ابن هشام ص ٢٣٤ ، ٢٣٥ تحقيق شلى ، الابيارى ، السقا .

(٢) فتح البارى ج ١ ص ٢٥ .

فتحنث النبي صلى الله عليه وسلم في غار حراء هو آخر التربية الإلهية له ليلتقى بعدها مباشرة بالرحمة العامة للناس أجمعين ٥

فالتحنث في نظري ، هو الصعود السامي المستشعر عظمة الله جل جلاله المتلذذ بطاعته النازع بالسوية إلى سمو قدسه وواسع رحمته بالتخلي عن البيئة العامة لتستمر السوية المحمدية على طبعها الذي هيئت به لاستقبال الرسالة .

فليس التحنث تكلفاً ، ولا تقليداً لعادة عربية ، ولا رياضة مشرئية إلى غاية أو طمع في أمل مترقب أو انتظار لجهول مأمول ٥

ولكنه تيسير إلهي لفطريته السوية التي رباها ربها من الطفولة هكذا لتكون بإذنه للعالمين نذيراً ٥

يقول صاحب الحمزية :

ألف النسك والعبادة والخلوة طفلاً وهكنا النجباء
وإذا حلت الهداية قلباً نشطت في العبادة الأعضاء

يعلق صاحب السيرة الحلبية بقوله :

أى ألف صلى الله عليه وسلم العبادة والخلوة في حال كونه طفلاً ومثل هذا الشأن العلى شأن الكرام .

فقد صانه الله تعالى عن التفكير ، أو الاعتقاد في أى شئ يخالف
الكمالى والأدب مع الله .

يقول الإمام الزرقانى : [

لأنه ولو علم بالبشارات الحاصلة قبل ولادته وأخبار الكهنة وبخيرا
وغيرهم بأنه نبي آخر الزمان ، لكن صانه الله سبحانه عن اعتقاد
ما يخالف ما عنده تعالى من أنها لا تنال بطلب ، فإنه صلى الله عليه وسلم
قبل النبوة منشرح الصدر بالتوحيد والإيمان وكذلك الأنبياء فلاهم —
كما قال عياض — :

معصومون قبلها من الشك في ذلك والجهل به اتفاقا ، فإنما كان
جواره مجرد عبادة وانعزال عن الناس

بل إن الإمام القسطلانى ليرى أن الخلوة مترتبة على الرؤيا الصالحة
التي هي قسم من أقسام الوحي فيقول : فإن قلت أمر الغار قبل الرسالة
فلا حكم ، أجيب بأنه أول ما بدئ به عليه الصلاة والسلام من الوحي
الرؤيا الصالحة ثم حبيب إليه الخلاء فكان يخلو بغار حواء كما مر فدل
على أن الخلوة حكم مرتب على الوحي ، لأن كلمة . . ثم « للترتيب » :

(١) المواهب اللدنية شرح الزرقانى ج ١ ص ٢٢٠

(٢) إرشاد السارى إلى شرح صحيح البخارى للعلامة شهاب الدين أحمد القسطلانى

ط السابعة عام ١٣٢٣ هـ المطبعة الكبرى الأميرية ج ١ ص ٦٢

فكان ذلك أمعن في الذهاب إلى أن التحدث لم يكن تبعية لعادة ،
ولا رياضة نفسية خاصة بل كان وحيا يوحى من عند الله والله أعلم
حيث يجعل رسالته والله أعلم حيث يلهم أنبياءه .

إنه أسلوب تربوي رباني من الأساليب الإلهية التي تعهد بها صفيه
محمدًا صلى الله عليه وسلم ليختصه بالرسالة الخاتمة ليكون للعالمين
نذيرا :

ولذا فإن سيولة التعبير الإنشائي التي يطلقها بعض الكتابين الإسلاميين
كما فعل الدكتور هيكل لا تتفق مع جلال هذا الموقف .

لقد أفرط الدكتور هيكل في تعبيراته حتى أزعج — ويزعج —
قلوب الحاشعين ، ويشير حمية الشباب الواعي ، ويتناقض مع التصور
الإسلامي للتحدث في غار حراء :

فنسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم اختياره حياة الانقطاع للتأمل
والتفكير كوسيلة للوصول إلى المعرفة : « وهو لم يكن يطمع في أن
يجد في قصص الأحبار ، وفي كتب الرهبان الحق الذي ينشده ، بل
في هذا الكون المحيط به :

في السماء ونجومها وقمرها وشمسها ، وفي الصحراء ساعات
لهيها المحرق تحت ضوء الشمس الباهرة اللاأواء ، وساعات صفوها
البديع إذ تكسوها أشعة القمر أو أضواء النجوم بلباسها الرطب الندي ،

وفي البحر وموجه ، وفي كل ما وراء ذلك مما يتصل بألوجود وتشمله
وحدة الوجود : . . في هذا الكون كان يتلمس الحقيقة العليا^(١) . . الخ .
ويقول كذلك :

وكان إذا استدار العام وجاء شهر رمضان ذهب إلى حراء إلى تفكيره
ينضجه شيئاً فشيئاً ، وتزداد نفسه به امتلاء وبعد سنوات ، شغلت
أثناءها هذه الحقائق العليا نفسه صار يرى في نومه الرؤيا الصالحة تنبلج
أثناءها أمام باصرته أنوار الحقيقة التي ينشد ويرى معها باطل الحياة
وغرور زخرفها إذ ذاك آمن أن قومه قد ضلوا سبيل الهدى^(٢) . . .

فالنص سيال ومخادع فليس لمحمد أن ينشد الحقيقة من كتاب فقد
كان أمياً ، ولا في الجزيرة بحر ولا نهر تطلب منه المعرفة العليا وليست
رمال الصحراء وحرارة الشمس ، ولمعان أضواء القمر ، بآيات
لتربية رسول ، بل ولا تصلح لمفكر عادي ، فما هدت تلك الرمال
وأشعة الشمس وأضواء القمر الباحثين عن العدل الديني :

ولا كانت الرؤيا الصادقة بعد العزلة في الغار ، ولا كان الغار لأنه
يطل على البحر وأمواجه ، والرمال وصفرتها بل كان الغار محل
التحنث لأن فيه العزلة ، وصفاء التعبد ، ومشاهدة بيت الله الحرام ،
ضيافة الله في الأرض .

(١) حياة محمد - هيكل باشا - ص ١٣٠ . (٢) حياة محمد ص ٣١ ، ١٣٢ .

يقول العسقلاني :

فإن قلت لم خص حراء بالتعبد فيه دون غيره ؟ قال ابن أبي جمرة :
لمزيد فضله على غيره لأنه مجموع لتحنثه وينظر منه الكعبة المعظمة
والنظر إليها عبادة فكأن له عليه الصلاة والسلام فيه عبادات :

الخلوة ، والتحنث ، والنظر إلى الكعبة^(١) وشتان ما بين مسلم
يشاق وراء سيولة الإنشاء يضيع بها على الدعاة والباحثين جلال ودقة
التصورات الإسلامية وينبثها عن مفهومها الطبيعي المدلل عليه بالوثائق
العلمية واللغوية وشتان بينه وبين مسلم دقيق البحث يقظ الوعي كما
فعل ابن هشام إذ يقول في عبارته :

أول ما بدئ رسول الله صلى الله عليه وسلم من النبوة حين أراد
الله كرامته ورحمة العباد به الرؤيا الصادقة لا يرى رسول الله صلى الله
عليه وسلم رؤيا في نومه إلا جاءت كفلق الصبح ، قالت : وحبيب الله
تعالى إليه الخلوة فلم يكن شيء أحب إليه من أن يخلو وحده^(٢) .

والقسطلاني يستنتج من « ثم » في لفظ حديث البخاري أن الخلوة
حكم ترتب على الرؤيا الصادقة التي هي جزء من الوحي فيجعلها عبادة

(١) ارشاد الساري ج ١ ص ٦٢ فتح الباري ج ١٦ ص ٦ من كتاب التعبير
راجع المواهب ج ١ ص ٢٢٢ ، ٢٢٣ .
(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٣٤ .

مأموراً بها من الله سبحانه وتعالى ، وحول هذا كذلك يدور كلام ابن حجر^(١) :

لهذا فإن التحدث عن مواطن التحرك الأولى للدعوة الإسلامية ينبغي أن يأخذ وضعاً علمياً خاصاً بعيداً عن انزلاقات العاطفة وسيولة قلم الأديب ، وأجوفية لمعان الكلمات دون جدوى .

والذى أريد أن أخلص إليه من هذا ، أن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم انطلق إلى غار حراء بسويته التي رباها عليه ربه^(٢) ، وأن توجهه إلى غار حراء كان تعبداً بعد أن أوحى إليه بالرويا الصالحة ، وأن الجو من حواليه كان يقدم له العلامات أنه نبي آخر الزمان فلم يكن الدافع على التحدث اتباعه لعادة قومه ، فحاشاه أن يكون تابعا لأية فكرة أرضية ، ولا كان تحنثه رغبة منه في رياضة نفسية ، يستقبل بها أمراً خاصاً يرجوه في نفسه .

ولا كان تحنثه تابعا لنشاط فكري عرفه من ثقافات الصوامع والرهبان فقد كان أمية بن أبي الصلت يجوب الصحراء طالبا لهذا الشرف ،

(١) نود أن نوكد في هذا المجال أن الرويا الصالحة وحى يترتب عليه آثار سلوكية كما فعل سيدنا إبراهيم مع سيدنا إسماعيل عليه السلام : قال يابني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى ؟ قال يا أبتى : افعل ما تؤمر سنجدني إن شاء الله من الصابرين . وكذلك وقائع الحديبية ، لقد صدق الله رسوله الرويا بالحق . . . ومحال الشاهد أنه تصرف ولم ينتظر ملكا . (٢) راجع الشفاء نسيم الرياض ج ٣ ص ٢٨٢ .

وتتلمذ على يد كثير من أهل الكتاب واستقصى كثيرا ورحل وسأل وأجيب ويثس ، وعاش كثيرا يورق نفسه بهذا الأمل ، ولكنه لم يكن صاحب هذا الشرف لأنه شرف لا يكتسب بالرياضة والاشتراب .

لم يكن محمد باحثاً ، ولا طالباً ، ولكنه كان دائماً في كنف الله .
(ألم يجدك يتيماً فآوى ، ووجدك ضالاً فهدى ، ووجدك عائلاً فأغنى) .

أدبه ربه فأحسن تأديبه واصطفاه منذ الأزل القديم لرسالته ، فألممه الرشيد كاملاً وقدم بين يديه بشائر ، وعلى يديه بشائر وأسمعه بشائر ، وحقق رؤياه كفلق الصبح المنير ثم حجب^(١) إليه الخلاء واصطفاه ليكون رحمة للعالمين :

وأنتم هذا الحديث بما رواه الإمام السيوطي في الخصائص الكبرى :

١ — أخرج أبو نعيم عن علي بن الحسن قال :

إن أول ما أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم الرؤيا الصالحة فكان لا يرى شيئاً في المنام إلا كان كما رأى :

٢ — وأخرج أبو نعيم عن علقمة بن قيس قال :

إن أول ما يوئى به الأنبياء في المنام حتى تهبط قلوبهم ثم ينزل الوحي بعد .

(١) راجع ج ٣ ص ٢٨٢ نسيم الرياض على شرح على القارى على الشفاء .

٣- وأخرج البيهقي وأبو نعيم من طريق موسى بن عقبة عن ابن شهاب قال :

بلغنا أن أول ما رأى النبي صلى الله عليه وسلم أن الله أراه رؤيا في المنام فشق ذلك عليه فذكرها لخديجة فقالت :

أبشر فإن الله لن يصنع بك إلا خيرا ، ثم إنه خرج من عندها ثم رجع إليها فأخبرها أنه رأى بطنه شق ، ثم طهر وغسل ثم أعيد كما كان ، قالت : هذا والله خير فأبشر ، ثم استعلن له جبريل وهو بأعلى مكة فأجلسه على مجلس كريم معجب كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول : أجلسني على بساط كهيئة الدرنوك فيه الياقوت واللؤلؤ ، فبشره برسالة الله حتى اطمأن النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال له :

اقرأ فقال : كيف أقرأ ؟ فقال : اقرأ باسم ربك الذي خلق : إلى قوله (ما لم يعلم) فقبل الرسول رسالة ربه وانصرف فجعل لا يمر على شجر ولا حجر إلا سلم عليه فرجع مسرورا إلى أهله موقنا قد رأى أمرا عظيما فلما دخل على خديجة قال : رأيته الذي كنت أخبرتك إني رأيته في المنام فإنه جبريل استعلن لي أرسله إلى ربّي فأخبرها بالذي جاءه من الله وما سمع منه فقالت : أبشر فوالله لا يفعل الله بك إلا خيرا ، فأقبل الذي جاءك من الله فإنه حق وأبشر فإنك رسول الله حقا ، ثم انطلقت حتى أتت غلاما لعتبة بن ربيعة ابن عبد شمس نصرانياً من أهل نينوى يقال له عداس ، فقالت له :

يا عداس أذكرك بالله إلا ما أخبرتني هل عندكم علم من جبرائيل ؟
فقال عداس : قدوس ، قدوس ما شأن جبرائيل يذكر بهذه الأرض
التي أهلها أهل الأوثان ؟ فقالت : أخبرني بعلمك فيه ؟

قال فإنه أمين الله بينه وبين النبيين وهو صاحب موسى وعيسى
فرجعت خديجة من عنده فوجدت ورقة بن نوفل فأخبرته فقال :
لعل صاحبك النبي الذي ينتظر أهل الكتاب الذي يجدونه مكتوباً
عندهم في التوراة والإنجيل ، ثم أقسم بالله لئن ظهر دعاؤه وأنا حي
لأبلى في طاعة رسوله وحسن مؤازرته فمات ورقة^(١) .

قال في السيرة الحلبية : إن عداسا المذكور هنا كان راهباً وكان
شيخاً كبير السن وقد وقع حاجباه على عينيه من الكبر وأن خديجة
قالت له : أنعم صباحاً يا عداس فقال : كان هذا الكلام كلام
سيدة نساء قريش ، قالت : أجل ، قال : أدنى مني فقد ثقل
سمعي فدنوت منه ثم قالت له : ما تقدم وهذا صريح في أنه غير عداس
الآتي ذكره ، وأنهما اشتركا في الاسم والبلد والدين^(٢) . ا . هـ .

قال في المواهب : رؤيا الأنبياء وحى^(٣) .

(١) الخصائص الكبرى ج ١ ص ٢٣١ ، ٢٣٣ دلائل النبوة للبيهقي ج ١ ص

٣٩٨ ، ٣٩٩ . (٢) السيرة الحلبية ج ١ ص ٢٧٨ ، ٢٩٥ .

(٣) المواهب ج ١ ص ٢٢٥ ، (فيندفع بذلك ما أثاره الدكتور الهراس في تعليقه

على هذه القصة ص ٢٣٢ خصائص) .

ملة التحنث

(ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم تحنيفاً وما كان من المشركين)
النحل — ١٢٣ :

يكاد المفسرون يتفقون على أن هذه الآية مقصود بها توجيه النبي
صلى الله عليه وسلم إلى الوظيفة العامة لجميع الأنبياء عليهم الصلاة
والسلام .

يقول الآلوسي :

وهي على ما روى عن قتادة (الاسلام) — المعبر عنه آنفاً
بالصراط المستقيم ، وفي رواية « أنها جميع الشرائع إلا ما أمر صلى
الله عليه وسلم بتركه » :

والمراد من ملة إبراهيم : التوحيد ونفي الشرك المفهوم من قوله
تعالى : (وما كان من المشركين) .

ويجوز أن يكون المراد : الأمر بمتابعته — إبراهيم — في كيفية
الدعوة إلى التوحيد وهي أن يدعو إليه بطريق الرفق والسهولة وإيراد
الدلائل مرة بعد أخرى بأنواع كثيرة على ما هي الطريقة المألوفة
في القرآن (١) .

(١) روح المعاني ج ١٤ ص ٢٥١ شهاب الدين السيد محمود الآلوسي البغدادى
إدارة المطبعة المنيرية .

وفي رأى ابن حيان :

أن المعتقد الذى تقتضيه دلائل العقول لا يمنع أن يوحى ليتضافر
المعقول والمنقول على اعتقاده .

قال الآلوسى :

وأكثر المفسرين على أن المراد بها هنا — يعنى الملة — أصول
الشرائع .

ويقول ، فى تفسيره : « أوحينا » .

ثم الأمر باتباع الملة لا اتباع إبراهيم عليه السلام ^(١) .

وفي كلام الطبرى ما يشبه ذلك قال :

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم أوحينا إليك
يا محمد وقلنا لك : اتبع ملة إبراهيم الحنيفية المسلمة ، حنيفا :
يقول : مسلما على الدين الذى كان عليه إبراهيم بريئا من الأوثان
والأنداد التى يعبدونها قومك كما كان إبراهيم تبرا منها ^(٢) : ١ . هـ :

وقال فى تفسير المنار : فلا يمكن أن يؤمر بالافتداء فيه بمن قبله ولا هو
بما يقع فيه الافتداء ، وقوله تعالى : (ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم)

(١) روح المعاني ج ١٤ ص ٢٥١ شهاب الدين السيد محمود الآلوسى البغدادى

إدارة المطبعة المنيرية .

(٢) تفسير الطبرى ج ١٤ ص ١٩٣ .

معناه : أن الملة التي أوحاها إليه وأمره باتباعها وهي : العقيدة وأصل الدين هي ملة إبراهيم وإنما يتبعها لأمر الله أنها ملة إبراهيم إذ ليست مما علمه من إبراهيم بالتلقي عنه لأنه لم يكن في عصره ، ولا بالنقل لأنه لم يكن عليه السلام ناقلاً ذلك عن العرب وإن كان من المشهور المتواتر عند العرب أن إبراهيم كان موحداً حنيفاً .

وأما الشرائع العملية فلا يقتدى بها الرسول بأحد أيضاً ، وإنما يتبعها لأن الله أمره باتباعها ذلك بأن الرسول لا يتبع في الدين إلا ما أوحى إليه من حيث أنه أوحى إليه .

وقال : وموافقة رسول لما قبله في أصول الدين وبعض فروعه لا يسمى اقتداء ولا تأسيا وإنما يكون التأسي به في طريقته التي سلكها في الدعوة إلى الدين وإقامته ، ومن الشواهد على هذا : (قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه) فإنه تعالى أرشد المؤمنين إلى التأسي بإبراهيم ومن معه وجعلهم قدوة لهم في سيرته العلية التي كانت من هدى الله تعالى وهي البراءة من معبودات قومهم^(١) . ا . ه .

والشيخ البيضاوي رحمه الله تعالى يجرى على النمط فيقول :
في التوحيد والدعوة إليه بالرفق وإيراد الدلائل مرة بعد أخرى والمجادلة مع كل أحد على حساب فهمه^(٢) . ا . ه .

(١) راجع تفسير المنارج ٧ ص ٥٩٦ ط ثانية مطبعة المنار .

(٢) البيضاوي ج ٣ ص ٦٥٤ .

أما تعليق الشيخ الصاوي في حاشيته على الجلالين فقد عجم التبعية للأصول والأنبياء فقال : ومعنى اتباع النبي فيها اتباعه في الأصول وهي عقائد التوحيد فرسول الله أمر باتباع إبراهيم ، بل واتباع من تقدمه من الأنبياء في التوحيد لأنهم مشتركون فيه ، قال تعالى : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ﴾ ^(١) الآية ١٠ هـ .

والقضية في ذاتها لا تحتاج إلى إثارة جدل إذا تأكد لنا أن النبي صلى الله عليه وسلم منذ حدوثه وهو في رعاية الله .

يقول ابن حجر : وأما مطلق ما يدل على نبوته فتقدمت له أشياء مثل تسليم الحجر كما ثبت في صحيح مسلم وغير ذلك .

ويقول :

أخباره عما رآه من دلائل النبوة من غير أن يوحى بذلك إليه وهو أول ذلك مطلقا ماسمعه من بحيرا الراهب وهو عند الترمذي بإسناد قوى عن أبي موسى ثم ماسمعه عند بناء الكعبة حيث قيل له : أشدد عليك أزارك وهو في حديث البخاري من حديث جابر وكذلك تسليم الحجر عليه وهو عند مسلم من حديث جابر بن شمرة ^(٢) . فقد اكتنفته العناية الإلهية وأعدته بتوادة وحنان ورفق ليختم رسالة

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ج ٢ ص ٢٧٩ .

(٢) فتح الباري ج ١٠ ص ٣٤٥ .

الله إلى الناس كافة وقد بدىء قبل غار حراء بأحد أنواع الوحي وهى الرؤية الصالحة .

يقول الامام الكبير شاه ولي الله الدهلوى :

وكان أول ما بدىء به الرؤيا الصالحة فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح وهذه شعبة من شعب النبوة^(١) .

يقول الإمام الزرقانى : ومنها — أى مما خصه الله تعالى من المعجزات وشرفه به على سائر الأنبياء من الكرامات والآيات البينات أنه كلم بالبناء للمجهول بجميع أصناف الوحي كما نقل عن الشيخ عز الدين بن عبد السلام^(٢) .

ثم يشرح هذا فى المقصد الأول عند حديثه عن مراتب الوحي فيقول :

احداها أى المراتب « الرؤيا الصادقة » بعد النبوة أو قبلها لأنها مقرر لما بعدها ، نعم المختص بما بعدها الوحي بالأحكام التى يعمل بها فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح كما مر عن عائشة .

(١) حجة الله البالغة ج ٢ ص ٨٦٣ ط دار الكتب الحديثة تحقيق الشيخ سيد سابق ، راجع السيرة النبوية للدكتور محمد محمد أبو شعبة ص ٢٧٥ الفقرة رقم ٥ .
(٢) شرح المواهب اللدنية ج ٥ ص ٢٧٨ .

واستدل السهيلي وغيره على أنها من الوحي بقول إبراهيم : (يا بني
إني أرى في المنام أني أذبحك . .) الآية . فدل على أن الوحي
يأتيهم — الأنبياء — مناما كما يأتيهم يقظة^(١) .

ومحل الاستشهاد في نظري بروؤية سيدنا إبراهيم أنه قد سبق له أن
شافه الملائكة وقد بشروه بغلام حلیم . . . فلو كانت الرؤيا غير كافية
لانتظر ملكاً .

وإلى هذا يعيل ابن حجر إذ يقول : قوله « ثم حجب إليه الخلاء »
هذا ظاهر في أن الرؤيا الصادقة كانت قبل أن يحجب إليه الخلاء ويحتمل
أن تكون لترتيب الأخبار فيكون تحجب الخلاء سابقاً على الرؤيا
الصادقة والأول أظهر^(٢) . ا هـ .

ودليله لنا :

أولاً : ما ذكره صاحب السيرة الحلبية وزاد المعاد وفي البخاري
أن الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة ورؤيا الأنبياء
وحي^(٣) ، قال بعضهم معناه أن النبي صلى الله عليه وسلم حين بعث
لأقام بمكة ثلاث عشرة سنة ، وبالمدينة عشرين سنة ، فمدته

(١) شرح المواهب اللدنية ج ١ ص ٢٢٥ .

(٢) اسان العيون ج ١ ص ٢٦٨ . زاد المعاد ج ١ ص ١٨٠ ، ١٩٠ .

(٣) راجع ص ٢٩٥ ج ١ الحلبية .

الوحي إليه في اليقظة ثلاث وعشرون سنة ومدة الوحي إليه في المنام
— أي التي هي الرؤيا — ستة أشهر^(١) . ا . ه .

فاذا كانت فترة التحدث مسبقة بتم دل ذلك على أن الرؤيا الصادقة
سابقة على التحدث في غار حراء .

ثانيا : ابن حجر نفسه يعلل لترؤد النبي صلى الله عليه وسلم للمخلوة
من كل عام بأن هذا الاستعداد والتأهب لا ينافي التوكل لوقوعه من
النبي صلى الله عليه وسلم بعد حصول النبوة له بالرؤيا الصالحة وإن كان
الوحي في اليقظة قد تراخى ا . ه . . بل إنه يقول صراحة : حكى
البيهقي أن مدة الرؤيا كانت ستة أشهر وعلى هذا فابتداء النبوة بالرؤيا
وقع من شهر مولده وهو ربيع الأول بعد كماله أربعين سنة ، وابتداء
الوحي اليقظة وقع في رمضان^(٢) .

وقد عد فضيلة الدكتور محمد أبو شهبه هذه الرؤيا من أقسام الوحي
وجعلها رديفة لرؤية دخول المسجد الحرام^(٣) .

(١) راجع البخاري كتاب التعبد باب الرؤيا الصالحة جزء من ست وأربعين
جزءا من النبوة - فتح الباري ج ١٦ ص ٢٩ .

(٢) فتح الباري ج ١٠ ص ٣٤٦ .

(٣) راجع السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة للدكتور محمد أبو شهبه ص ٢٧٥
فتح الباري ج ١ ص ٣٠ .

وعلى هذا فالملة التي كان يتحنث بها أو عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم هي ملته هو ، هي ملة الأنبياء جميعاً ، هي ملة الإسلام التي حملها نبي بعد نبي من لدن إبراهيم حتى العاقب الذي ختم الله به الرسالة ، والله هو الذي يرعاه ويصطفى إليها من يحملون شعلتها والرسول الكريم الأمين الصادق إنما هو تابع في دعوته وهدايته إلى تلك الشجرة المباركة من الدعاة الهداة ، وهو يؤدي واجبه الذي ناطه الله به لوجه الله ولحساب الله ولل البشرية جمعاء ، لا لهذا الجيل من العرب ، بل للناس أجمعين ، فليس الفاصل الزمني بين إبراهيم الخلد ومحمد الحفيد عليهم السلام بفاصل بين حقيقة الرسالتين فهما من معدن واحد ، بل هما شيء واحد في الأصل الذي قامتا عليه وهو توحيد الله وإخلاص العبودية لجلاله^(١) يقول الله تعالى :

(قل ما كنت بدعا من الرسل) الأحقاف ٩ .

(وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) الأنبياء ٢٥ .

(واسأل من قد أرسلنا قبلك من رسلنا أجمعنا من دون الرحمن آلهة يعبدون) الزخرف ٤٥ .

(١) راجع تفسير في ظلال القرآن ج ٧ ص ٨٤ ، ٨٥ ط أولى الحلبي وراجع التفسير القرآني للقرآن مجلد ٣ ص ٣٩٤ دار الفكر العربي .

(إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون) الأنبياء ٩٢ .
 (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده قل لا أسألك عليه أجرا
 إن هو إلا ذكرى للعالمين) سورة الأنعام ٩٠ .

لقد ذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى غار حراء نبياً ،
 وعبد الله على دين الإسلام ، كما عبده كل الأنبياء والمرسلين ، ومن
 هنا فليس من الجيد أن يطيل الباحثون الحديث حول الملة التي كان
 يتعبد بها سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فترة الخلوة في غار حراء .
 لقد تحدث ابن حجر عن ذلك فعرض الآراء وعدّها ثمانية ، وحكى
 منها سبعة :

- | | | |
|---------|------------------------------------------------------------------------------------------|---------------------------------------------------------------------------|
| أحدها | : آدم | حكاه ابن برهان . |
| الثاني | : نوح | حكاه الآمدي . |
| الثالث | : إبراهيم | ذهب إليه جماعة واستدلوا بقوله
تعالى : (أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً) . |
| الرابع | : موسى . | |
| الخامسة | : عيسى | |
| السادس | : بكل شيء بلغه عن شرع نبي من الأنبياء وحيجته
(أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده) . | |

السابع : الوقف ، واختاره الآمدي ثم مال إلى الثالث فقال :
ولا يخفى قوة الثالث ولا سيما مع ما نقل من ملازمته للحج والطواف
ونحو ذلك مما بقي عندهم من شريعة إبراهيم والله أعلم (١) .

وهو عرض يعز على كثيرا أن أردده لأن ابن حجر له منزلة سامقة
في خدمة الإسلام فكيف يذهب إلى ذلك وقد جنح في غيره مرة إلى
أن النبي صلى الله عليه وسلم بدئ بالنبوة بالرؤيا الصالحة ، واختار
هو وقوع الحلاوة في غار حراء بعد الرؤيا الصالحة ، أفلا يكون من
المنطق أن يكون التحنث في غار حراء في جو نبوي خاص معلوم للنبي
صلى الله عليه وسلم ، وإن كان الوحي في اليقظة فد تراخى على حد
تعبير ابن حجر! نفسه (٢) ٢

لم يكن ابن حجر وحده هو الذي استعرض هذا الموضوع بل جلة
الكاتبين فد تظاهروا على ذلك .

لقد كتب ابن كثير في سيرته (٣) :

وكتب الزرقاني في شرحه على المواهب اللدنية (٤) .

(١) فتح الباري ج ١٠ ص ٣٤٥ .

(٢) راجع ج ١٠ ص ٣٤٥ ، ص ٣٤٦ فتح الباري .

(٣) السيرة النبوية لابن كثير ج ١ ص ٣٩١ تحقيق الدكتور مصطفى عبد الواحد .

(٤) ج ١ ص ٢١٠

وكتب الشيخ طاهر الجزائري الدمشقي في كتابه : توجيه النظر
في أصول الأثر (١) :

وكتب ابن الجوزي في كتابه الوفا بأحوال المصطفى (٢) .

وكتب علماء أصول الفقه :

وتركوا هذه الكتابة هكذا . : وهم يقرعون في إرشاد الساري
وفي غيره من كتب الحديث :

عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت : أول ما بدئ به
رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي إليه الرؤيا الصالحة في النوم
فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ثم حُبب إليه الخلاء (٣)
: . . . الخ :

مما يفيد أن النبي صلى الله عليه وسلم ذهب إلى غار حراء نبياً كما
صرح بذلك الإمام الدهاوي ، وذهب إليه القسطلاني في ترتيبه الحلوة
على الرؤيا حسبما صرح به في لفظ الحديث الذي روى عن السيدة
عائشة رضي الله عنها .

(١) ص ٥٦ ، ٥٧ .

(٢) راجع الوفا بأحوال المصطفى ج ١ ص ١٣٨ تحقيق الدكتور مصطفى
عبد الواحد .

(٣) إرشاد الساري ج ١ ص ٦٢ راجع صحيح مسلم ج ١ ص ١٣٩ باب بدء
الوحي تحقيق المرحوم الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي .

أما تصدى علماء أصول الفقه لهذا الموضوع فهو خروج على وظيفة مادة علم أصول الفقه فقد ذكروا أن أصول الفقه هو : معرفة دلائل الفقه الإجمالية .

وأن المسائل الفقهية إذا ذكرت فيه فانما على سبيل المثال ، قال في جمع الجوامع : وقياس الأرز على البر في امتناع بيع ببعض إلا مثلاً بمثل يبدأ بيد كما رواه مسلم واستصحاب الطهارة لمن شك في بقائها فليست أصول فقه وإنما يذكر بعضها في كتبه للتمثيل^(١) .

وتعبد النبي صلى الله عليه وسلم إن كان قبل الرسالة فلا يتعلق به غرض من أغراض أصول الفقه ، إذ غرضه مرتبط بالأدلة الإجمالية ، ولا كذلك تحنث النبي صلى الله عليه وسلم في غار حراء قبل البعثة .

وإن كان تعبده بعد الرسالة فليس ثمة نص شرعى قد بلغ حتى تتعلق به وظيفة لأصول الفقه .

يقول فضيلة الشيخ الحضري رحمه الله تعالى :

إن هذه مسألة من اختصاص التاريخ لا من اختصاص أصول الفقه^(٢) .

(١) حاشية البناني على شروح الجلال شمس الدين محمد أحمد المحلى ج ١ ص ٣١ ط الحلبي .

(٢) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية ج ١ ص ٦٥ الشيخ محمد الحضري .

وقد أكد هذا أبو اسحق الشاطبي إذ يقول : كل مسألة مرسومة في أصول الفقه لا ينبغي عليها فروع فقهية أو آداب شرعية أو لا تكون عوناً في ذلك فوضعها في أصول الفقه عارية . ثم قال : وعلى هذا يخرج عن أصول الفقه كثير من المسائل التي تكلم عليها المتأخرون وأدخلوها فيها كمسألة ابتداء الوضع ومسألة الإباحة . . . ومسألة أمر المعلوم ومسألة لهل كان النبي صلى الله عليه وسلم متعبداً بشرع أم لا (١) . . . الخ .

ونخلص من هذا — والحمد لله — إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتعبد في غار حراء على ملة الإله السلام الحنيف بعد أن هياه ربه منذ الأزل لهذه النعمة والرحمة كما يقول الآلوسي في تفسيره : (ألم يجذك يتيماً فتأوى) تعديداً لما أفاض الله عليه صلى الله عليه وسلم من أول أمره إلى وقت النزول من فنون النعماء العظام ليستشهد بالخاص الموجود على المترقب الموعد فيرداد قلبه الشريف وصدرة الرحيب طمأنينة وسروراً وانشراحاً وحبوراً (٢) .

فكان صلى الله عليه وسلم آخر غصن في أعلى منزلة من الشجرة المباركة التي حملت إلى الناس دين الله الحنيف ، وقد أوحى الله إليه

(١) الموافقات في أصول الشريعة ج ١ ص ٤٣ لأبي اسحق الشاطبي ط المكتبة التجارية .

(٢) تفسير الآلوسي ج ٣٠ ص ١٦١ .

القرآن وأنزله عليه بعد أن اصطفاه نبياً فكانت « اقرأ » بدء مرحلة جديدة للرسالة بعد الاطفاء ولهذا تحدث القرآن الكريم عن نزول القرآن الكريم على النبي صلى الله عليه وسلم ولم يتحدث عن اختياره رسولاً لأن الاصطفاء آخر مرحلة التربية التي يترتب عليها الاتصال بالوحي فقال الله تعالى : (إنا أنزلناه في ليلة القدر) فتي نزل القرآن الكريم على محمد الأمين صلى الله عليه وسلم أقبل الاصطفاء أم بعده أبا القرآن أصفى ؟ أو بالقرآن تحمل الرسالة بعد الاصطفاء ؟

أما سورة الدخان ففواصل يبين الجواب الشافى :

(إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين) . ففي ليلة الإنزال كان الإنذار فاتحاً للوظيفة بنزول القرآن فدل ذلك على تقدم مرحلة الاصطفاء للرسالة وهي التحنث الذي حجب إليه بعد الرويا الصادقة التي كان بها (١) نبياً :

وأختم هذا الحديث بما رواه الإمام أحمد ، حدثنا شقيق عن ميسرة اللهجر قال : قلت : يا رسول الله متى كنت نبياً ؟ قال : وآدم بين الروح والجسد (٢) .

(١) راجع الطبرى ج ٢٥ ص ١٠٧ ، ١٠٨ ، الآلوسى ج ٢٥ ص ١١٠ ، ١١١ .

(٢) السيرة النبوية لابن كثير ج ١ ص ٣١٨ - الطبقات الكبرى لابن سعد

ج ١ ص ١٤٨ .

تصفية . . . ؟

« فرجع بها يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد رضى الله عنها فقال زملونى ، زملونى حتى ذهب عنه الروح فقال لخديجة وأخبرها الخبر لقد خشيت على نفسى » . ا . ه البخارى .

أى شئ رجع به سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، بعد أن تلقى الوحي يقظة وبالصورة الطبيعية للملك ؟

لقد رجع بالنبوة الواضحة له وبآيات البينات عنده ، ورجف فؤاده خبطة بحاله وإقباله على الله عز وجل .

ونخشى أن يشتغل بغير الله عن الله فان أعباء النبوة ومعالجة شدة الوحي اعباء فوق طاقة البشر ^(١) .

يوكد هذه الحقيقة حالات النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن حمى الوحي وتتابع ، وصار مألوفا عنده فقد روى البخارى رضى الله عنه عن عائشة رضى الله عنها : أن الحارث بن هشام رضى الله تعالى عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله كيف يأتيك الوحي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أحيانا يأتينى مثل صلصلة الحرس ، وهو أشده على فيفصم عنى ، وقد وعيت عنه ما قال ، وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا ، فيكلمنى فأعنى مايقول ،

(١) راجع شرح المواهب اللدنية ج ١ ص ٢٢١ .

قالت عائشة رضى الله تعالى عنها : ولقد رأيتہ يتنزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وأن جبينه ليتفصد عرقاً^(١) .

ولكن الكاتبين لم يعالجوا الموضوع فى ظروفه المشابهة بعد أن تتابع الوحى بل ذهبوا يضعون تفسيرات قد لا تتفق مع جلال الموقف وعصمة النبي صلى الله عليه وسلم .

لقد نقل ابن حجر فى محاولة تفسير : « لقد خشيت على نفسى » اثنى عشر قولاً : أولها : الجنون وآخرها : تعييرهم إياهم وهو تفسير لا يخرج عن محيط الذات البشرية العادية ، فليس فى حساب محمد صلى الله عليه وسلم وقد أكرمه الله تعالى وهيأله الجو وسلم عليه الحجر وجاءته الرؤيا الصادقة أن يكون مغضوباً عليه فيكون مجنوناً أو يأتيه هاجس أو مرض أو عجز أو قاق أو يتسلط عليه انسان بالقتل .

لم يكن فى حسابه قوى البشر ولا قوى الجن فانه يدرك أنه فى كنف ربه وفى رضوانه وعنايته ، ولكن المسألة فى أولها كالمسألة فى استمرارها . إن الاتصال بالملك هو هكذا اصعب حتى أن جبينه الشريف ليتفصد عرقاً فى اليوم الشديد البرد . قال القسطلانى : وإنناً جبينه ليتفصد

(١) البخارى بدء الوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ج ١ ص ٢١ - ٢٤ شرح فتح البارى - راجع الخصائص الكبرى للسيوطى ج ١ ص ٢٩٥ راجع كتاب التاج الجامع للاصول فى أحاديث الرسول للشيخ منصور على ناصف ج ٣ ص ٢٥١ طبعة عيسى الحلبي ١٣٨١ هـ - ١٩٦٢ .

عرقا : من كثرة معاناة التعب والكرب عند نزول الوحي إذ أنه أمر طارئ زائد على الطباع البشرية ، وإنما كان كذلك ليلو صبره فيرتاض لاحتماله ما كلفه من أعباء النبوة ^(١) . ا . ه .

وهذا هو الذي عرضه في طول صاحب السيرة الحلبية إذ قال :

وقوله يأتي أحيانا له صلصلة كصلصلة الحرس وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا .

وكان صلى الله عليه وسلم يجد ثقلا عند نزول الوحي ، يتحدر جبينه عرقا في البرد كأنه الحمان وربما غط كخطيط البكر محمرة عيناه وعن زيد ابن ثابت رضى الله عنه كان إذا نزل الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثقل لذلك ، ومرة وقع فخذاه على فخذي فوالله ما وجدت شيئا أثقل من فخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وربما أوحى اليه وهو على راحلته ، يترعد حتى يظن أن ذراعها ينقسم ، وربما بركت وجاء أنه لما نزلت سورة المائدة عليه صلى الله عليه وسلم كان على ناقته فلم تستطع أن تحمله فنزل عنها وفي رواية فاندق كتف راحلته العضباء من ثقل السورة . . وجاء : ما من مرة يوحى إلى ظنت أن نفسي تقبض منه ، وعن أسماء بنت عميس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه الوحي يكاد يغشى عليه ،

(١) القسطلاني : ارشاد الساري ج ١ ص ٦٠ .

وفي مسلم عن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه الوحي استقبلته الرعدة ، وفي رواية كربه لذلك وتربده وجهه ، ونمض عينيه ، وربما غط كغطيط البكر^(١) . . . الخ .

فكان ينبغي أدبيا ، وخلقيا ثم علميا أن تفسر جميع الألفاظ التي وردت في حديث البخاري في باب بدء الوحي ، وفي كتاب التعبير على نحو يتساق مع منزلة النبي صلى الله عليه وسلم وتربيته الالهية ولقد أشار ابن هشام إلى هذا بعبارة قصيرة وياليتة كان أطنب واستفاض .
يقول :

ثم تنام الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مؤمن بالله مصادق بما جاء منه قد قبله بقبوله ، ونحمل منه ما حمده على رضا العباد وسخطهم ، والنبوة أثقال وموثة لا يحملها ولا يستطيع بها إلا أهل القوة والعزم من الرسل بعون الله تعالى وتوفيقه^(٢) . ا . هـ . فيضيق ابن هشام دائرة التشكيل حول عبارات الحديث التي أطنب فيها

(١) السيرة الحلبية ج ١ ص ٢٩٢ ، ٢٩٣ راجع كذلك كتاب الدرر لابن عبد البر ص ٣٣ تحقيق الدكتور شوقي ضيف تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٤٣٥ ، راجع كذلك الطبقات الكبرى لابن سعد ج ١ ص ١٩٧ ، راجع كذلك الخصائص الكبرى ج ١ ص ٢٩٣ - ٢٩٧ ، راجع الوفا ج ١ ص ١٧١ ، راجع التاج الجامع للأصول ج ٣ ص ٢٥١ ، ٢٥٢ .

(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٤٠ .

الكاتبون بما لا يليق بالذات النبوية الكريمة ، ثم يضع الاطار العام ، في جوه الرباني وأثقاله الطبيعية : ولا يضع حسابا للناس أرضوا أم سخطوا .

وليس من المقبول أن تقول السيدة خديجة رضي الله عنها لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم : كلا والله ما يخزيك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق ^(١) حسبما روى البخارى ، أو تقول له حسبما روى ابن هشام :

أبشر يا بن عم واثبت ، فو الذى نفس خديجة بيده لئن لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة ^(٢) .

ليس من المقبول أن تقول السيدة خديجة هذا لمجرد ما تعرفه من دلائل النبوة ثم يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم — وحاشاه ذلك أن يكون حال تغايرها فى اليقين والتثبت .

ولهذا فإن التفسير الذى ينسجم مع حق النبوة هو ما ذكره الامام الزرقانى فى شرحه على المواهب اللدنية :

ولم تكن الرجفة المذكورة فى قوله فرعبت منه خوفا من جبريل عليه السلام فانه صلى الله عليه وسلم أجل من ذلك وأثبت جنانا ،

(١) البخارى بدء الوحي . (٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٤٠ .

ولإنما رجع غبطة بحاله وهى فى الأصل حسن الحال كما فى القاموس ، وإقباله على الله عز وجل فخشى أن يشتغل بغير الله عن الله ، وقد آمن الله بخوفه ، فلم يكن يشغله عن الله شىء^(١) وذلك هو الرأى الصافى الذى ينبغى أن تسير عليه المفاهيم .

♦ ♦ ♦ تصحيح

من حديث فى البخارى — كتاب التعبير — وفقر الوحى حتى حزن
النبي صلى الله عليه وسلم — فيما بلغنا — حزنا غدا منه مرارا كى يتردى
من رءوس شواهق الجبال : فكأما أوفى بذروة جبل لسكى يلقى منه
نفسه تبرى له جبريل فقال يا محمد : إنك رسول الله حقاً^(٢) .
الحديث .

الأحاديث المتعلقة ببديء الوحى ذكرها البخارى فى :

١ — باب : كيف كان بدء الوحى إلى رسول الله صلى الله عليه
وسلم من طريق يحيى بن بكير عن الليث عن عقيل عن ابن شهاب
عن عروة بن الزبير عن عائشة^(٣) ، وهذه الرواية ليس فيها النص
المذكور آنفا ولكن فيها ابن شهاب .

(١) شرح المواهب اللدنية ج ١ ص ٢٢١ راجعت القاموس المحيط ج ٢ ص ١٤٧
ولسان العرب ج ٩ ص ١١٢ ، ١١٣ وأساس البلاغة ص ٢٢٢ ، ٢٢٣ فى مادة
رجف فلم أجد المعنى المشار اليه هنا .

(٢) فتح البارى ج ١٦ ص ١٢ . (٣) فتح البارى ج ١ ص ٢٤ ، ٢٥ .

٢ - في تفسير سورة « اقرأ » من طريق : يحيى بن بكير عن الليث عن عقيل عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير عن عائشة والطريق الآخر : عن سعيد بن مروان عن محمد بن عبد العزيز بن أبي رزمة عن أبي صالح سلمويه عن عبد الله عن يونس بن يزيد عن الزهري عن عروة بن الزبير عن عائشة .

وليس في هذا الحديث النص المذكور سائفا وفي طريقه ابن شهاب الزهري .

وفيه أن ابن شهاب روى عن أبي سلمة بن عبد الرحمن أن جابر ابن عبد الله الأنصاري رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يحدث عن فترة الوحي قال في حديثه : بينا أنا أمشي سمعت صوتا من السماء فرفعت بصري فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض ففرقت منه فرجعت فقلت رملوني ، رملوني^(١) . الحديث وليس فيه شيء ما عن النص المذكور .

٣ - في كتاب التعبير باب أول ما بادئ به رسول الله صلى الله عليه

وسلم من طريق يحيى بن بكير عن الليث عن عقيل^٢ عن ابن شهاب .

(١) فتح الباري ج ١٠ ص ٤ - ٣٤ ٣٥٠ .

وعبد الله بن محمد عن عبد الرازق عن معمر عن الزهري عن
صروة عن عائشة^(١) ۞

وذلك الحديث هو الذى فيه النص السالف من طريق عبد الرازق
عن معمر عن الزهري وقد كان ينبغي محافظة على المفاهيم الإسلامية
عن التشويش أن يجتهد العلماء فى الموازنة بين هذه الأسانيد ويحذفوا
ذلك النص فليس فيه كثير غناء بله فيه كبير شفاء للثقافة الإسلامية
والسيرة النبوية من الزيغ والوسوسة ۞

ومع أن العلماء ناقشوا الموضوع وذهبوا إلى أنه من البلاغات وهى
من قبيل المنقطع الضعيف غير أنهم تلمسوا تعاليل كأنها توهم بتمسكهم
بهذا النص مع أن الرواية التى فيها ذلك النص الشارد عن جلال السيرة
النبوية فيها عبد الرازق وقد قال فيه العلماء :

قال ابن عدى : حدث بأحاديث فى الفضائل لم يوافقه عليها
أحد . ونسبوه إلى التشيع .

وقال الدار قطنى : ثقة لكنه يخطئ على معمر فى أحاديث ،
وقال عبد الله بن أحمد سمعت يحيى يقول : ما كتبت عنه كتابة سوى
حديث واحد^(٢) .

(١) راجع فتح البارى ج ١٦ ص ٣٥٠ وما قبلها .

(٢) راجع ميزان الاعتدال ج ٢ ص ٦١٠ تحقيق الهجوى ط ع الحلبي .

ولكن الكاتبين ارادوا أن يلحقوا هذه الزيادة بمعمر إذ قال في
ارشاد السارى « وكذلك صرح الإسماعيلي أن الزيادة في رواية معمر ^(١) » .
ولكن معمر من الأعلام الثقات قال فيه أحمد :

ليس يضم إلى معمر أحد إلا وجدته فوقه .

وقال ابن معين : معمر أثبت من ابن عيينة في الزهرى ^(٢) .

فلم يبق إلا اسناد هذه الزيادة إلى عبد الرازق وهو غير مأمون .

قال فيه ابن عيينة : أخاف أن يكون من الذين ضل سعيهم في الحياة
الدنيا .

غير أن الذى يعكر على معمر براءته من هذه الزيادة ما رواه الطبرى
في تاريخه أن معمر روى عن الزهرى في فترة الوحي : فحزن حزنا
شديدا جعل يغدو إلى رءوس شواحق الجبال ليتردى منها . . . الخ .

لكنه لم يجعل ذلك مرويا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بل
وصفها لسلوكه في تلك الأثناء الأولى من استقبال الوحي :

أما نص الرواية عن الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يحدث عن
فترة الوحي فيما رواه معمر عن الزهرى في تاريخ الطبرى فنصه :
« فكان النبي صلى الله عليه وسلم يحدث عن ذلك ، قال فبينما أنا أمشى

(١) ارشاد السارى ج ١٠ ص ١٢٢ .

(٢) ميزان الاعتدال ج ٤ ص ١٥٤ .

يوما إذ رأيت الملك الذى كان يأتينى بجراء على كرسى بين السماء والأرض فجثت منه رعبا فرجعت إلى خديجة فقلت : زملونى زملونى ؟

فالرواية عن معمر هنا ليس فيها الزيادة المروية فى البخارى لكن فى كلام الطبرى نسبة التردى اليه (ص ٣٠٥ طبرى) . وعلى كل حال فان هذا الحديث قد أخرجه أحمد ومسلم والإسماعيلي وغيرهم وأبو نعيم أيضا من طريق جمع من أصحاب الليث عن الليث بدونها^(١).

والليث هو من رواة هذا الحديث عند البخارى فى كتاب التفسير (سورة العلق) وكتاب التعبير كذلك ، وعلى هذا فلا محل للدفاع بمثل قولهم : مع أنه قد يحمل على أنه كان أول الأمر أو أنه فعل ذلك لخرجه من تكذيب من يبلغه وهو من بلاغات الزهرى وليس موصولا . . . ويحتمل أن يكون يبلغه بالاسناد المذكور^(٢) . . . الخ . فاذا كان هناك نص موصول إلى النبي صلى الله عليه وسلم يحدث عن فترة الوحي بأسلوب يتفق مع كرامته وعظمته وسويته فهو أولى بالقبول وغيره مهما كان فسنده أجدر بالرفض لاسيما إذا كان فى رجاله وهن ،

(١) ارشاد السارى ج ١٠ ص ١٢٢ ، راجع مسلم ج ١ ص ١٤٢ باب بدئ الوحي حديث رقم ٢٥٣ تخريج محمد فؤاد عبد الله .

(٢) فتح البارى ج ١٦ ص ١٢ .

ونستأنس في هذا^(١) برأى عالم متخصص في هذا المجال هو فضيلة الدكتور محمد أبو شهبه : إذ يقول : وفي بعض روايات صحيح البخاري : ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي فترة حتى حزن النبي صلى الله عليه وسلم - فيما بلغنا - حزنا غدا منه مرارا كى يتردى من رعوس شواهد الجبال ... الخ . النص وهذه الرواية ليست على شرط الصحيح لأنها من البلاغات وهى من قبيل المنقطع ، والمنقطع من أنواع الضعيف والبخاري لا يخرج إلا الأحاديث المسندة المتصلة برواية العدول الضابطين ، ولعل البخاري ذكرها لينبهنا إلى مخالفتها لما صحح عنده من حديث بدء الوحي الذي لم تذكر فيه هذه الزيادة .

ولو أن هذه الرواية كانت صحيحة لأولناها تأويلا مقبولا ، أما وهى على هذه الحالة فلا نكلف أنفسنا عناء البحث عن مخرج لها (٣) وهذا ما كنت أوده من شيوئنا القدامى في كتبهم الحليلة التي تعد كزاد للمسلم خاصة في التفكير والبحث .

نعم هم قد دافعوا ولكنهم زجوا بالقضية في احتمالات عقلية ثم دافعوا عنها مثلما قالوا : فعل ذلك بنفسه ولم يرد بعد شرع بالنهاى عنه فيعرض به . . . هـ

(١) المشار اليه هو رفض الزيادة بنقض النظر عن مناقشة نسبتها إلى رار .

(٢) السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة ص ٢٦٨ .

(٣) شرح المواهب ج ١ ص ٢١٦ .

فان العصمة طبع للنبي صلى الله عليه وسلم منذ النشأة روى ذلك صاحب شرح المواهب اللدنية نفسه في تفسير : (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك . . .) .

قال : كما قال ابن عباس : أى أنه على سبيل الفرض والتقدير لأنه كغيره من الأنبياء معصومون حتى من الصغائر قبل النبوة ولو سهواً على الأصح لكرامتهم على الله (١) هـ . وإليه مال الشاطبي في الموافقات (٢) — والقاضي عياض في الشفاء .

فكان الأليق بمقام النبوة الزكى أن يصحح هذا الجزء بالحذف أو يعرض له بالإبطال فقط دون التشقيق العقلي والدفاع بالتأويل المتكلف احتمالاً للبحث في مجال تصوير منزلة النبي الكريم .

وأختم هذا الحديث بما رواه أبو سعيد الخدرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

(أتانى جبريل عليه السلام فقال : إن ربك يقول :

أتدري كيف رفعت ذكرك ؟ قلت : الله تعالى أعلم ، قال) :

إذا ذكرت ذكرت معى (٣) .

(١) شرح المواهب ج ٥ ص ٢٧٩ ، راجع كذلك الموافقات للشاطبي ج ٢٥٤٤ .

(٢) الموافقات في أصول الشريعة لأبي إسحق الشاطبي ج ٣ ص ٢٥٤ ، شرح الشفاء ج ١ ص ١١٧ لعل القارى سنة ١٣٢٥ هـ . ط . الأزهرية .

(٣) روح المعاني ج ٣٠ ابن كثير ج ٤ ص ٥٢٥ .

راجع الشفاء شرحى على القارى وخفاجى ج ١ ص ١٢٣ - ١٢٤ .

الفصل الثاني في التطبيق التاريخي

تمهيد :

دلائل النبوة بين ادراك الواعين وتجاهل الغافلين

يذهب ابن خلدون — وهو صاحب باع في التحليل الاجتماعي للتعاشر الإنساني من جميع جوانبه — يذهب إلى أن الأنبياء يوجد لهم قبل النبوة والوحي خلق الخير والذكاء وينسب ذلك إلى مقدمات النبوة ودلائلها^(١).

ولكن بعض المعجبين بالعقل ذاتياً ويفخرون به ينكرون أو يتجاهلون تلك المقدمات ، ويحاولون أمام الكثرة الكثيرة من النصوص التي يرويها ثقات العلماء الذين تسمح لهم ظروف حياتهم في عصورهم باستحقاقهم الأفضلية في العلم والدين . يحاول هؤلاء المتجاهلون أن

(١) مقدمة ابن خلدون ج ١ ص ٣٤٧ تحقيق دكتور علي عبد الواحد ، راجع حول هذا الموضوع الحضري بك تاريخ الأمم الإسلامية ج ١ ص ٦١ ، راجع الإسلام والايمان بفضيلة الدكتور عبد الحليم محمود ص ٢٣١ ط الثانية ١٩٦٩ راجع فتح الباري ج ١٠ ص ٣٤٥ - ٣٥١ .

يشوهوا هذه النصوص إما بادعاء تفاهة المعنى أو أن الإسلام لا يحتاج إلى مثل هذه النصوص ، أو أن السند غير موثوق فيه — ادعاء منهم — الخ ولا يضر الإسلام في قليل أو أكثر هذا الاتجاه بقدر ما يضر سمعة المسلمين أنفسهم أن يتولى هذا التيار بعض علماء الإسلام ومن الأزهري الشريف ولقد تصدى لنموذجية هذه الفكرة فضيلة الدكتور محمد خليل المهراس في تعليقاته على الخصائص الكبرى للإمام السيوطي رحمه الله ولو أنه حدد منهجا للنقد لكان صادقا في وجهته كخط فكري يسير عليه ولكنه اضطرب فتارة عارض فكرة الدلائل وتارة وافق عليها دون أن يلاحظ ما سبق له من تعليق :

ومثال هذا قوله :

١ — المعروف أن العرب كانوا في غفلة عن أمر النبوة وقد حكى القرآن منهم الإنكار الشديد لأن يكون بشر رسول فكيف يطمعون في النبوة لأبنائهم ، نعم هناك نفر قليل من العرب فارقوا وثنياتهم ودخلوا دين النصرانية كأمية ابن أبي الصلت وورقة بن نوفل ، وعبيد الله بن جحش ونحوهم . . . وكان بعضهم يطمع في النبوة كأمية فلما فاتته كفر حسدا (١).

والنص نفسه مغلغل لأنه اعترف بأن أمية بن أبي الصلت كان يطمع في النبوة فلماذا كان يطمع أمية ؟ ألا لأنه كان يسمع عن نبوة خاتمة

(١) الخصائص الكبرى ج ٧ ص ٥٨ حاشية رقم (٢) .

مستكون في العرب ؟ أو مجرد تخيل . . ؟ أليس الأول أحق بالقبول ؟
ومع هذا فان الشيخ نفسه يقول مرتضيا هذا الذي نقله في تعليقه .

٢ — الآية المشار إليها هي قوله تعالى من سورة آل عمران (وإذا
أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول
مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال : أقررتم ، وأخذتم على ذلكم
إصري ؟ قالوا : أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين) ،
وقد اختلف المفسرون في المراد بها فذهب الجمهور إلى القول بأن
الله أخذ الميثاق على كل نبي أنه إن عاش إلى زمان الرسول الذي
يجي بعده أن يؤمن به وينصره لأنهم بعثوا جميعاً بدين واحد فيجب أن
يصدق بعضهم بعضاً ويتناصروا في الدعوة إليه ، وروى عن علي
وابن عباس رضى الله عنهما أن المراد بالآية . أن الله أخذ الميثاق على
جميع النبيين أنهم إن أدركوا زمان محمد صلى الله عليه وسلم أن يؤمنوا
به وينصروه ثم أمرهم أن يأخذوا العهد على أممهم بذلك ولا تعارض^(١) .
وهذه واحدة من علامات النبوة والارهاصات بها .

ويقول في تعليقه على السدى : لم يبعث نبي قط من لدن نوح
إلا أخذ الله ميثاقه ليؤمنن بمحمد ، لينصرنه إن خرج وهو حي . . .
الحديث :

(١) الخصائص الكبرى ج ١ ص ١٤ حاشية رقم (٢) .

قال الشيخ الحراس :

١ - هذا موافق لما رويناه من تفسير على وابن عباس رضى الله عنهما^(١).

وهذا الحديث صريح فى الارهاص بنبوته سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

ويقول كذلك : لاشك أن التوراة والإنجيل كانا مشتملين على كثير من نعوته صلى الله عليه وسلم ونعت أمته والكتاب المنزل عليه وكان فيها تحديد زمان مبعثه حتى إن اليهود والنصارى قبيل البعثة كانوا يبشرون بقرب ظهوره ولكنهم لما بعث حسدوا العرب على ذلك الفضل فجمعوا كثيرا من هذه النعوت^(٢) . ١ هـ .

وتلك واحدة من الدلائل واعتراف بأنه اليهود بشروا بها .

ويقول : الآية صريحة فى أن اليهود كانوا ينتظرون مبعثه - صلى الله عليه وسلم - ويتهددون به من يقاتلهم من العرب ، ومعنى يستفتحون كما قال ابن جرير يستنصرون بخروج محمد على مشركى العرب فلما بعث الله محمدا ورأوه من غيرهم كفروا به وحسدوه^(٣) .

(١) الخصائص الكبرى ج ١ ص ٢٢ حاشيته رقم ١ .

(٢) الخصائص الكبرى ج ١ ص ٢٦ حاشيته رقم ١ .

(٣) الخصائص الكبرى ج ١ ص ٥٧ حاشيته رقم ١ .

وإذن فالعرب كانت تعرف من هذا التحدى أن هناك نبياً سيبعث
واسمه محمد .

ويقول كذلك :

٢ — قال ابن قتيبة ، كان زيد رغب عن عبادة الأوثان وطلب
الدين الخفيف حتى وقع على رجل بالجزيرة فوصف له دين إبراهيم
وقال : ارجع إلى بلادك فقد دنا خروج نبي فاذا خرج فاتبعه ثم
رجع إلى الشام فقتله النصارى (١) .

وتلك كذلك من بشائر النبوة وعلاماتها وإذن فلم تكن العرب
على غفلة من أمر النبوة بدليل ما قاله الشيخ نفسه فيما نقل عنه هنا
أما تعليقه لغفلة العرب بإنكارهم الشديد للرسالة فهو محل نظر ، لأن
صاحب الدرر نفي إنكارهم بأدنى بدء وأثبت اعترافهم بالإيحاء إلى
محمد صلى الله عليه وسلم ولكنهم عاندوه عندما سفه أحلامهم وسب
آلهتهم قال في كتاب الدرر : « فاستجاب له ما شاء الله من الأحداث
والكهول وضعفة الناس حتى كثر من آمن به وصدقه وكفار قريش
غير منكرين لما يقول ، يقولون إذا مر عليهم : إن غلام بنى هاشم
هذا ويشيرون إليه — ليكلم * زعموا * من السماء ، فكانوا على
ذلك حتى عاب آلهتهم التي كانوا يعبدون ، وذكر هلاك آباءهم الذين

(١) الخصائص الكبرى ج ١ ص ٦٠ .

ماتوا كفاراً ، فغضبوا لذلك وعادوه ، فلما ظهر الإسلام وتحدث به المؤمنون أقبلوا عليهم يعذبونهم^(١) . . . إلخ » .
فضاعت بذلك العلة التي استند إليها فضيلة الشيخ الهراس في نفيه للعلامات .

والدكتور الهراس يسلم بالأحاديث التي تدل على الإرهاص بالنبوة فهو يعلق في ص ٢٤٤ على حديث : أني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم على قبل أن أبعث اني لأعرفه الآن ، بقوله :
نطق الجهادات له عليه السلام من جملة معجزاته الثابتة في الصحيح إلخ .

وذلك تسليم بمبدأ الإرهاصات ويعلق على حديث عمر : بينما أنا نائم عند آلهم إذ جاء رجل بعجل فذبحه فصرخ منه صارخ لم أسمع صارخاً قط أشد صوتاً منه يقول : يا جليح امر نجيح رجل نصيح يقول : لا اله الا الله فوثب القوم ، قلت لا أبرح حتى أعلم ماوراء هذا ، ثم نادى كذلك الثانية ، — والثالثة فما نشبنا أن قيل هذا نبي يقول الشيخ الهراس في تعليقه على هذا : رواه البخاري عن عمر في باب إسلام عمر^(٢) . . . ويسكت فهل لظنه في ص ٢٠١ محل بعد ذلك؟

(١) الدرر في اختصار المغازي والسير لابن عبد البر ص ٣٨ راجع الطبقات الكبرى ج ١ ص ١٩٩ الحلبية ج ١ ص ٣٢٢ .
(٢) الخصائص الكبرى ج ١ ص ٢٥٢ .

ومع هذا فان سنة الله تعالى مع أنبيائه هي كذلك دائماً أن يمهّد لهم بإرهاصات تسبق الإعلام بنبوّتهم ومن امثلة ذلك ؟.

١ - الارهاص لآدم عليه السلام :

(واذا قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة) قال الشيخ السبكي رحمه الله : أدرك الملائكة من هذا أو من امارات بجانب هذا النبأ أن ذلك تنويه بما سيكون لآدم في هذا العالم . . . ثم قال : فذلك ارهاص مبكر تنبه له الملائكة ^(١) : : الخ .

٢ - الارهاص لاسماعيل عليه السلام :

(فبشرناه بغلام حليم ، فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى ؟ قال : يا أبتى افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين ، فلما أسلما وتله للجبين ، وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين) ١٠١-١٠٥ من سورة الصافات .

يقول الشيخ السبكي رحمه الله : وبعد ذلك أذن الله بإرهاصة ثانية لإسماعيل وهي موقفه من أبيه حينما أخبره بما أوحى إليه من ذبحه قربانا إلى الله :
إِ

(١) الوحي إلى الرسول محمد صلى الله عليه وسلم لفضييلة الشيخ عبد اللطيف السبكي

ويقول رحمه الله : ثم كانت ارهاصة الثالثة مذكورة في قوله تعالى :
(وعهدنا إلى ابراهيم واسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع
السهجود) ١٢٥ من سورة البقرة . فإن يكن تطهير مكان البيت
الحرام وإقامة بنائه عهدا من الله تعالى إلى ابراهيم وتلك رسالته وهو
نبي مبعوث فإن هذا بالنسبة إلى إسماعيل إرهاب واضح من جانب
الله بما سيكون له من شأن بعد ذلك وقد كان وتحققت رسالته بعد
تلك الملامح السالفة : (١) .

٣ - الارهاص لاسحق ويعقوب عليهما السلام :

(وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب)
٧١ من سورة هود .

فبشرى الملائكة لإبراهيم إرهاب بولد وحفيد له هما إسحق ويعقوب
وتضمنى آيات كثيرة في القرآن تصور الارهاصات للأنبياء .

٤ - فالارهاص لسيدنا يوسف في قوله تعالى :

(إذ قال يوسف لأبيه يا أيت إني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس
والقمر رأيتهم لى ساجدين . قال يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك
فيكيدوا لك كيذا إن الشيطان للإنسان عدو مبين) ٣-٤ يوسف .

ويشاء الله تعالى أن تتم هذه الارهاصات وتحدث وقائعها وتتحقق الرؤيا
ويكون ختامها (فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا

(١) - (٢) راجع ص ١٢ - ١٥ الوحي إلى الرسول محمد صلى الله عليه
وسلم .

مصر إن شاء الله آمنين ، ورفع أبويه على العرش ونحروا له سجدا
وقال ياأبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا وقد أحسن
بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان
بيني وبين اخوتي إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم (
الآيات ٩٩-١٠٠ من سورة يوسف .

ه - وهكذا الارهاص لسيدنا موسى :

(وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم
ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين) الآية
٧ سورة القصص .

٦ - ومثله سيدنا عيسى :

(إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى
ابن مريم وجيها في الدنيا والآخرة ، ومن المقربين ، ويكلم الناس
في المهد وكهلا ومن الصالحين ، قالت ، ربي أنى يكون لى ولد ولم
يمسسنى بشر ، قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً فانما يقول
له كن فيكون .) الآيات ٤٥-٤٧ من سورة آل عمران .

فصار الحديث الآن عن دلائل النبوة أو الإرصاهات لها أو علاماتها
حديثاً غير منكر بل هى سنة من سنن الله التى منها لكثير من أنبيائه
وقد اتفق الموافقون والمعارضون فيما يتعلق بالإرصاهات على أن سيدنا
محمد صلى الله عليه وسلم قد سبق اسمه ونعته فى الكتب السابقة وتلك من
علامات النبوة ودلائلها .

ولم ينسكروا واحد من المؤرخين أو المحدثين ما قال (١) بحيرا لأبي طالب عندما شاهد النبي صلى الله عليه وسلم وهو في سفرته الأولى إلى الشام وكلام بحيرا كلام فقيه من أهل الكتاب وتلك كذلك من علامات النبوة .

قال في المواهب اللدنية ، اخرج البيهقي من طريق العلاء بن جارية الثقفى عن بعض أهل رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أراد الله كرامته وابتدأه بالنبوة كان لا يمر بحجر ولا شجر إلا سلم عليه وسمع منه فيلتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم خلفه وعن يمينه وعن شماله فلا يرى إلا الشجر وما حوله من الحجارة وهى تحييه بتحية النبوة التى لم تكن معروفة قبلها لإكراماً وإعلاماً بأنه سيوحى إليه بالرسالة (٢) .

قال ابن الأثير فى كتابه : الكامل فى التاريخ :

وكان صلى الله عليه وسلم قبل أن يظهر له جبريل يرى ويعاين آثار من آثار من يريد الله إكرامه بفضله ، وكان من ذلك ما ذكرت من شق الملكين بطنه واستخراجهما ما فى قلبه من الغل والدنس ،

(١) راجع الطبقات الكبرى لابن سعد ج ١ ص ١٥٥ ، ١٥٦ .

(٢) راجع شرح المواهب للزرقانى ج ١ ص ٢١٩ .

راجع كذلك اعلام النبوة ص ١٥٢ ، دلائل النبوة للبيهقى تحقيق عبد الرحمن محمد ص٦٨ ط أولى ، ج ١ ص ٤٠٢ .

ومن ذلك أنه كان لا يمر بحجر ولا شجر إلا سلم عليه فكان يتلفت
يميناً وشمالاً فلا يرى أحداً ، وكانت الأمم تتحدث بمبعثه وتخبّر علماء
كل أمة قومها بذلك ^(١) .

وقد عقد الشيخ محمد بن سعد في كتابه الطبقات الكبرى فصلاً
كاملاً تحت عنوان ، ذكر علامات النبوة في رسول الله صلى الله عليه
وسلم قبل أن يوحى ^(٢) إليه ومثله في السيرة الحلبية : إنسان العيون في سير
الأمين المأمون ^(٣) ضمنه عديداً من الدلائل التي تعي البيئة وتهيئها
لاستقبال بعثته الشريفة صلى الله عليه وسلم والامام العلامة أبو الحسن بن
محمد الماوردي يقدم لهذه الدلائل بمنطق متزن فيقول في كتابه
(أعلام النبوة) : العقل الهى ركه الله تعالى في النفوس الناطقة فهو
ينذر بالخواص الكائنة حدثاً ويعلم بعد الوجود حساً ففعل حادث
إلا تقدم نذيره وبحسب خاطره يكون تأثيره ولا حادث أعظم مما
جدده الله تعالى بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم فاقضى أن تكون
بشائر نبوته أشهر وشواهد آياته أظهر ^(٤) .

(١) الكامل في التاريخ ج ٢ ص ٤٦ .

(٢) الطبقات الكبرى ج ١ ص ١٥٠ - ١٦٨ ط بيروت .

(٣) ج ١ ص ٢١٦ ، ٢٥٧ . (٤) اعلام النبوة ص ١٠٣ .

قال في حجة الله البالغة :

وكذلك الأنبياء صلوات الله عليهم يجلبون على هذه الصفات ويندفعون إليها فطرة فطرهم الله عليها : ذكره إبراهيم عليه السلام في دعائه وبشر بفيخامة أمره ، وبشر به موسى وعيسى عليهما السلام وسائر الأنبياء صلوات الله عليهم . ورأت أمه كأن نوراً خرج منها فأضياء الأرض فعبرت بوجود ولد مبارك يظهر دينه شرقاً وغرباً وهتف الجن وأخبرت الكهان والمنجمون بوجوده وعلو أمره ودلت الوقعات الجوية كأنكسار شرفات كسرى على شرفه واحاطت به دلائل النبوة كما أخبر هرقل قيصر الروم ورأوا آثار البركة عند مولده وارضاعه وظهرت الملائكة فشقت عن قلبه فملائته إيماناً وحكمة وذلك بين عالم المثال والشهادة فلذلك لم يكن الشق عن القلب اهلاكا وقد بقي منه أثر الخيط وكذلك كل ما اختلط فيه عالم المثال والشهادة ولما خرج به أبو طالب إلى الشام فرآه الراهب شهد بنبوته لآيات رآها فيه (١) :

يقول شيخنا فضيلة العارف بالله الدكتور عبد الحليم محمود : لقد كانت حياته صلوات الله وسلامه عليه شرحاً مستفيضاً وتوضيحاً كاملاً وتعبيراً تاماً لما ذكره ابن خلدون وما يتفق عليه العقلاء ويجمع عليه أصحاب البصائر المستنيرة من أن ذلك من علامات النبوة (٢) . :

(١) حجة الله البالغة ج ٢ ص ٨٦٢ ، ٨٦٣ .

(٢) الرسول صلى الله عليه وسلم لمحات من حياته ونفحات من هدية الكتاب =

ولهذا آثرت أن أقدم عدة نماذج لبعض الذين عاشوا في بيئة الدلائل ثم شرفوا بمشاهدة أنوار النبوة ليحدث التطابق بين التهيئة والاستجابة إيجاباً أو سلباً ، « فانك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء » فتكون تلك هي الخط الفاصل والدليل المستبين على صدق مرحلة التمهيد وأهميتها في توعية المجتمع ليستقبل النور الذي بعثه الله رحمة للعالمين .

واختتم هذا الحديث بما رواه الإمام الزهري رضي الله عنه : كان الوحي يستمع ، فلما كان الإسلام منعوا وكانت امرأة من بني أسد يقال لها سعيير لها تابع من الجن فلما رأى الوحي لا يستطيع أتاها ^{فدخل} في صدرها وجعل يصيح وضع العناق ، ورفع الرقاق ، وجاء أمر لا يطاق ، أحمد حرم الزنا^(١) ؟

روى الماوردي عن عامر بن ربيعة قال : سمعت زيد بن عمرو بن نفيل يقول : أنا انتظر نبياً من ولد إسماعيل من بني عبد المطلب ولا أراي أدركه وأنا أومن به وأصدقه وأشهد انه نبي فان طالت بك مدة فرأيت فاقراه مني السلام وساء خبرك مانعته حتى لا يخفى عليك

= الرابع عشر من سلسلة البحوث الإسلامية ص ٦١ دكتور عبد الحليم محمود ، راجع

حول هذا رأى الأمام ابن حجر في فتح الباري ج ١ ص ٤٦ .

(١) الخصائص الكبرى ج ١ ص ٢٧٧ تحقيق الدكتور الهراس ، راجع نسيم

الرياض على شرح القاري ج ٣ ص ٢٧٣ التفتاء .

قلت : هلم ، قال : هو رجل ليس بالقصير ولا بالطويل بل ولا بكثير الشعر ولا بقليله وليس يفارق عيذه حمرة وخاتم النبوة بين كتفيه واسمه أحمد وهذا البلد مولده ، ثم يخرجهم قومه منها ويكرهون ما جاء به حتى يهاجر إلى يثرب فيظهر أمره فأياك أن تخدع عنه فأني طفت البلاد كلها أطلب دين إبراهيم فكل من أسأله عنه من اليهود والنصارى والمجوس يقولون هذا الدين وراءك وينعتونه مثل ما نعت لك ويقولون لم يبق نبي غيره ، قال عامر : فلما أسلمت أخبرت رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول زيد وأقرأته منه السلام فرد عليه السلام وترحم عليه وقال : قد رأيته في الجنة يسحب الديول^(١) .

وفي البخاري :

لما بنيت الكعبة ذهب النبي صلى الله عليه وسلم والعباس ينقلان الحجارة فقال العباس للنبي صلى الله عليه وسلم اجعل ازارك على رقبتك يقلك من الحجارة ، فخر إلى الأرض وطمحت عيناه إلى السماء ثم أفاق فقال :

« ازارى ازارى فشد عليه ازاره » .

(١) اعلام النبوة للماوردي ص ١١٠ راجع كذلك السيرة النبوية لابن كثير ج ١ ص ١٥٩ ، راجع البخاري باب بناء الكعبة ج ٨ ص ١٤٦ ، راجع شرح على القاري على الشفاء ونسيم الرياض ج ٣ ص ٢٨٠ .

وذكر ابن حجر في شرحه لهذا الحديث رواية أخرى : لقد رأيتني في غلمان من قریش ننقل حجارة مما تلعب به الغلمان كلنا قد تعرى وأخذ إزاره — فجعله على رقبته يحمل الحجارة إذ لسمني لاكم ماأراه ثم قال : اشد عليك إزارك ، قال : فشدته على ثم جعلت أحمل ، وزارى على من بين أصحابي^(١) أ هـ .

وفي الآية السكرمة :

(وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً ، وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً) .

فيصل الأمر بين حجة القابلين للارهاصات وتكبر الرافضين لها فقد دلت الآية بالصرحة على أن مقاعد الجن لاستراق السمع قد حوصرت حفاظاً على وحى القرآن للنبي الكريم وتلك المحاصرة الشديدة بالشهب المحرقة للجن إرهاباً بالنبوة جعل الجن يتساءل : (وأنا لاندري أشتر أريد بمن في الأرض ، أم أراد بهم ربهم رشداً^(٢)) وكان رشداً للناس جميعاً والحمد لله رب العالمين .

(١) فتح الباری ج ٨ ص ١٤٦ ، ١٤٧ ، راجع المنتخب من السنة المجلد الثاني ص ١٠٧ .

(٢) راجع ابن كثير ج ١ ص ٤٣٩ تفسير القرآن العظيم ، راجع الشفاء ج ٣ ص ٢٧٩ ، راجع الدرر ص ٣٦ الحلبيّة ج ١ ص ٢٤٤ ، راجع التاج الجامع الأصول في أحاديث الرسول ج ٣ ص ٢٤٦ - ٢٥٠ .

(أ) شهادة العشير

(كلا والله ما يخزيك الله أبدا ، نك لتصل الرحم ، وتحمل
الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب
الحق ، وتصدق الحديث ، وتؤدي الأمانة^(١) .

أبشر يا ابن العم وأثبت ، فوالذي نفس خديجة بيده ، لأرجو
أن تكون نبى هذه الأمة^(٢) .

من أول الأمر تقول السيدة خديجة رضى الله تعالى عنها ذلك القول
لرسول الله صلى الله عليه وسلم عندما عاد من حراء يخبرها بما حدث
من أمر الوحي .

فهل كان قولها مجرد عاطفة نبيلة من زوجة وفيه نحو زوجها ؟ :
لما بينهما من روابط الأسرة ؟

هل كان قولها تعصبا من سيدة وفية ترجو مجدا ما لزوجها ؟
هل هو مجرد رأى ؟ أو للمسألة جذور عميقة عرفت بها خديجة
[نورانية هذا المستقبل وكانت ترقبه وتعمل له ؟]

(١) فتح البارى ج ١ ص ٢٧ ، ٢٨ مثنا وشرحا الطبقات الكبرى ج ١
ص ١٩٥ .

(٢) السيرة لابن كثير ج ١ ص ٤٠٤ .

لقد عاشت خديجة عمرها تنتظر هذا اليوم وكانت تعرفه وتستعد له وبحث عن ذلكم الرجل الذي قالوا عنه انه النبي الخاتم المنتظر : : :
وخديجة مجمع عليها في التاريخ :

إنها كانت حازمة عاقلة شريفة لقبت في الجاهلية بالطاهرة وإنها كانت كريمة المنبت رفيعة المحتد .

وإنها كانت أمنية كبار القوم لو وجدوا إلى ذلك سبيلا^(١) .

ومع هذا فقد رغبت عن الرجال مع ما لها من الجمال والحسب ،
والمال والسمعة الطاهرة الشريفة ، فلماذا ؟ .

إن ظاهرة عدم زواج سيدة مثلها في البيئة القبلية يثير تساؤلا . : ؟
لماذا رغبت السيدة خديجة عن الزواج رغم ما تملكه من الإمكانيات
وتهافت العظماء من الرجال عليها ؟

والجواب أنها بعد حياتين عاشتهما مع رجلين^(٢) من كبارات قريش
لم تجد فيهما علامات النبوة ، لم تشأ أن تتسرع بقبول واحد آخر من
العظماء ما لم تكن امارات النبوة التي تسمع عنها قد بدت لها .

(١) السيرة لابن كثير ج ١ ص ٢٦٣ ، الحليية ج ١ ص ١٦٣ . طرح المواهب
اللدنية ج ١ ص ١٩٩ ، ٢٠٠ ، تاريخ الطبري ج ٢ ص ٢٨١ ، الطبقات الكبرى
لابن سعد ج ١ ص ١٣١ ، الكامل في التاريخ ج ٢ ص ٤٠ ، ابن هشام ج ١ ص ١٨٩
الوفاء ج ١ ص ٤٤ محمد رسول الله اتين دينيه ص ٩٧ .

(٢) الوفاء ج ١ ص ١٤٥ .

يحدثنا الإمام الماوردي : أنه كان لقريش في الجاهلية عيد يجتمع فيه النساء دون الرجال ، فاجتمعن فيه فوقف عليهن يهودى وفيهن خديجة ، فقال لهن ، يامعشر نساء قريش ، يوشاك أن يبعث فيكن نبي فأمكن استطاعت أن تكون له أرضا فالتفعل فحصبته ، ووقر ذلك في نفس خديجة حتى حققه (١) الله لها .

وحول هذا يروى الإمام السيوطي في الخصائص : ان نساء أهل مكة اختلفن في عيد كان لهن في رجب فبيناهن عكوف عند وثن مثل لهن كرجل حتى صار منهن قريبا ، ثم نادى بأعلى صوته : يا نساء تيماء ، انه سيكون في بلدكن نبي يقال له : أحمد ، يبعث برسالة الله فأما امرأة استطاعت أن تكون زوجا له فالتفعل ، فحصبته النساء وقبحته وأغاظن له ، وأغضت خديجة على قوله ولم تعرض له فيما عرض له النساء (٢) .

فهى إذن تدرك أن نبيا سيبعث وإنها ترى من كياستها وعقلها ، وحزمها أهلية لتحمل شرف العمل معه لدين الله ، يؤكد لنا هذا صاحب السيرة الحلبية : والسبب في ذلك أى في عرض خديجة رضى الله تعالى عنها نفسها عليه صلى الله عليه وسلم أيضا مع ما أراد الله تعالى

(١) اعلام النبوة لأبي الحسن على الماوردي ص ١٠٥ شرح المواهب اللدنية ج ١ ص ٢٠٠ راجع الوفا ج ١ ص ٦١ .

(٢) الخصائص الكبرى ج ١ ص ٢٢٧ الحلبية ج ١ ص ١٦٦ .

يها من الخير ما ذكره ابن اسحق قال : كان لنساء قريش عيد يجتمعن فيه في المسجد فاجتمعن يوما فيه فجاءهن يهودى وقال :

يا معشر نساء قريش انه يوشك فيمكن نبى قرب وجوده فأيتكن استطاعت أن تكون فراشا له فلتفعل ، فحصبته النساء أى رمينه بالحصباء وقبحنه وأغلظن له ، وأغضت خديجة على قوله ووقع ذلك في نفسها فلما أخبرها ميسرة بما رآه من الآيات وما رأتها هى أى وما قاله لها ورقة لما حدثته بما حدثها به ميسرة مما تقدم قالت : إن كان ما قاله اليهودى حقا ماذاك إلا هذا . . . (١) .

ويوضح ذلك الموقف : أن السيدة خديجة رضى الله عنها ذكرت للنبي صلى الله عليه وسلم الأسباب التى جعلتها تختاره للوكالة عنها فى إدارة تجارتها ومضاعفتها له الأجر : دعانى إلى البعثة إليك ما بلغنى من صدق حديثك ، وعظم أمانتك وكرم أخلاقك وأنا أعطيتك ضعف ما أعطى رجلا من قومك^(٢) وفى أثناء الحل والترحال والبيع والشراء والسفر والإقامة شاهد ميسرة من علامات النبوة ما شاهد .

لقد شاهد الراهب نسطورا وهو يقبل رأس محمد صلى الله عليه وسلم ويقول : آمنت بك وأنا أشهد انك الذى ذكره الله فى التوراة .

(١) الحلبية ج ١ ص ١٦٦ ، راجع كذلك المواهب اللدنية ج ١ ص ٢٠٠ .

(٢) الحلبية ج ١ ص ١٥٨ ، شرح المواهب اللدنية ج ١ ص ١٩٨ ابن هشام

ج ١ ص ١٨٨ ، الطبرى ج ٢ ص ٢٨٠ الكامل فى التاريخ ج ٢ ص ٣٩ .

وسمع ميسرة من الرجل المشتري الذى اختلف مع النبي صلى الله عليه وسلم فى ثمن سلعة فطلب إليه أن يحلف باللات والعزى فرفض عليه السلام فقال الرجل لميسرة : هذا نبي والذى نفسى بيده انه هو الذى تجده أحبارنا منعوتا فوعى ميسرة ذلك .

وشاهد ميسرة كيف سلم البعيران من المرض الذى حاق بهما بعد أن وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على أخفاهما^(١) .

وشاهد ميسرة فى الهاجرة ملاكين يظلاله فى الشمس وشاهدت ذلك خديجة عند أوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان لديها فقه بالمسألة ، وكان — عندها عزم حازم على الوصول إلى هذا النبي يدل على ذلك أيضا أنها لما رأت الغمامة تظل النبي صلى الله عليه وسلم عند رجوعه بالتجارة أرادت أن — تثبت من هذه الإرهاصة هل هى لمحمد وحده إذ فى القافلة رجلان : محمد وميسرة فلمن كانت الغمامة ؟ فلما وصلى النبي صلى الله عليه وسلم إلى دارها وهى تنتظره فى عليه لها طلبت إليه أن يعود ليسرع بإيات ميسرة فلما رجع ليستعجل ميسرة رجعت السحابة تظله .

(١) الحليبة ج ١ ص ١٦٠ ، شرح المواهب ج ١ ص ١٩٨ ، ١٩٩ ، راجع حول هذا شرح على القارى ونسيم الرياض على الشفاء ج ٣ ص ٢٨٠ .

يروى صاحب انسان العيون ذلك فيقول :

وقدم حتى دخل مكة في ساعة الظهيرة وخديجة في عليّة مع نساء
فرأت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دخل وهو راكب على
بعيره ومكان يظلان عليه فأرته نساءها فعجبن لذلك ودخل عليها
رسول الله صلى الله عليه وسلم — فخبّرها بما ربّحوا وهو ضعف ما كانت
تربح فسرت بذلك وقالت : أين ميسرة ؟ قال : خلفته في البادية ،
قالت عجل بالاقبال . . . وانما أرادت أن تعلم : أهو الذي رأّت أم
غيره ؟ فركب رسول الله صلى الله عليه وسلم وصعدت خديجة تنظر
فرأته على الحالة الأولى ، فاستيقنت انه هو فلما دخل عليها ميسرة
أخبرته بما رأّت فقال لها ميسرة : قد رأيت هذا منذ خرجنا من الشام
وأخبرها ميسرة بقول الراهب نسطورا وقول الذي خالفه في البيع
وقصة البعيرين وحينئذ أعطت خديجة له صلى الله عليه وسلم ضعف
ما سمته له^(١).

والنص يعطينا حقيقة :

وهي بيت القصيد : أن السيدة خديجة رضى الله عنها كانت تتبع
أوصاف الرسول صلى الله عليه وسلم لتثبت منه : أهو النبي المنتظر ؟

(١) الخلية ج ١ ص ١٦٠ ، ١٦١ محمد رسول الله ، راجع الشفاء ج ٣ ص ٢٨٠ ،

٢٨١ — شرح على القارى ، ونسيم الرياض .

وتريد السيدة خديجة أن تثبت من هذه الأوصاف فتذهب إلى ورقة
ابن نوفل للقرابة بينهما ولشهرته العلمية في المجتمع الجاهلي الأول يقول
ابن هشام :

وكانت خديجة بنت خويلد قد ذكرت لورقة بن نوفل بن أسد بن
عبد العزى ، وكان ابن عمها وكان نصرانيا قد تتبع الكتب وعلم
من علم الناس ، ما ذكر لها غلامها ميسرة من قول الراهب وما كان
يرى منه إذ كان الملك يظلمه فقال ورقة : لئن كان هذا حقاً يا خديجة
إن محمداً لنبي هذه الأمة وقد عرفت انه كائن لهذه الأمة نبي ينتظر
هذا زمانه^(١).

فتجمع لدى خديجة الآن عدة وثائق :

١ — مشاهدتها هي للسحاب الذي أظله .

٢ — اختبارها لهذه الحقيقة والتأكد من ارتباطها بشخصية رسول
الله صلى الله عليه وسلم .

٣ — تعجب نساءها مما شاهدن :

٤ — اخبار ميسرة بما رأى وما شاهد وما سمع :

(١) ابن هشام ج ١ ص ١٩١ ، ابن كثير ج ١ ص ٢٦٨ ، الحلبية ج ١
ص ١٦٢ .

٥ - اغتباط ورقة عما سمعه من خديجة :

٦ - الشئى العطر لسيرة محمد صلى الله عليه وسلم فى قومه .

وهذه الحقائق كلها ترجع لديها أن صفات النبوة التى تبشر بها جماعات أهل الكتاب لا توجد إلا فى محمد صلى الله عليه وسلم وإذن فقد حان لها أن يكرمها الله مع ما لها من رجاحة العقل ومضاء العزم أن تتقدم هى لخطبة محمد : تتقدم بنفسها أو بأختها هالة ، أو بغلامها ميسرة ، أو بصديقتها نفيسة بنت منية^(١).

تتقدم هى أو بكل هؤلاء . . . انها الآن وهى راجحة العقل ماضية العزم تتأكد أن أوصاف النبوة التى سمعت عنها قديماً قد اجتمعت فى محمد عليه الصلاة والسلام فلتتخذ لذلك كل سبيل فانما هى الطاهرة وهو الأمين وبين الإشراف والإطهار مودة ونسب وجل الله العلى العظيم إذ يقول : (والطيبات للطيبين ، والطيبون للطيبات)^(٢) وهو بدء بالطيبات لما بدأت السيدة خديجة . . . وتلحق خديجة الطاهرة فى سنّها الذى يؤهلها لتكون لباساً للنبي الخاتم ببیت محمد صلى الله عليه وسلم فتكون أعظم بيت فى الوجود الإنسانى . . . وترقب خديجة

(١) راجع شرح المواهب اللدنية ج ١ ص ٢٠٠ الطبقات الكبرى لابن سعد ج ص ١٣١ الحلبية ج ١ ص ١٦٣ ، ١٦٤ دلائل النبوة للبيهقى ج ١ ص ٣٤١ أعلا النبوة ص ١٠٩

(٢) من الآية رقم ٢٦ سورة النور . .

ذلك اليوم وتذكره دائماً فيما يقصه ابن حجر . . « فأخذت بيده فضمتها إلى صدرها ونحرتها ثم قالت : بأبي وأمي ، والله ما أفعل هذا الشيء ولكني أرجو أن تكون أنت النبي الذي سيبعث فإن تكن هو فأعرف حقى ومنزلتى وأدع الإله الذي سيبعثك لي ، قالت فقال لها : والله لأن كنت أنا هو قد اصطنعت عندي مالا أضيعه أبدا وإن يكن غيري فإن الإله الذي تصنعين هذا لأجله لا يضيعك أبدا^(١) » .

وكان أمر الله مفعولا . . . فبعد خمسة عشر عاما من هذا البناء الأسرى السامى المقدس كانت السيدة خديجة في أثنائها تستعجل مشرق النبوة . . . جاءت البشائر الأولى فيما يقصه ابن هشام :

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أراده الله بكرامته وابتدائه بالنبوة كان إذا خرج لحاجته أبعد حتى تحسر عنه البيوت ويفضى إلى شعاب مكة وبطون أوديتها فلا يمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بحجر ولا شجر إلا قال : السلام عليك يا رسول الله ، قال : فيلتمت رسول الله صلى الله عليه وسلم حوله وعن يمينه وشماله وخلفه فلا يرى إلا الشجر والحجارة فكث رسول الله صلى الله عليه وسلم كذلك يرى ويسمع ما شاء الله أن يسمعك^(٢) .

(١) فتح البارى ج ٨ ص ١٣٣ الحلبي ج ١ ص ١٦٦ .

(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٣٥ الحلبي ج ١ ص ٢٥٧ ، ٢٥٨ شرح المواهب

ج ١ ص ٢١٩ .

وفى هذه الاثناء كانت تبدو له أحوال : منها ما أخرجه السيوطى عن البيهقى وأبو نعيم من طريق موسى بن عقبة عن ابن شهاب قال : بلغنا أن أول ما رأى النبي صلى الله عليه وسلم أن الله أراه الرؤيا فى المنام فشق ذلك عليه فذكرها لخديجة فقالت : أبشر فإن الله لن يصنع بك إلا خيرا^(١) .

ويضيف صاحب السيرة الحلبية شرحا لهذا . . أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لخديجة : إذا خلوت سمعت نداء : أن يا محمد يا محمد وفى رواية أرى نورا ، وأسمع صوتا وقد خشيت أن يكون والله لهذا أمر . . . فقالت : كلا يا ابن عم ما كان الله ليفعل ذلك بك فوالله انك لتؤدى الامانة وتصل الرحم وتصدق الحديث وفى رواية ، ان خلقت الكريم أى فلا يكون للشيطان عليك سبيل .

استدللت رضى الله تعالى عنها بما فيه من الصفات العلية والأخلاق السنية على انه لا يفعل به إلا خير لأن من كان كذلك لا يجزى الا خيرا^(٢) . والسيدة خديجة مع تأكيدها من صدق ما يعيش فيه النبي صلى الله عليه وسلم من الأحوال لكنها حازمة عاقلة تريد أن تثبت من الأمور على المستوى الفكرى العالى فتطلب هذه المرة من أبى بكر الصديق رضى الله عنه أن يذهب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ورقة :

(١) الخصائص الكبرى ج ١ ص ٢٣١ . (٢) الحلبية ج ١ ص ٢٧٠ .

لقد ذهبت المرة الأولى عندما أخبرها ميسرة وقال لها ورقة ،
لئن كان هذا حقاً يا خديجة إن محمداً لنبي هذه الأمة . . . وبناء
على هذا الفرض تزوجته خديجة .

ففي السيرة لابن كثير :

أبشر فوالله لقد كنت أعلم أن الله لن يفعل بك الا خيراً ، وأشهد
أنك نبي هذه الأمة الذي تنتظره اليهود قد أخبرني به ناصح غلامى
وبحيرا الراهب وأمرني أن أتزوجك منذ أكثر من عشرين سنة^(١) .

واليوم وبعد خمسة عشر عاماً تبدو أحوال هي علامات خاصة
تريد أن تتأكد منها هل هي امتداد لما شاهدته منذ خمسة عشر عاماً
مضت ؟

ويمضيان معا محمد صلى الله عليه وسلم ، وصديقه أبو بكر ويقص
رسول الله صلى الله عليه وسلم حاله على ورقة :

إني إذا خلوت وحدي سمعت نداء خافى ، يا محمد يا محمد فانطلق
هارباً في الأرض ، فيقول له ورقة : لا تفعل إذ أذاك فاثبت حتى
تسمع ما يقول لك ثم اثني فأخبرني .

ثم يسمع ما شاء الله أن يسمعه إياه فيأتى ورقة فيقول له : أبشر
ثم أبشر فأنا أشهد أنك الذى بشر بك ابن مريم وأنتك على مثل ناموس

موسى وأنتك نبي مرسل وأنتك ستؤمر بالجهاد بعد يومك هذا ، ولئن أدركنى ذلك لأجاهدن معك^(١) .

وتستمر الرؤيا الصادقة وتأتى اللحظة الحاسمة ويظهر جبريل بالنبوة وتنكشف الأحوال المستورة وتؤمر بالقراءة ويرجع بها فرحاً^(٢) خائفاً أن يشتغل بغير^(٣) ربه ويخبر بخديجة بالأمر فتقول له فى إيمان وثقة ومعرفة وفرحة كانت ترقبها وترجوها : إنك لتصل الرحم :

وتحمل الكل :

وتكسب المعدوم :

وتقرى الضيف :

وتعين على نوائب الحق :

فتنطلق بقواعد العدالة الاجتماعية فى النظام الإسلامى لأنها عاشت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مثل هذا المستوى الرفيع الذى يحمل الكل ويكسب المعدوم ويقرى الضيف ويعين على نوائب الدهر .

(١) السيرة لابن كثير ج ١ ص ٣٩٨ ، ٣٩٩ شرح المواهب ج ١ ص ٢٢١ - أسباب النزول للواحدى ص ١٧ .

(٢) الخصائص الكبرى ج ١ ص ٢٣٢ .

(٣) شرح المواهب ج ١ ص ٢٢١ .

ولكن المسألة عند السيدة خديجة لم تنته، لأنها تلاحظ وتختبر الظواهر والملاحظات حقيقة أن المستوى الأخلاقي والوجداني في محمد صلى الله عليه وسلم فذ فريد فليس هناك رجل مطلقاً على مثاله أو يقرب منه.

ولكن السيدة خديجة عاشت حياتها تنتظر هذا اليوم فهل حقاً محمد صار نبياً . . ؟

أخبار الأحرار والرهبان والكهان وأهل النظر مستفيضة تتنبأ بظهور نبي قرب زمانه ، فهل الذي جاء إلى محمد هو الوحي ؟
فله تجرب ثم لتختبر التجربة ويروى البخارى مع ورقة بعد نزول جبريل : فيقول :

فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة وكان امرأ تنصر في الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبراني ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب وكان شيخاً كبيراً قد عمى ، فقالت له خديجة : يا ابن عم اسمع من ابن أخيك ، فقال له ورقة يا ابن أخي ، ماذا ترى ، فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى فقال له ورقة ، هذا الناموس الذي نزل الله على موسى باليتنى فيها جزعاً ، ليتنى أكون حياً إذ يخرجك قومك . . . (١) .

(١) فتح البارى ج ١ ص ٢٧ ، ٢٨ .

وفي الخصائص أنها ذهبت به إلى ورقة بعد أن استطلعت خبر
جبريل من عالم نصراني يقال عداس قال لها :

قدوس قدوس ما شأن جبريل بهذه الأرض التي أهلها أهل
الأوثان ؟

فقلت أخبرني بعلمك فيه ، قال : فإنه أمين الله بينه وبين النبيين
وهو صاحب موسى وعيسى ^(١) :

وإذن فالسيدة خديجة قد تأكدت أولاً من مفهوم (جبريل) ثم
انطلقت بعد ذلك إلى ورقة .

ولا يقف أمرها عند هذا الحد بل تختبر ظاهرة نزول جبريل على
النبي صلى الله عليه وسلم هل هو حقاً جبريل الذي وصفه عداس
أو شيء آخر؟ يقول ابن هشام : أي ابن عم أ تستطيع أن تخبرني بصاحبك
هذا الذي يأتيك إذا جاءك ؟

قال : نعم ، قالت : فإذا جاءك فأخبرني به .

فجاءه جبريل عليه السلام كما كان يصنع فقال رسول الله صلى الله
عليه وسلم لخديجة ، يا خديجة هذا جبريل قد جاءني :
قالت : قم يا ابن عم فاجلس على فخذي اليسرى :

(١) الخصائص الكبرى ج ١ ص ٢٣٢ الحلبية ج ١ ص ٢٧٨ - ٢٩٥ راجع
نرح المواهب ج ١ ص ٢١٣ ابن كثير ج ١ ص ٤٠٦ .

- قال : فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس عليها .
قالت : هل تراه ؟ .
قال : نعم .
قالت : فتحول فاجلس على فخذي اليمى .
قالت : فتحول رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس على
فخذها اليمى .
قالت : هل تراه ؟
قال : نعم .
قالت : فتحول فاجلس فى حجرى :
قالت : فتحول رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس فى
حجرها :
قالت : هل تراه ؟ قال : نعم .
قال : فتحسرت وألقت خمارها ورسول الله صلى الله عليه
وسلم فى حجرها ثم قالت له هل تراه ؟
قال : لا :
قالت : يا ابن عم ، اثبت وأبشر ، فوالله إنه لملك وما هذا
بشيطان^(١) .

(١) السيرة لابن هشام ج ١ ص ٢٣٩ الخليفة ج ١ ص ٢٨٦ السيرة لابن كثير
ج ١ ص ١٠٤ الطبرى ج ٢ ص ٣٠٣ ، الكامل فى التاريخ ج ٢ ص ٤٩ .

ولقد غشى عليها من الفرح عندما تأكدت من نبوءته كما ذكره صاحب المواهب (١) .

لهذا كانت خديجة أول من أسلم (٢) من بني البشر ولقد قادها الرسول صلى الله عليه وسلم إلى النبع الذي تفجر تحت قدم جبريل فتوضأ لها ليرىها كيف الطهور للصلاة كما أراه جبريل ، فتوضأت كما توضأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم صلى بها رسول الله كما صلى به جبريل فصليت بصلاته .

وكانت بذلك أول دليل على صحة مرحلة التمهيد للرسالة التي هيا الله بها المجتمع البشرى من قبل ليستقبل النور الذي أرسله الله للعالمين بشيراً ولهذا استحققت التحية من عند الله في الصحيحين :

قال : أتى جبريل النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني ، وبشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب (٣) .

(١) شرح المواهب ج ١ ص ٢٣٥ .

(٢) راجع السيرة الحلبية ج ١ ص ٣٠٣ وشرح المواهب ج ١ ص ٢٣٧ ، ٢٤٢ الكامل في التاريخ ج ٢ ص ٥٠ .

(٣) البخارى مناقب الأنصار ، باب تزويج النبي صلى الله عليه وسلم خديجة ، مسلم باب فضائل خديجة أم المؤمنين رضى الله تعالى عنها .

(ب) شهادة المثقفين

الإرهاصات بالنبوة الحاتمة كانت فقها شائعا بين عديد من البيئات
مهد الله جل شأنه ليستقبل الفكر الصافي الواعي نبيه محمدا صلى الله
عليه وسلم بما هو له أهل .

وكانت بيئة المثقفين الذين لهم دراية بالعلم الديني وعندهم وجدان
صادق بالطريق السواء الذى يجدر بالبشرية أن تسلكه إلى ربها . كان
عند هذه البيئة نزعة عارمة لاستقبال سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم
وكانت ترقب يومه وتتشوف لشروق فجره الصادق :

١ - زيد بن عمرو بن نفيل

• وكان فى مقدمة هؤلاء زيد بن عمرو بن نفيل يقول : أنا أنتظر
نبيا من ولد اسماعيل من بنى عبد المطلب ، ولا أراى أدركه وأنا أومن
به وأصدقه وأشهد أنه نبي فإن طالت بك مدة فرأيت فاقرئه منى السلام
وسأخبرك ما نعتته حتى لا يخفى عليك .

قلت : هلم ، قال : هو رجل ليس بالقصير ولا بالطويل ولا بكثير
الشعر ولا بقليله ، وليس يفارق عينيه حمرة وخاتم النبوة بين كتفيه
واسمه : أحمد وهذا البلد مولده ، ثم نخرجه قومه منها ويكرهون
ما جاء به حتى يهاجر إلى يثرب فيظهر أمره ، فأياك أن تخدع عنه

فإني طفت البلاد كلها أطلب دين إبراهيم فكل من أسأله عنه من اليهود والنصارى والجوس يقولون : هذا اللعين وراءك ، وينعتونه مثل مانعت لك ويقولون : لم يبق نبي غيره ، قال عامر فلما أسلمت أخبرت رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول زيد وأقرأته منه السلام فرد عليه السلام وترحم عليه وقال : قد رأيته في الجنة يسحب ذبولا^(١) .

٢ - ورقة بن نوفل

* كان مع زيد بن عمرو بن نفيل في رحلة البحث عن العدل الديني ورقة بن نوفل الذي قبل النصرانية دينا مؤقتا يتعبد عليه حتى يأتي الدين الحنيف :

فلما عرضت السيدة خديجة على ورقة مشاهدات ميسرة التي قصها عليها قال ورقة في حذر العالم العارف بمصير الأمور :
لئن كان حقا يا خديجة إن محمدا لنبي هذه الأمة قد عرفت أنه كائن لهذه الأمة نبي ينتظر هذا زمانه .

يتمول ابن كثير : فجعل ورقة يستبطن الأمور ويقول :

لحيجت وكنت في الذكرى لجوجا

لهم طالما بعث النشيجا

(١) اعلام النبوة للمؤيد ص ١١٠ ، راجع تاريخ الطبري ج ٢ ص ٢٩٥

ووصف من خديجة بعد وصف
فقد طال انتظاري يا خديجة

ببطن المكتين على رجائي
حديثك أن أرى منه خروجا

بما خبرتنا من قول قس
من الرهبان أكبره أن يعوجا

بأن محمدا سييسد يوم
وينضم من يكون له حجيج

ويظهر في البلاد ضياء نور
يقيم به البرية أن تموج^(١)

فورقة يعلم علم الكتاب ويدرك أوصاف النبوة العاقبة وينتظر يومها
ولكنه لا يتعجل الأمور فيضع كلام خديجة في حيز الافتراض .

وتعود إليه خديجة يوم (اقرأ) فيقول لها : والذي نفسى بيده
لئن كنت صادقتي يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذي يأتي
موسى وإنه لنبي هذه الأمة^(٢) لقد تكررت الدلائل والعلامات وطابقت

(١) راجع السيرة لابن كثير ج ١ ص ٢٦٨ الخصائص الكبرى ج ١ ص ٢٣٩ .

(٢) السيرة لابن كثير ج ١ ص ٤٠٤ راجع السيرة الحلبية ج ١ ص ٢٤٧ .

مرحلة التمهيد التي عرفها ورقة من قديم فأقسم أن لو كانت خديجة صادقة فهو النبي المنتظر .

فلما قابل النبي صلى الله عليه وسلم وقص عليه الأمر قال له :
أبشر فأنا أشهد أنك الرسول الذي بشر به ابن مريم وانك على
مثل ناموس موسى وأنت نبي مرسل وأنت ستؤمر بالجهاد وإن أدرك
ذلك لأجاهدن معك ^(١) .

وفي كلام ورقة علم إذ يقول له :
أشهد أنك الرسول الذي بشر به ابن مريم فليست شهادة ورقة
هاطقة خاصة أو رأيا ذاتيا ولكنها علم معروف وأوصاف مدروسة
وعلامات عرفها العلماء في كتب السابقين ^(٢) .

ودقة التعبير عند ورقة تلفت النظر فإنه لما خاطب السيدة خديجة
قال لها هذا ناموس عيسى ، وعيسى بالنسبة لتدينه هو نبي فهو مصدر
معارفه الدينية وخديجة تعلم أنه عالم من علماء المسيحية يكتب
من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب فأجابها بما يؤكد عندها
صدق معلوماته من مصدر معروف لديها باعتباره رجلا معروفا بفقه
المسيحية .

(١) المواهب اللدنية ج ١ ص ٢٤٢ ، الحاشية ج ١ ص ٢٧٤ ، ابن هشام ج ١
ص ٢٣٨ .

(٢) راجع حول هذا "دلائل النبوة للبيهقي ج ١ ص ٤٠١ .

ولما كان يتحدث إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال : هذا ناموس موسى لأنه غير مشكوك في نبوته فجوانب القياس مكتملة الوحي والنبوة لموسى والوحي والنبوة لمحمد .

وبوجه عام فقد زواج ورقة في إجابته بموسى تارة وعيسى تارة أخرى لأنهما معا مصدرا التبشير بالنبوة الخاتمة إن في التوراة أو الانجيل المعروفين عنده بأنيهما يحملان صفة النبي العاقب .

أما ما قاله ابن حجر :

وقوله : (على موسى) ولم يقل على عيسى مع كونه نصرانيا لأن كتاب موسى مشتمل على أكثر الأحكام بخلاف عيسى وكذلك النبي صلى الله عليه وسلم أو لأن موسى يعث بالنعمة على فرعون ومن معه بخلاف عيسى وكذلك وقعت النعمة على يد النبي صلى الله عليه وسلم بفرعون هذه الأمة وهو أبو جهل بن هشام ومن معه بيد (١) فهو كلام لا يتفق مع أصول القرآن الكريم فإن كتاب موسى هو كتاب عيسى كذلك يقول الله تعالى :

(وقفيتا على آثارهم بعيسى بن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين) (آية رقم ٤٦ من سورة المائدة) .

(١) راجع فتح الباري ج ١ ص ٣٩ .

قال ابن كثير في تفسيرها :

أى مؤمنا بها حاكما بما فيها أى متتبعها لها غير مخالف لما فيها إلا فى القليل (١) وفى تفسير فى ظلال القرآن :

(وقد جاء مصداقا لما بين يديه من التوراة « فاعتمد شريعتهما فيما عدا هذه التعديلات الطفيفة (٢) . يقول الله تعالى :

(ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل) ٤٨ — آل عمران .

ليس محمد صلى الله عليه وسلم إلا رحمة للعالمين ينص القرآن الكريم :
(وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) آية رقم ١٠٧ من سورة الأنبياء .

ورفع الله العذاب عن أمته مادام هو فيها (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) آية رقم ٣٣ من سورة الأنفال .

وأبو جهل ومن معه فى بدر إنما أهلكوا أنفسهم بأيديهم فقد قدم لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كل « الليل » وألح عليهم أن يؤمنوا حتى عبس فى وجه ابن أم مكتوم وعوتب فيها من أجل حرصه عليه الصلاة والسلام عليهم وقال له ربه : (فلعنك يا خنع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً) . آية رقم ٦ من سورة الكهف .

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٦٥ .

(٢) تفسير ظلال القرآن ج ٦ . مجلد ٣ ص ١٧٧ ط الثالثة .

وإذن فالتعليل الأسلم الذى يتلاءم مع الجوى الإسلامى ما قاله ابن حجر نفسه وهو « أو قاله تحقيقا للرسالة » .

رحم الله ورقة فلقد قدم للتاريخ حقيقتين :

الأولى : أن مرحلة التمهيد للرسالة المحمدية قد أتت ثمارها بمواعدة حاضِر الوحي عند نزوله على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لما كان يعلمه المثقفون قديما على يد الأُحبار والرهبان .

الثانية : أن نبوة محمد لم تكن تفاجيء المجتمع فقد كانت على الطريق إليها معالم ، وأنه حقا رسول الله وخاتم النبيين دون حاجة إلى إجهاد فى التدليل .

رحم الله ورقة وجعله من الشهداء المسلمين ، روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال فيه :

* لقد رأيت القس فى الجنة عليه ثياب الحرير لأنه آمن بى وصدقنى ^(١) .

* ورقة فى بطنان الجنة عليه السندس ^(٢) .

* ورقة على نهر من أنهار الجنة ^(٣) .

(١) راجع دلائل النبوة للبيهقى ج ١ ص ٤١٣ المواهب اللدنية ج ١ ص ٢٤٢ ،
الخليبة ج ١ ص ٣١٢ .

(٢) ، (٣) المواهب اللدنية ج ١ ص ٢٤٢ .

٣ - النجاشي

أضاف ورقة بن نوفل إلى مرحلة التطبيق التي تؤكد حكمة الله بالإرهاصات التي تقدمت البعث المحمدي الخاتم ، أضاف إلى هذه المرحلة أبعاد الأحداث المستقبلية التي ستواجهها الدعوة كما واجهها من قبل الأنبياء والمرسلون على نحو ما قرأ ورقة وما وصل إليه من علم الكتاب ، وبكل إخلاص وأمانة وثقة قال للنبي صلى الله عليه وسلم :

يا ليتني فيها جذعا :

يا ليتني أكون حيا إذ يخرجك قومك .

لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي .

وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرا^(١) .

فحوى النص اعترافات عدة :

أنه نبي هذه الأمة .

وأن أمته في مكة الجاهلية سوف تكذبه .

وسوف يؤذونه ويخرجونه وسوف يقاتلونه .

وما كان ذلك نبوءة من ورقة بل موجز تاريخ لدعوة الله التي تعاني دائما هذا الضيق والحر ج ، ولم يكن ورقة سلبيا بل كان إيجابيا

(١) فتح الباري ج ١ ص ٢٩ ، ٣٠ ، راجع كذلك تاريخ الطبري ج ٢ ص

٣٠٢ ، الكامل في التاريخ ج ٢ ص ٤٩ ، السيرة لابن كثير ج ١ ص ٣٩٧ .

متمنيا أن يحظى بشرف الجهاد في سبيل الله» ولئن أنا أدركت ذلك اليوم
لأنصر الله نصرا مؤزرا» .

قلطالما ترقبها ورقة وإخوانه الحنفاء والباحثون عن العدل الديني
وها هو ذا يرى بدء الفجر الصادق والكتبه صار شيخا كبيرا قد عمى
فما يملك إلا أنه يقبل يافوخ محمد عليه الصلاة والسلام^(١) نزوعا عاطفيا
لصفاء قلبي يبرهن به ورقة على أنه ارتضى الإسلام الذي جاء به
محمد صلى الله عليه وسلم ديننا حنيفا .

وكان هذا الموقف من ورقة موقف عالم مسيحي من علماء العرب
الذين كانت لهم جولات في العالم القريب منهم بحثا عن الحقيقة الدينية
... ولقد صادف ورقة في حله وترحاله مع زيد بن عمرو بن نفيل
علما ملكا من علماء المسيحية هو النجاشي وكان إقليم النجاشي عنده
فكرة عن النبي الخاتم فيروى ابن هشام أن حليمة السعدية « مما هاجها
على رد محمد صلى الله عليه وسلم إلى أمه أن نفرا من الحبشة نصارى
رأوه معها حين رجعت به بعد فطامه فنظروا إليه وسألوها عنه وقلبه ،
ثم قالوا لها : لنأخذن هذا الغلام ، فلنذهبن به إلى ملكنا وبلدنا فإن
هذا الغلام كائن له شأن نحن نعرف أمره^(٢) .

(١) الحليمة ج ١ ص ٢٧٤ .

(٢) ابن هشام ج ١ ص ١٦٧ ، الحليمة ج ١ ص ١١٤ .

علماء التصاري من الحبشة يعملون أخذه بما يعرفونه لهذا الغلام من شأن ، ويقولون صراحة إننا نود أن نحمله إلى ملكنا . . . فليكنهم إذن عنده معرفة بشأن هذا الغلام . وإذن فما رواه الإمام السيوطي عن اللقاء الذي تم بين زيد بن عمرو بن نفيل ومعه ورقة بن نوفل وبين النجاشي وسألهم النجاشي عن مسائل تتعلق بمولد النبي العربي المكي^(١) .

يفسر لنا موقف هذا الملك من المسلمين عنده عندما هاجرت كتيبة من الأوائل السابقين إلى الحبشة وقال لهم : مرحبا بكم وبمن جئتم من عنده أشهد أنه رسول الله فإنه الذي نجل في الإنجيل وأنه الذي بشر به عيسى بن مريم انزلوا حيث شئتم . والله لولا ما آتا فيه من الملك لأتيته حتى أكون أنا أحمل نعليه^(٢) .

وفي رواية أخرى عند صاحب المواهب اللدنية :

« مرحبا بكم وبمن جئتم من عنده وأنا أشهد أنه رسول الله »^(٣) .

وفي السيرة الحلبية :

« أشهد أنه رسول الله وأنه الذي بشر به عيسى في الإنجيل »^(٤) .

(١) الخصائص الكبرى ج ١ ص ١٣٠ - ١٣٢ .

(٢) الوفا ج ١ ص ١٩٧ .

(٣) شرح المواهب ج ١ ص ٢٨٨ .

(٤) الحلبية ج ١ ص ٣٧٧ .

ثم يكون النجاشي إيجابيا نحو قساوسته ونحو مخابرات قريش ،
ونحو المسلمين .

* فيقول لقساوسته :

« والله ماعدا عيسى بن مريم ما قلت هذا العود فتناخرت بطارقه
حولہ . فقال : وإن نخرتم^(١) .

وفي المواهب :

فقال يا معشر الحبشة والقسيسين والرهبان مايزيد على ماتقولون
أشهد أنه رسول الله وأنه الذي بشر به عيسى في الإنجيل^(٢) .

* ويقول لعمر بن العاص ، وصاحبه مخابرات قريش :

« ما أحب أن يكون لي دير من ذهب — أي جبلا — وأن أؤذى رجلا
منكم — جماعة المسلمين — ردوا عناهم هداياهم فلاحاجة لي بها^(٣) .

(١) ابن هشام ج ١ ص ٣٣٧ ، راجع زاد المعاد ج ٢ ص ٤٦ ، السيرة لابن
كثير ج ٢ ص ٢٢ .

(٢) المواهب ج ١ ص ٢٨٨ ، راجع الخابية ج ١ ص ٣٧٧ .

(٣) الخابية ج ١ ص ٣٧٧ ابن هشام ج ١ ص ٢٣٨ راجع السيرة لابن كثير
ج ٢ ص ٢٢ .

* اختلفت الروايات فيمن كان مع عمرو بن العاص : ذهب ابن هشام إلى أنه عبد الله
ابن أبي ربيعة ج ١ ص ٣٣٤ وفي الخصائص عمارة بن الوليد بن المغيرة ج ١
ص ٣٧٢ ، ولهذا أثرت أنه أقول وصاحبه — راجع الخابية ج ١ ص ٣٧٩ .

وزاد ابن كثير وخرجا من بلادى .

ورواية الإمام السيوطى :

والله لا أقول فى عيسى غير هذا أبدا ثم قال :

أرجعوا إلى هذا هديته يريد عمرو بن العاص والله لو رشونى فى هذا
دير ذهب ما قبلته (١) .

* يقول لجعفر وأصحابه :

امكثوا فأنتم سيوم — آمنون — وأمر لهم بما يصلحهم من الرزق
وقال : من نظر إلى هؤلاء الرهط نظرة تؤذيهم فقد عدم . عصانى :

وفى زاد المعاد :

قال : اذهبوا فأنتم سيوم بأرضى ثم قال للرسولين لو أعطيتهمونى
ديرا من ذهب ما أسلمتهم إليكما ، ثم أمر فردت عليهما هداياهما
ورجعا مقبوحين . :

(١) الخصائص الكبرى ج ١ ص ٣٧٣ .

(٢) الخصائص الكبرى ج ١ ص ٣٧٣ .

(٣) زاد المعاد ج ٢ ص ٤٦ .

وفى الكامل :

وقال للمسلمين : اذهبوا فأنتم آمنون ما أحب أن لي جيلا من ذهب وأنى آذيت رجلا منكم^(١) .

لقد بكى النجاشي حين سمع (كهيعص) حتى اخضلت لحيته وقال ، إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة^(٢) .

فقرر بذلك التقاء مرحلة التمهيد بالفجر الصادق ، وهو فى منزلة الملك — ووسعة العيش لا يبتغى من وراء ذلك مالا ولا جاها اللهم إلا الذمة الأصيلة والعهد الأمين والنفس الحليمة والقلب الصادق :

وحق له أن يؤمنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه البخارى عن جابر رضى الله عنه قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين مات النجاشي : مات اليوم رجل صالح فقوموا فصلوا على أخيكم أصحابه^(٣) .

(١) الكامل فى التاريخ ج ٢ ص ٨١ بيروت .

(٢) السيرة لابن هشام ج ١ ص ٣٣٦ راجع الروض الأنف ج ٣ ص ٤٤٧
تثبيت دلائل النبوة ج ٢ ص ٥٠٧ .

(٣) السيرة لابن كثير ج ٢ ص ٢٩ ، راجع البخارى ج ٨ ص ١٩٠ ، ١٩١
فتح البارى .

وعند أبي داود :

لما مات النجاشي رضى الله عنه كنا نتحدث أنه لا زال يرى على
قبره نور (١) .

راهبان أسلما :

كان ورقية بن نوفل عالما عربيا اتجه إلى المسيحية كلنين مؤثقت
في مرحلة بحثه عن الدين الحنيف فلما جاء الحق صدق به وآمن .

وكان النجاشي ملكا مثقفا بالمسيحية فلما عرف بظهور النبي الخاتم
الذى بشر به عيسى ابن مريم آمن وصدق وتمنى أن يحمل نعل النبي
صلى الله عليه وسلم :

وكان ذلك في تفهم الأحداث دليل على أن مرحلة التمهيد كانت
منحة من الله لمن شاء أن يستقيم على الصراط الحنيف .

وتمتلى بطون الكتب الأمهات بنماذج عديدة للذين كتب الله لهم
الفوز بالإيمان بناء على ما شاهدوه وما قرأوه من قيل عن أوصاف
النبوة العاقية .

(١) السيرة لابن كثير ج ٢ ص ٢٨ راجع السيرة النبوية للدكتور أبو شهبه .
ص ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، راجع شرح الشفاء ج ٣ ص ٣٩٧ .

٤ - بحيرا

وكان بحيرا راهبا في صومعته وله علم أهل النصرانية ولم يزل في تلك الصومعة منذ قطنها راهبا . . . فلما نزل أبو طالب وقافلته قريبا من بحيرا - وكانوا كثيرا ما يمرون به قبل ذلك فلا يكلمهم ولا يعرض لهم حتى كان ذلك العام فلما نزلوا به قريبا من صومعته صنع لهم طعاما كثيرا ، وذلك فيما يزعمون عن شيء رآه وهو في صومعته أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في الركب ونعمامة تظله من بين القوم . . . فلما رأى ذلك بحيرا نزل من صومعته ثم أرسل اليهم فقال :

أني قد صنعت لكم طعاما يا معشر قريش فأنا أحب أن تحضروه كلكم ، صغيركم وكبيركم ، وعبدكم وحرکم ، فقال له رجل منهم :

والله يا بحيرا إن لك لشأنا اليوم ، فما كنت تصنع هذا بنا وقد كنا نمر بك كثيرا ، فما شأنك اليوم ؟
قال بحيرا :

صدقتم لقد كان ماتقون ، ولكنكم ضيف وقد أحببت أن أكرمكم وأصنع لكم طعاما فتأكلوا منه كلكم .

فاجتمعوا اليه ، وتخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين القوم لحداثة سنه في رجال القوم تحت الشجرة فلما نظر بحيرا في القوم لم ير الصفة التي يعرف ويجد عنده فقال :

يا معشر قريش لا يتخلفن أحد منكم عن طعامي قالوا له : يا بحيرا ،
ما تخاف عنك أحد ينبغي له أن يأتيك إلا غلام ، وهو أحدث القوم
سنا فتخاف في رحالمهم .

فقال : لا تفعلوا ، أدعوه فيحضر هذا الطعام معكم .

قال : فقام رجل من قريش مع القوم فاحتضنه وأجلسه مع
القوم .

فلما رآه بحيرا جعل يلحظه لحظا شديدا وينظر إلى أشياء من جسده
قد كان يجدها عنده من صفته حتى إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا
قام إليه بحيرا فقال له :

يا غلام : أسألك بحق اللات والعزى إلا ما أخبرتنى عما أسألك
عنه .

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تسألني باللات والعزى
فوالله ما أبغضت شيئا قط أبغضها .

فقال له بحيرا :

فبالله إلا ما أخبرتنى عما أسألك عنه ، فقال له : سلني عما بدا لك
فجعل يسأله عن أشياء من حاله في نومه وهيئته وأموره . . . :
فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره . . . فيوافق ذلك ما عند

بحيرا من صفته ، ثم نظر إلى ظهوره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضعه من صفته التي عنده .

فلما فرغ بحيرا من ذلك أقبل على عمه أبي طالب فقال له : ارجع بابن أخيك إلى يلداه واحذر عليه يهود فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغنه سرا ، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم^(١) .

وهذا التحذير من بحيرا لأبي طالب ليرعى ابن أخيه من شر اليهود متفق مع موقف اليهود يوم ولد النبي صلى الله عليه وسلم فيما يقصده الماوردي :

كان يهودى يسكن مكة فلما كانت الليلة التي ولد فيها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حضر مجلس قريش فقال يامعشر قريش هل ولد فيكم الليلة مولود ؟

فقال القوم : والله ما نعلم :

قال : الله أكبر ، أما إذا اخطأكم فلا بأس ، انظروا واحفظوا ما أقول لكم ، ولد في هذه الليلة نبي بين كتفيه علامة فيها شعرات متواترات كأنها عرف وثن .

(١) السيرة لابن هشام ج ١ ص ١٨١ ، ١٨٢ ، راجع أعلام النبوة للماوردي ص ١٠٦ ، راجع الحلبية ج ١ ص ١٤١ ، ١٤٢ ، الخصائص الكبرى ج ١ ص ٢٠٨ - ٢١٠ الطبري ج ٢ ص ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، راجع نسيم الرياض ج ٣ ص ٢٥٧ - ٢٦٥ ، راجع الطبقات الكبرى ج ١ ص ١٥٣ - ١٥٥ .

فتصارع القوم عن مجالسهم -- وهم متعجبون من قوله -- فلما صاروا إلى منازلهم أخبر كل إنسان منهم أهله . . فقالوا : ولنا لعبد الله ابن عبدالمطلب غلام سموه محمدا فانطلق القوم إلى اليهودى فأخبروه فقال : اذهبوا بى حتى أنظر اليه ، فأدخلوه عند أمته وقالوا : اخرجى إلينا ابنك فأخرجته وكشفوا عن ظهره ، فرأى اليهودى تلك الشامة فوق مغشيا عليه . فلما أفاق قالوا له : ما لك ؟

قال : ذهبت -- والله -- النبوة من بنى إسرائيل يا معشر قريش : والله ليسطون بكم سطوة يخرج خبرها من المشرق إلى المغرب (١) .

فالمعلومات عند أهل الكتاب : أن النصارى أو اليهود متحدة فى ذكر أوصاف النبوة الخاتمة ، ولهذا كان بحيرا مخلصا وكان يمثل المسيحية المتأدينة التى جاءت من عند الله لتكون الإسلام العاقب مقدمة تمهد للناس مشرق الدين الحنيف .

وفى المواهب اللدنية شرح فياض لموقف بحيرا :

فراه بحيرا واسمه جرجيس فعرفه بصفتة فقال وهو آخف بيله : هذا سيد المرسلين هذا سيد العالمين فقيل له : وما علمك بذلك ؟

قال : لأنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق شجر ولا حجر إلا خر ساجدا ولا يسجدان إلا لنبى ، وإنى أعرفه بخاتم النبوة فى أسفل من

(١) أعلام النبوة ص ١٠٤ ، ١٠٥ الحلبية ج ١ ص ٨٢ ، راجع المواهب

ج ١ ص ١٢٠ - ١٣٤ .

غضروف كتفه مثل التفاحة وإنا نجده في كتبنا ، وسأل أبا طالب أن يرده خوفا عليه من اليهود^(١) .

قال الذهبي في تجريد الصحابة : رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل المبعث وآمن به^(٢) .

وفي الإصابة على نحو ما يرويه الشيخ الزرقاني في شرحه للمواهب : فكشف له عن ظهره فرآه فقال :

أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله النبي الأمي الذي بشر به عيسى بن مريم^(٣) .

٥ - نسطورا

تلاح رجل مع النبي صلى الله عليه وسلم فقال له : احلف باللات والعزى ؟

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما حلفت بهما قط وإني لا مروء أعرض عنهما .

فقال الرجل : القول قولك :

(١) المواهب ج ١ ص ١٩٤ ، راجع دلائل النبوة للبيهقي ج ١ ص ٣٠٨ - ٣١٠ ، الخصائص ص ٢٠٦ ، ٢٠٧ .

(٢) ، (٣) المواهب ج ١ ص ١٩٥ ، راجع الإصابة في تمييز الصحابة ج ١ ص ١٨٤ ط السعادة عام ١٣٢٣ هـ .

ثم قال لميسرة : هذا والله نبي تجده أحبارنا منعوتا في كتبهم^(١) .

كان بعض رجال الدين المسيحي آنذاك مازالوا على المستوى الشريفي في الوعظ الديني ، وكان الشعب يثق فيهم ويسمع لهم ومن هؤلاء الرجال الصادقين راهب تلك المنطقة التي كان السوق على كثر منها . كان نسطورا في « بصرى » يبشر صادقا بما يعلمه عن محمد النبي الخاتم . فلما كانت التجارة الخديجية السعيدة وكان ميسرة معها في كنف الأمين الصادق محمد بن عبد الله ونزل عليه الصلاة والسلام تحت ظل شجرة — هي عند الراهب ذات معنى خاص حسب — دراساته ومعارفه — .

قال نسطورا : ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي^(٢) .

وليس التفسير لهذه العبارة محيرا للدرجة التي غص بها قرطاس المكاتبين : فكل ما عند الرجل من المعلومات أن ساعة معينة من الزمن في مكان معين تحت شجرة خاصة من سيسظل تحتها يكون هو صاحب العلامات التي ذكرتها الكتب السماوية . يدل على هذا الاتجاه في تفسير العبارة النسطورية السالفة أن نسطورا نفسه سأل ميسرة عن علامات ذاتية في الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم قال لميسرة أفى عينيه حمرة ؟

(١) الخصائص ج ١ ص ٢٢٧ .

(٢) الخصائص ج ١ ص ٢٢٧ ، الكامل في التاريخ ج ٢ ص ٣٩ ، ابن هشام

ج ١ ص ١١٨ الوفاج ١ ص ١٤٣ .

قال : نعم لا تفارقه ، قال : هو نبي . وهو آخر الأنبياء ، ويأليت
أنى أدركه حين يؤمر بالخروج^(١) فربط بذلك بين العلامتين المكانية والزمانية .
وفى الحلبية شرح انسياني للموقف كله :

فلما رأى الراهب الغمامة تظله صلى الله عليه وسلم فزع وقال :
ما أنتم عليه ؟ أى : أى شئ أنتم عليه ؟

قال ميسرة غلام خديجة رضى الله عنها : فادنا إلى النبي صلى الله
عليه وسلم سراحت ميسرة وقبل رأسه وقدمه وقال : آمنت بك وأنت
أشهد أنك النبى ذكره الله فى التوراة ، ثم هال :

يا محمد قد عرفت فيك العلامات كلها — أتى العلامات الدالة على
نبوتك المذكورة فى الكتب القديمة — خلا خصلة واحدة فأوضح
لى عن كتفك ؟ فأوضح له فاذا هو بخاتم النبوة يتلألاً فأقبل عليه يتقبله
ويقول :

أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أنك رسول الله النبى الأسمى النبى
بشر بلك عيسى بين مريم فإنه قال : لا ينزل بعلى تحت هذه الشجرة
الا للنبي الأسمى الهاشمى العلى المحكى صاحب الخوض والشفاعة وصاحب
لواء الحمد^(٢) .

(١) الخصائص ج ١ ص ٢٢٧ الحلبية ج ١ ص ١٥٨ ، راجع الطبقات الكبرى
ج ٢ ص ١٥٦ .

(٢) الحلبية ج ١ ص ١٥٨ شرح المواهب ج ١ ص ١٩٨ .

سمع الله لمن حمده من هؤلاء الرجال الذين عاشوا لحظة التوعية
يترقبون مشرق النور والبركة ، فأثبتوا لأصحاب البصيرة أن الارهاصات
القديمة كانت علامات المهتدين عند الاذان المنادى بالفلاح .

على الأطراف من بعيد :

من بعيد كان النجاشي وقساوسته يتشوقون لمعرفة النبي الأخير
الذى سيختم الله به الرسالة ويجدون مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل
يضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم .

ومن بعيد كذلك كانت الأحبار فى صوامعها ترصد الطريق ،
شجرا وحجرا وصحابة وانسا ، ولما رأوا تثبتوا ثم أيقنوا وآمنوا
وأسلموا .

ومن بعيد كذلك تأتينا أدلة صليق مرحلة التمهيد للرسالة فقد بات
فى المكان والزمن البعيد رجالان من الرجال التى استيقظ فيهما جانب
الربانية فتعطشت للقاء الربانى وصحبة النور المحمدي فتبته الأنس والبهجة
والسعادة والحياة .

٦ - عبد الله بن سلام

وكان عبد الله بن سلام كبير علماء اليهود وسيدهم وأمامهم من
أولئك النفر الذين باتوا يترقبون اللحظة الأولى لأذان الفجر الصادق :
حتى على الإسلام والإيمان .

يقول ابن كثير راويا عنه :

لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة انجفل الناس ، فكنت فيمن انجفل ، فلما تبينت وجهه عرفت أنه ليس بوجه كذاب فكان أول شيء سمعته يقول :

أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا بالليل والناس نيام ، تدخلون الجنة بسلام .^(١)

ولم تكن معرفة عبد الله بن سلام للنبي صلى الله عليه وسلم معرفة ساذج من الدهماء ، بل هي معرفة عالم حافظ واع .
ففي الدلائل البيهقي .

كان من حديث عبد الله بن سلام حين أسلم وكان حبرا عالما — قال : لما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ، وعرفت صفته واسمه وهيئته والذي كنا نتوقف له ، فكنت مسرا لذلك صامتا عليه حتى قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، فلما نزل بقباء في بني عمرو بن عوف فأقبل رجل حتى أخبر بقدومه وأنا في رأس نخلة لي اعمل فيها ، وعمتي « خالدة بنت الحارث » تحتي جالسة فلما

(١) السيرة لابن كثير ج ٢ ص ٢٩٤ ، الوفا ج ١ ص ٢٥٣ ، دلائل البيهقي ج ١ ص ٢٥٣ ، راجع الفتح الكبير ج ١ ص ٢٠٦ .

سمعت الخبر بقدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم كبرت فقالت
لى عمى حين سمعت تكبيرى :

لو كنت سمعت بموسى بن عمران ما زاد ؟ . قال : قلت لها :
أى عمه هو والله أخو موسى بن عمران ، وعلى دينه ، بعث بما بعث
به .

قال : فقالت : يا ابن أخى ، أهو النبى الذى كذا نخبر به أنه يبعث
مع بعث الساعة ؟ . قلت لها : فذاك إذن .

قال : ثم خرجت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأسلمت
ثم رجعت إلى أهل بيتى فأمرتهم فأسلموا وكنمت إسلامى من اليهود
ثم جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت :

إن اليهود قوم بهت ، وأنى أحب أن تدخلنى فى بعض بيوتك
تغيبنى عنهم ثم تسلمهم عنى فأخبروك كيف أنا فيهم ، قبل أن يعلموا
بإسلامى ، فإنهم إن علموا بذلك بهتوني وعابوني .

قال : فأدخلنى بعض بيوته فدخلوا عليه فكلموه وسألوه . . .

قال لهم : أى رجل عبد الله بن سلام فيكم ؟

قالوا : سيدنا ، وابن سيدنا ، وجبرنا وعالمنا .

قال : فلما فرغوا من قولهم خرجت عليهم ، فقلت لهم : يامعشر
اليهود : اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به فو الله إنكم لتعلمون أنه رسول

الله تجدونه مكتوبا عندكم في التوراة : اسمه ، وصفته ، فاني أشهد أنه رسول الله ، وأومن به وأصدقه وأعرفه .

قالوا : كذبت ، ثم وقعوا في .

قال : فقلت ، يا رسول الله ، ألم أخبرك أنهم قوم بهت أهل غدر وكذب وفجور ؟

قال : فأظهرت إسلامي ، وإسلام أهل بيتي ، وأسلمت عمتي ابنة الحارث فحسن إسلامها^(١) .

وفي النص عدة حقائق :

١ — أن عبد الله بن سلام كان يعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم اسما وصفة وهيئة طوال فترة الحياة المكية قبل الهجرة إلى طابة ، وأنه كتم ذلك حتى قدومه صلى الله عليه وسلم المدينة المنورة :

٢ — أنه توقع غدر اليهود به إن أعلن إسلامه وأنهم يعرفون حقيقة النبوة في محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ولكنهم قوم بهت .

٣ — أنه كتم إسلامه عن اليهود حتى يكون عليهم حجة .

(١) السيرة لابن كثير ج ٢ ص ٢٩٤ - ٢٩٨ ، الدلائل للبيهقي ج ١ ص ٢٥١ ،

٤ — أنه فرح فرحا عارما ملك عليه أقطار وجدانه حتى كبر وهو في أعلا النخلة عندما علم بهجرة الرسول صلى الله عليه وسلم ووصوله إلى المدينة المنورة وهذا يدل على صدق نيته في أن يدخل في السلم كافة .

٥ — وأنه آثر الإسلام على قوميته وقومه وأمجاده فيهم ، ولذا فقد حق له أن يقول فيه النبي صلى الله عليه وسلم :

(لا أحد يمشى على الأرض أنه من أهل الجنة إلا عبد الله بن سلام) .

٧ — مخيريق

وتستمر عوامل التوعية تثير الحماس المنصف في نفوس اليهود الذين استمروا على ضلالتهم وفرديتهم حتى استيقظ فيهم دافع الإيمان فآمنوا وتابوا إلى الله .

وكان مخيريق حبرا عالما وكان رجلا غنياً كثير الأموال ، وكان يعرف صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يجد في علمه ولكن غلب حب المال واستقطبت أقطار نفسه نحو دينه فلم يزل على ضلالتهم حتى إذا كان يوم أحد وكان يوم السبت قال يا معشر يهود ، والله إنكم لتعلمون أن نصر محمد عليكم حق .

قالوا : إن اليوم يوم السبت .

قال : لا سبت لكم .

ثم أخذ سلاحه ، فخرج حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأحد وعهد إلى من وراءه من قومه : إن قتلت هذا اليوم فأموأ إلى لمحمد صلى الله عليه وسلم يصنع فيها ما أراه الله ، فلما اقتتل الناس قاتل حتى قتل ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بلغنى — يقول :
(مخيريق خير يهود ، وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم أمواله^(١)) .

من بعيد كان مخيريق يعرف حقيقة النبوة لمحمد صلى الله عليه وسلم ولكن عنصريته وكثافة ظلماته القلبية حجبتة عقدا ونصف عقد عمن تذوق حلاوة الإيمان التي من الله بها عليه في آخر اللحظات .

٨ - سلمان الفارسي

ومن بعيد كذلك :

من بعيد في شقة السفر وفي طول الحل والترحال ، وطول السؤال وكثرة النصب يتقلب سلمان الفارسي في فترة التمهيد للرسالة حتى يتغشاه نورها الصادق الأمين :

(١) السيرة لابن هشام ج ١ ص ٥١٨ ، السيرة لابن كثير ج ٢ ص ٣٤٤ ، راجع نسيم الرياض شرح الشفاء ج ٣ ص ٢٦٥ ، راجع حول هذا الشفاء شرحه ج ٣ ص ٢٥٧ .

١ - فسلمان شاب فارسي من أهل أصبهان وكان أبوه سيد أهل بلده أحب ولده سلمان حباً شديداً لم يحبه شيئاً من ماله ولا من ولده حتى احتدمت عاطفة الحب فجعلته يحبسه في البيت كالحارية الكاعب وأجتهد سلمان في المحوسية حتى صار لها مثل القطن الذي يوقد نارها وما كان يتركها لحظة تخبوا حتى أذن الله له وأرسله أبوه إلى ضيعته ليعمل فيها عملاً . . . فر بكنيسة لنصارى فسمع أصواتهم وأعجب بصلاتهم فأنشد إلى عبادتهم حتى غربت الشمس وبعث أبوه في طلبه لما أمسى ولم يعد إليه ، فلما قص على أبيه ما حدث منه جعل في رجله حديداً وحبسه حتى لا يترك دين آبائه .

٢ - ثم احتال حتى نخرج من احتباسه عن رغبته وسافر مع قافلة من التجار إلى الشام وعرض نفسه على صاحب الكنيسة وعاش معه على دينه ورأى منه منكراً وزوراً فقد كان يأمر بالصدقة ويرغب فيها ثم يجمعها ويكنزها لنفسه ويمنعها من المساكين فأبغضه سلمان وقص على القوم سيرته لما مات وأخرج لهم سبع قلال مملوءة ذهباً وورقاً كان الرجل قد اكتنزها فصبوه ورموه بالحجارة قبل أن يدفنوه .

٣ - ثم جاء مكانه رجل آخر فأعجب سلمان بصلاته ووصفها لابن عباس رضي الله عنه بقوله : ما رأيت رجلاً قط لا يصلي الخمس أي أنه أفضل منه أشد اجتهاداً ولا زهادة في الدنيا ولا أدب ليلاً ونهاراً

بعده ، ما أعلمني أحببت شيئاً قط قبله حيه . ثم مات الرجل وأوصى
سلمان أن يتبع رجلاً آخر « بالموصل » .

٤ — ولحق سلمان « بالموصل » وارتضى من صاحبه دينه فلما
حضرته الوفاة سأله سلمان أن يوصيه بمن يلحق ؟ . فقال له : والله
ما أعلمه إلا رجلاً « نصيبين » وهو على مثل ما نحن عليه فالحق به :

٥ — وسافر سلمان إلى « نصيبين » ولحق بصاحبه فلما حضرته
الوفاة سأله بمن يلحق من بعده ، فقال له : والله ما أعلم أحداً أرى
مثل ما نحن عليه إلا رجلاً « بعمورية » من أرض الروم فأتته فإناك
ستجده على مثل ما كنا عليه .

٦ — وقدم سلمان « بعمورية » وأقام عند صاحبه حتى وافاته المنية
فسأله أن يوصيه بمن يلحق به ، فقال له : والله أعلم أنه أصبح أحد على
مثل ما كنا عليه آمرك أن تأتيه ، ولكنه قد أظلك زمان نبي يبعث
بدين^(١) إبراهيم الحنيفة يخرج من أرض مهاجرة^(٢) وقراره ذات

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٤ ص ٧٧ بيروت ، الخليفة ج ١ ص ٢٢١ ،
راجع ابن هشام ج ١ ص ٢١٤ - ٢٢٠ .

(٢) هذه عبارة الطبقات الكبرى وفي دلائل النبوة للبيهقي ، نبي مهاجرة بين
حريثين إلى أرض سبعة ذات نخيل ، ص ٣٦١ ، وفي الخليفة : نبي مبعوث بدين إبراهيم
يخرج بأرض العرب مهاجرة إلى أرض بين حريثين بينهما نخل به علامات يأكل
لهدية ولا يأكل الصدقة ج ١ ص ٢٢١ ومثلها عبارة ابن هشام ج ١ ص ٢١٨ .

نخل بين حرتين ، فان استطعت ، أن تخلص إليه فاخلص وإن به آيات
لا تخفى ، أنه لا يأكل الصداقة وهو يأكل الهدية ، وأن بين كتفيه خاتم
النبوة إذا رأيته عرفته^(١) .

٧ — قال سلمان :

فلما واريناه أقمت حتى مر رجال من تجار العرب من « كلب »
فسألهم عن بلادهم فأتخبروني عنها ، فقلت : أعطيكم بقراتي هذه
وغنمي على أن تحملوني حتى تقدموا بي أرضكم ؟ قالوا : نعم ،
فاحملوني حتى قدموا بي « وادي القرى » فظلموني فباعوني عبدا
لرجل يهودي « بوادي القرى » فوالله لقد رأيت النخل وطمعت
أن يكون البلد الذي نعت لي صاحبي .

٨ — ولكن اليهودي في وادي القرى يبيع سلمان إلى يهودي آخر
من المدينة ، يقول سلمان : فخرج بي حتى قدم بي المدينة ، فوالله
ما هر إلا أنه رأيته فعرفت نعتي ، فأقمت في رقي مع صاحبي ، وبعث
الله رسوله صلى الله عليه وسلم بمكة ما يذكر لي شيء من أمره مع ما أنا
فيه من الرقي حتى قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلي وأنا أعمل

(١) راجع النعم كاملا في : دلائل النبوة للبيهقي ج ١ ص ٣٥٨ - ٣٦٣ ،
الحلي ج ١ ص ٢١٩ - ٢٢١ ، الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٤ ص ٧٥ - ٧٨ ،
الخصائص الكبرى للسيوطي ج ١ ص ٤٨ - ٥٣ .

لصاحبي في نخلة له ، فوالله أني لفيها إذ جاء ابن عم له فقال فلان قاتل الله بنى قبيله — الأوس والخزرج — والله إنهم الآن لفي قباء مجتمعون على رجل جاء من مكة يزعمون أنه نبي — فوالله ما هو إلا أنه سمعتها فأخذتني العرواء حتى ظننت لأسقطن على صاحبي ونزلت أقول ما هذا الخبر ؟ فرفع مولاي يده فلكمني لكمة شديدة ، وقال : مالك ولهذا ، أقبل على عمك ، فقلت لاشئ ، إنما سمعت خبراً فأحببت أنه أعلمه :

(أ) فلما أمسيت — كان عندي شيء من طعام — ذهبت به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بقباء فقلت :
بلغني أنك رجل صالح ، وأن معك أصحاباً لك غرباء وقد كان عندي شيء من الصدقة فرأيتكم أحق من بهذه البلاد به فيها هوذا فكل منه ؟

قال سلمان : فأمسك رسول الله صلى الله عليه وسلم يده وقال لأصحابه كلوا ، ولم يأكل ، فقلت في نفسي هذه نخلة مما وصفت لي :

(ب) وتحول رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة فجمعت شيئاً كان عندي ثم بجثته به فقلت : إني قد رأيتك لا تأكل

للصدقة وهذه هدية وكرامة ليست بالصدقة ، قال سلمان :
فأكل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأكل أصحابه ، فقلت :
هذه نخلتان :

(ج) وطالت الأيام وسلمان ما زال في الرق وما زال يختبر
معلومات الأخبار التي لقنوها إياه فجاء إلى رسول الله صلى الله عليه
وسلم وهو يتبع جنازة ، يقول سلمان : وعلى شملتان لي ، وهو —
النبي — في أصحابه فاستدرت به لأنظر إلى الخاتم في ظهره فلما رأي
رسول الله صلى الله عليه وسلم أستدير به عرف أنني أستثبت شيئاً قد
وصف لي فوضع رداءه عن ظهره فنظرت إلى الخاتم بين كتفيه
كما وصف لي صاحبي فأكبت عليه أقبله وأبكي ، فقال تحول
يا سلمان هكذا فتحولت فجلست بين يديه وأحب أن يسمع
أصحابه حديثي عنه فحدثته يا ابن عباس كما حدثتك ، فلما فرغت
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كاتب يا سلمان ،
فكأبت صاحبي على ثلثمائة نخلة أحيمها وأربعين أوقية وأعاني
أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنخل^(١) . . . الخ :

(١) راجع النص في الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٤ ص ٧٥ - ٨٠ ودلائل
النبوة للبيهقي ج ١ ص ٣٥٨ - ٣٦٣ والسيرة الحلبية ج ١ ص ٢١٩ - ٢٢٢ واهـ
الكبرى للسيوطي ج ١ ص ٤٨ - ٥٢ .

والنص مع طوله يصور لنا طول تقلب سلمان الفارسي في البلاد
والترحال والحرية والعبودية رجاء أن يصل إلى ما أوصاه به علماء
الدين الذين عرفوا محمدا صلى الله عليه وسلم في كتبهم كما يعرفون
أبنائهم وكان منهم فريق يقول الحق ويهدى السبيل .

وفي النص دلالة كذلك على أن العصر كان يسمح بالتحرك الديني
لل فرد حتى ولو كان عبدا رقيقاً أكثر مما يسمح به العصر الحديث .

وهكذا اتضح لنا ماثورات تاريخية مباركة تلتقي بها أطراف مرحلة
التمهيد للدعوة المحمدية بالحلقة الأولى من حياة الدعوة ، وبذلك تبرز
الموازين الدقيقة التي تفرز معادن الناس ومستوى عقولهم ، ومدى
تفكيرهم كما تحدد هذه المرحلة :

إن الإيمان بالرسالة الخاتمة لم يكن أمراً بعيداً عن التفكير في العصر
الجاهلي فقد أرهص الله للناس بعلامات ودلائل بشر بها علماء الدين
واهتموا إليها أصحاب الفطرة السليمة من قريب مثل ورقة ومن بعيد
مثل النجاشي :

من قريب جداً مثل خديجة رضى الله عنها .

ومن بعيد جداً مثل سلمان الفارسي .

يقول فيه النبي صلى الله عليه وسلم :
يا أبا بكر ، لعلك أغضبتهم ؟ لأن كنت أغضبتهم فقد أغضبت
ربك ؟

فأتاهم أبو بكر فقال : يا اخوتاه ، أغضبتكم ؟
قالوا : لا ، يغفر الله لك يا أخي ^(١) .

(١) مسلم باب من فضائل سامان وصهيب وبلال من كتاب فضائل الصحابة
حديث رقم ٢٥٠٤ ص ٩٤٧ : الجزء ٤ : إخراج المرحوم فؤاد عبد الباقي .

(ج) الاعتراف المبتور

١٠ - أمية بن أبي الصلت وأبو سفيان ورفاقهما :

وعلى الصفحة المقابلة نرى فريقاً من معاصري مرحلة التمهيد قد أثقلتهم مواريتهم الثقافية وجذبتههم جبرية العادات وقدسسية القومية ونأى بهم عن التشرف بالإيمان وقبول النور والأنس بالدين الحنيف صبدأ فطرتهم وأنانية نفوسهم فسلبوا حلاوة الإيمان وجلال الاعتراف بالحق وشرف الإذعان للعدل .

كان أمية ابن أبي الصلت^(١) عارفاً بالنبوة الخاتمة تجول في الكنائس وتقلب عند الرهبان ليعرف أوصافها وعلاماتها ، وكان معه أبو سفيان ابن حرب ، فهو على علم بها ودراية بسعى أمية لها فلما ظهرت وجاءت ممنوحة من الله إلى حبيبته محمد صلى الله عليه وسلم وجم لها أبو سفيان .

وكفر بها أمية لأنها ليست له أو ليست في بني ثقيف .

ويتحدث أبو سفيان نفسه عن ذلك فيقول فيما يرويّه ابن الجوزي عن أبي سفيان بن حرب قال :

خرجت أنا وأمّية بن أبي الصلت تجارا إلى الشام فكنا كلما نزلنا منزلاً أخرج من رحله سفراً يقرؤه علينا .

(١) راجع الباب الأول الفصل الأول مسألة الخنفاء (أمية بن أبي الصلت) من هذا الكتاب .

فكنا كذلك حتى نزلنا بقريه من قري النصارى فأوه وعرفوه
وأهدوا له ، وذهب معهم إلى بيعتهم ، ثم رجع في وسط النهار فطرح
ثوبه واستخرج ثوبين أسودين فلبسهما ثم قال :

يا أبا سفيان ، هل لك في عالم من علماء النصارى إليه تناهى علم
الكتاب تسأله عما بدا لك ؟ قلت : لا .

فمضى هو وحده ، وجاءنا بعد هداة من الليل ، فطرح ثوبيه ، ثم
انجدل على فراشه فوالله ما نام ولا قام حتى أصبح .
وأصبح كئيبا حزينا ما يكلمنا ولا نكلمه ، فسرنا ليلتين على مابه
من الهم .

فقلت له : ما رأيت مثل الذى رجعت به من عند صاحبك :
قـال : لمنقاي .

قـلت : وهل لك من منقلب ؟

قـال : أى والله لأموتن ولأحاسبن .

قـلت : فهل أنت قابل أمانى ؟

قـال : على ماذا ؟

قـلت : على أنك لا تبعث ولا تحاسب .

فضحك وقال : بل والله لنبعثن ولنحاسبن موليدخان فغريق في الجنة
وغريق في النار .

قـلت : ففى أيهما أنت أخبرك صاحبك ؟

قـال : لا علم لصاحبى بذلك فى ولا فى نفسه .

فكنا فى ذلك ليلتنا يعجب منا ونضحك منه ، حتى قدمنا غوطة
دمشق فبعنا متاعنا وأقمنا شهرين ثم ارتحلنا حتى نزلنا قرية من قرى النصارى
فلما رأوه جاعوا وأهدوله ، وذهب معهم إلى بيعتهم حتى جاعنا مع
نصف النهار فابس ثوبيه الأسودين فذهب حتى جاعنا بعد هداة من
الليل ، فطرح ثوبيه ثم رعى بنفسه على فراشه ، فوالله ما نام ولا قام
فأصبح مبهوثا حزينا لا يكلمنا ولا نكلمه فرجعنا فسرنا ليالى ثم قال :

يا صخر ، حدثنى عن عتبة بن ربيعة ، أيجنب المحارم والمظالم ؟

قـلت : أى والله .

قـال : ويصل الرحم ويأمر بصلتنا ؟

قـلت : نعم .

قـال : وكريم الطرفين وسط فى العشيرة ؟

قـلت : نعم .

قـال : فهل تعلم قرشيا أشرف منه ؟

قـلت : لا والله .

قَالَ : أَمْحُوجُ هُوَ ؟

قَالَتْ : لَا ، بَلْ هُوَ ذُو مَالٍ كَثِيرٍ .

قَالَ : كَمْ أَتَى لَهُ مِنَ السِّنِّ ؟

قَالَتْ : هُوَ ابْنُ سَبْعِينَ قَدْ قَارَبَهَا .

قَالَ : فَالْسِّنَ وَالشَّرَفَ أَزْرِيَا بِهِ .

قَالَتْ : لَا وَاللَّهِ بَلْ زَادَهُ خَيْرًا .

قَالَ : هُوَ ذَاكَ .

ثُمَّ لَمَّا لَمْ يَرَ أَنَّهُ بِي أَنَّى جِئْتُ هَذَا الْعَالَمَ فَسَأَلْتُهُ عَنْ هَذَا الَّذِي يَنْتَظِرُ .

فَقَالَ : هُوَ رَجُلٌ مِنَ الْعَرَبِ مِنْ أَهْلِ بَيْتٍ تَحْجُجُهُ الْعَرَبُ .

فَقَامَتْ : فِينَا بَيْتٌ تَحْجُجُهُ الْعَرَبُ .

قَالَ : هُوَ مِنْ إِخْوَانِكُمْ وَجِيرَانِكُمْ مِنْ قَرْيَتِي ، فَأَصَابَنِي

شَيْءٌ مِمَّا أَصَابَنِي مِثْلُهُ لَئِنْ خَرَجْتُ مِنْ يَدِي فَفُوزَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ ،
وَكَنتُ أَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ .

قَالَتْ : فَصِفْهُ لِي ؟

قَالَ : رَجُلٌ شَابٌ حِينَ دَخَلَ فِي الْمَكْهُولَةِ بَدَأَ أَمْرَهُ أَنَّهُ

يَجْتَنِبُ الْحَارِمَ وَالْمُظْلَمَ وَيَصِلُ الرَّحِمَ ، وَيَأْمُرُ بِصَلَاتِهَا وَهُوَ مَحْجُوجٌ
كَرِيمُ الطَّرْفَيْنِ مَتَوَسِّطٌ فِي الْعَشِيرَةِ أَكْثَرُ جُنْدِهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ .

قـ...لت : وما آية ذلك ؟

قـ...ال : قد رجفت الشام منذ عيسى بن مريم ثمانين رجفة كلها فيها مصيبة ، وبقيت رجفة عامة فيها مصيبة يخرج على أثرها .
فقـ...ت : هذا هو الباطل ، لأن بعث الله رسولا لا يأخذه إلا مسنا شريفا (١) .

قال أمية : والذي يحلف به إنه هكذا .

فخرجنا حتى إذا كان بيننا وبين مكة ليلتان أدركنا راكب من خلفنا
فاذا هو يقول :

أصابك الشام بعدكم رجفة دمر أهلها فيها وأصابتهم مصائب عظيمة .

فقال أمية : كيف ترى يا أبا سفيان ؟

فقـ...ت : والله ما أظن صاحبك إلا صادقا .

وقدمنا مكة ثم انطلقت حتى جئت أرض الحبشة تاجرا ، فمكثت فيها خمسة أشهر ، ثم قدمت مكة فجماع الناس يسلمون على وفي آخرهم محمد صلى الله عليه وسلم وهند تلاعب صبيانها فلم يلبس على ورحب بي وسألني عن سفرى — ومقدمى ثم انطلق .

(١) إذن مقالة قريش : (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين) تعبير لا شعوريا صادر عن مثل هذا المستوى الوجداني وقد افتتحت هذه النزعة السفليانية الصلتية .

فقلت : والله إن هذا الفتى لعجب ، ما جاءني أحد من قریش
له معى بضاعة إلا سألتى عنها وما بلغت ووالله إن له معى لبضاعة
ما هو بأغناهم عنها ثم ما سألتى عنها .
فقلت : أو ما علمت بشأنه ؟

فقلت : — وفزعت — وما شأنه ؟

قالت : يزعم أنه رسول الله .

فذكرت قول النصارى ووجهت .

ثم قدمت الطائف فنزلت على أمية فقلت هل تذكر حديث النصارى ؟

قال : نعم .

قلت : قد كان .

قال : ومن ؟

قلت : محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم .

فتصهّب عرفا . . . وقال :

إن ظهر لنا وأنا حى لأبلىن الله فى نصره عذرا .

فعدت من اليمن فنزلت على أمية فقلت ، قد كان من أمر الرجل
ما بلغك فأين أنت منه . ؟

قال : والله ما كنت لأومن برسول من غير ثقيف أبدا^(١) .

ومع أن النص، على، بالحقائق :

* فقيه تصوير الخائب من البيئة العربية التي نشأت فيها الدعوة حيث يوجد رجال يجتذبون المحارم والمظالم ، ويصلون الأرحام .

* وأن الارهاصات بالدعوة وبدء النبوة الخاتمة اتخذت عند أهل المنطقة وضعاً مشهوراً وثقافة متداولة بين ذى الحجج .

* وأن أمية بن أبي الصبّات كان على صلة بالرهبان والأخبار للتعرف على ذات النبي المبعوث ويظهر ذلك جلياً في سؤاله أبا سفيان عن ، عتبة بن ربيعة كنموذج للرجل الذى يمكن أن يتحلى بهذه الصفات .

* وأن عتبة فقد عدة أوصاف منها السن وكثرة المال فما زال الأمل يداعب أمية .

لنا مع كل هذا يظهر غياب أبي سفيان وصدأ نفسيته ذلك انه قابل الحقائق التي ذكرها له أمية عن البعث والحساب والجنة والنار بالأمانى مع مشاهداته لأمية وهو يقرأ سفرأ ، ويعلم أن له اتصالات بعلماء أهل الكتاب .

ولانه صدق النصرارى فى كل ما قالوه لأمية عندما أخبرهم الرجل الذى كان خلفهم بالرجفة الأخيرة التي عمت الشام وذكرها الراهب لأمية على أنها العلامة الأخيرة للبعث ولكنه عندما أنبأته زوجته بأن محمداً بعث وجم حتى قالت له هند . . ما لك (١) ؟ .

(١) السيرة لابن كثير ج ١ ص ١٢٨ .

فيتنبه ويقول لها ، إن هذا هو الباطل . . . لمحو أعقل من أن يقول هذا ؟ ..

لماذا هو الباطل يا أبا سفيان وقد شاهدت أمية تتصدع مهج قلبه وينجدل على فراشه لا ينام ولا يقوم طوال الليل للأمل الذي يورقه من أجل النبوة ؟

لماذا هو الباطل يا أبا سفيان وقد صدقت النصارى في كل ماذكروه لأمية من أوصافه . وقالوا : إنه رجل من العرب ، من أهل بيت تحمجه العرب ، من اخوانكم وجيرانكم من قريش . . . ؟

لماذا يا أبا سفيان وليس غير محمد هو الأمين الصادق ؟ باجماع طبقات المجتمع كله ؟

لقد وجم أبوسفيان كما تردى في الحسة أمية حيث أعان اتباعه ، والانتصار له .

ثم أغلبته أهواء النفس وصدأ الأنانية وشهوة الفخر ، وعز القبلية الجاهلية فكفر لأنه لم يكن هو ولم يكن ثقيفيا .

ومن الآن تبرز واحدة من معالم : لماذا كفر الناس ؟

نعم ، أبوسفيان أسلم فيما بعد ولكن لهذا الموقف حسابه في نظر الإسلام
فالقاعدة القرآنية :

(لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير) آية رقم ١٠ من سورة الحديد .

وكذلك الأمر هنا فبعد جداراً منزلة أولئك السابقين الذين انتظروا البعثة بما كان عندهم من العلامات والارهاصات فلما جاءت الرسالة آمنوا وصدقوا ، ومنزلة أولئك الذين عاشوا في جو الارهاصات ، وسمعوا بها وعرفوا آياتها ثم جحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ، ظلما وعلوا يدل على ذلك الفرق البعيد ما رواه الامام مسلم رضى الله عنه :

إن أبا سفيان أتى على سلمان ، وصهيب وبلال في نفر فقالوا : والله ما أخذت سيوف الله من عنق عدو الله مأخذها . . . قال : فقال أبو بكر ، أتقول هذا لشيخ قريش وسيدهم ؟

فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فقال : يا أبا بكر ، لعلك أغضبتهم ؟ لأن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك .

فأتاهم أبو بكر فقال : يا اخوتاه . . . أغضبتكم ؟ قالوا : لا . يغفر الله لك يا أخي (١) .

(١) حديث رقم ٢٥٠٤ ص ١٩٤٧ ج ٤ مسلم اخراج المرحوم فؤاد عبد الباقي .

إن منزلة سيدنا أبي بكر رضى الله عنه معروفة انه لو وزن إيمانه بإيمان الأمة لرجح .

وسلمان الفارسى أسلم من بعيد ، لا علمه من الدلائل ويرى في أبي سفيان صورة رجل مريض القلب سيان كان أبو سفيان آنذاك مسلماً أو كافراً فرأى سلمان فيه انه كان أحق بالقتل ، فان مثله في نظر سلمان رجل مظلم القلب أعمى البصرة وبطن الأرض لمثل هذا أولى من ظهرها . . . ذلك رأى سلمان الفارسى وسيدنا أبو بكر رجل لطيف المشاعر كريم الإحساس لين الجانب يود أن يحامل أبا سفيان سيان كان آنذاك مسلماً أو كافراً فأن كان مسلماً فإنه يحب الفخر وطبيعة سيدنا أبو بكر طبيعة هادئة لا ترى ، بأساً في تحقيق رغبة أبي سفيان بأن يكون له شيء من الفخر ، وإن كان كافراً فالكلمة الطيبة عند سيدنا أبي بكر أفضل من كلمة الحساس المتأجج وإن كانتا لله رب العالمين فقال أبو بكر كلمته ثم قص الرجل الصديق ما حدث للنبي صلى الله عليه وسلم فأقر موقف سلمان وصاحبه وسأل أبا بكر : لعلك أغضبتهم فإن من أغضبهم فقد أغضب ربه . . . وتلك إذا قيلت لغير أبي بكر كان من السهل تفسيرها ، أما وقد قالها النبي صلى الله عليه وسلم لأبي بكر فقد صار معناها بعيداً وتفسيرها دقيقاً . فإن منزلة سلمان أرفع بكثير من منزلة رجل مثل أبي سفيان حتى ولو كان مسلماً للفارق البعيد بين الموقفين : موقف رجل يتركب على رسول الله يقبله لما تعرف عليه ، ورجل يصاب بالوجوم ويصف الرسالة بأن هذا هو الباطل ؟

يا أبا بكر ، لعنك أغضبتهم ، لأن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك
لا : يغفر الله لك يا أخى .

٢ - هرقل :

كان ابن الناطور يحدث أن هرقل حين قدم ايلياء بعد أن تم
لهم : (من بعد غلبهم سيغلبون) أصبح يوما وهو خبيث النفس ، لقد
تم له النصر على الفرس ولكن أصبح عبوسا قمطريرا فقال له بعض
بطارقه ، قد استنكرنا هيئتك ؟ فقال لهم هرقل : إني رأيت الليلة
حين نظرت في النجوم أن ملك الختان قد ظهر .

وهرقل لم يقل هذا عن تخطيط أو اختلال في التفكير ولكن عن علم
خاص وثقافة خاصة يقول ابن الناطور : « وكان هرقل حزاء ينظر
في النجوم » ثم سألهم هرقل ، فمن يختن من هذه الأمة ؟
قالوا : ليس يختن إلا اليهود فلا يهمنك شأنهم واكتب إلى مداين
ملكك فيقتلوا من فيهم من اليهود .

إذن هناك علامة يعرفها هرقل هي ، أن الدليل الكوني الدال على
بعثة محمد صلى الله عليه وسلم قد سطع في السماء وتعرف عليه هرقل
بعد أن تم له النصر على الفرس حسبما تشير آيات القرآن الكريم :

(ألم، غلبت الروم في أدنى الأرض ، وهم من بعد غلبهم سيغلبون ،
في بضع سنين) ، الآية ١ - ٤ من سورة الروم .

وبينا هرقل في مجاسه وتساؤله مع بطارقه أتاها رجل من غسان أرسله صاحب بصرى — ملك غسان — ليخبر هرقل بخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى كان قد حملة الصحابي الجليل دحية الكلبي .

وكان هذا خبرا يستحق التثبيت من علامات فقال هرقل : اذهبوا فانظروا أنختن هو أم لا ؟

ثم جاءوا فحدثوه أنه مختن .

فقال هرقل : هذا ملك هذه الأمة قد ظهر وأراد أن يثبت فأرسل إلى عالم مثله بمدينة رومية وكان نظيره في العلم وانصرف هرقل إلى حصن وظل ينتظر رأيه حتى أتاها كتاب من صاحبه يوافق رأيه على خروج النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنه نبي (١) .

وإذن فقد تثبت هرقل .

وتمر الأمور وتصل قافلة تجارية عربية فيها أبوسفيان بن حرب وكان كبير الركب وكان الزمن في أعقاب صالح الحديبية فيدعوهم هرقل وحوله عظماء الروم ثم يسألهم : أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبي ؟

ويجب أبوسفيان : أنا أقربهم نسباً .

(١) راجع فتح البارى متنا وشرحاً ج ١ ص ٤٥ - ٤٨ .

فيدينه هرقل منه ويجعل أصحابه خلفه عند ظهره ويطلب منهم
عن طريق المترجم إذا كذب أبوسفيان في إجابته على أسئلة هرقل
فكذبوه .

وتبدأ عملية الاختبار : الأسئلة والأجوبة .

يقول هرقل : كيف نسبه فيكم ؟

ويجيب أبوسفيان : هو فينا ذو نسب .

هل قال هذا القول منكم أحد قط قبله ؟ .

فيقول أبوسفيان : لا .

هل كان من آبائه من ملك ؟

فيقول أبوسفيان : لا .

فأشرف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم .

فيقول أبوسفيان : بل ضعفاؤهم .

أيزيدون أم ينقصون ؟

فيجيب أبوسفيان : بل يزدون .

فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟

فيرد أبوسفيان : لا

هل كنتم تهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟

فيقول أبوسفيان : لا .

! فهل يغدر ؟

فيلتوى في الإجابة فقد أحس بالصدق واضحا يهذى القلب الخاشع
إلى الإيمان بمحمد نبيا ورسولا .

ويقول : لا ونحن في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها ، مع
ملاحظة أن ذلك الحديث بعد صلح الحديبية الذي ينص على الهدنة
عشرة أعوام ، وهو شرط يلتزمه خالق محمد صلى الله عليه وسلم
وصرح به أبوسفيان في إجابته الطويلة على هرقل ، ولمكنه الوجوم
الذي أصابه في قلبه وعقله .

ثم يسأل هرقل : هل قاتلتموه ؟ ، فقال أبوسفيان : نعم .
فكيف كان قتالكم إياه ؟ . فيرد : الحرب سخال بيننا وبينه ينال
منا وننال منه .

بماذا يأمركم ؟ ، فيشرح أبوسفيان مبادئ الإسلام رغم أنه :
اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئا ، واتركوا ما يقول آباؤكم :
ويأمرنا بالصلاة .

والصدق .

والعفاف .

والصلة .

ولإذن فقد تمت معارف هرقل فاستنتج من كل إجابة إرهافسة
وعلامه :

* سألتك عن نسبه : فذكرت أنه فيكم ذو نسب فكنلك الرسل تبعث
في نسب قومها .

* وسألتك : هل قال أحد منكم هذا القول ، فذكرت ، أن لا ،
فقلت ، لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يأتسى بقول
قبيل قبله .

* وسألتك : هل كان من آبائه من ملك ، فذكرت : أن لا ، قلت :
قلو كان من آبائه من ملك ، قلت رجل يطلب ملك أبيه .

* وسألتك : هل كنتم تهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال . . .
فذكرت ، أن لا فقد أعرف أنه لم يكن ليدر الكذب على الناس
ويكذب على الله .

* وسألتك : أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟ فذكرت ، ان
ضعفاؤهم اتبعوه وهم أتباع الرسل .

* وسألتك : ايزيدون أم ينقصون ، فذكرت أنهم يزدون ، وكذلك
أمر الإيمان حتى يتم .

* وسألتك ، أيرتد أحد سخطه لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ ، فذكرت :
أن لا .

وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب .

* وسألتك ، هل يغدر ، فذكرت ، أن لا .

وكذلك الرسل لا تغدر :

* وسألتك ، بما يأمركم ، فذكرت ، أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وبينهاكم عن عبادة الأوثان ، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف ، فإن كان مما تقول حقا فسيملك موضع قدمي هاتين ، وقد كنت أعلم أنه خارج لم أكن أظن أنه منكم .

فاو أنى أعلم أنى أنخلص إليه لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه^(١) حبا وتقديرا لا طالبا لحاه ولا ولاية .

لقد تثبت هرقل كل التثبت وأقر انه كان يعلم أن نبيا سيبعث ، وأنه يتمنى أن يخلص إليه ولو كان عنده لغسل قدمه وهو الملك المعظم . . . ثم ذكر في استنتاجه من حديث أبي سفيان : أن هذا النبي سيملك ما تحت قدمه . لكن ماذا فعل هرقل ؟

لقد جاءه كتاب النبي صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الإسلام ، ويحمله مسئولية شعبه فإن الناس غالبا على دين ملوكهم وجمع البرجل

(١) راجع فتح الباري ج ١ ص ٣٥ - ٤١ .

عظماء الروم في قصره وقال لهم : « يامعشر الروم . هل لكم في الفلاح
والرشد وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبي ؟ » .

لنا فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب فوجدوها مغلقة قد غلقت
فلما رأى نفرتهم وأيس من الإيمان قال :

ردوهم على ، أنى قلت مقالتي آنفا أختبر بها شانتكم على دينكم .

لقد نخر أساقفة النجاشي ، فما اهتم ولا راعه أمرهم . وقال لهم « وإن
نخرتم » إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة .

وكان كذلك مائكاً وكان كذلك منتصراً على عدوه في حرب .

فما شغله الملك ، ولا أسكرته فرجة النصر من الاعتراف والإقرار
بالحق المبين .

أما هرقل فقد أرعبته حيصة رجاله فنافقهم وهو يعلم . أن محمداً
سيملك ما تحت قدميه مستقبلاً إن شاء الله .

وما وقف أمر هرقل عن هذا بل واجه الإسلام في حرب ضارية ،
في سرية موته سنة ثمان بعد قصته هذه وقد نزل في مائة ألف من
المشركين على ما هو معروف في السير والغزوات^(١)

(١) راجع الدرر في اختصار المغازي والسير ص ٢٢٢ ، راجع فتح الباري

ج ١ ص ٤١ ، زاد المعاد ج ٢ ص ١٥٥ ، ١٥٦ .

وتلك واحدة أخرى تبين ان انتكاسة البشر تابعة لعلّة في النفس
وضعف في الإرادة مع معرفة الحق والإقرار به فقد حصل له علم
ضروري من النظر في الأخبار والدلائل كما حدث للنجاحشي ، لكن
النجاحشي أسلم وجهه فأمن وهرقل كفر وجحد ، يقول فيه النبي
صلى الله عليه وسلم :

« كذب عدو الله ليس بمسلم »^(١) .

٣ - القرشيون :

(أ) لقي الأنخس بن شريق أبا جهل يوم بدر فقال له : يا أبا الحكم ،
أخبرني عن محمد ، أصادق هو أم كاذب ، فإنه ليس ههنا غيري
وغيرك ؟

فقال له ، والله إن محمدا لصادق وما كذب محمد قط ، ولكن
إذا ذهب بنو قصي باللواء والسقاية والحجابة والنبوة فإذا يكون لسائر
قريش^(٢) .

إذن ، محمد صادق ولكنها العنجهية والأثرة وحب الذات .

(١) فتح الباري ج ١ ص ٤١ ، راجع تثبيت دلائل النبوة ج ٢ ص ٥١٢ -
٥١٤ ومراجع هذا البحث الإسلام والايمان ص ٢٤٦ - ٢٤٨ . ط . ثانية دكتور
عبد الحليم محمود .

(٢) شرح على القرى على الشفاء ج ١ ص ١٨١ .

ويستمر أبو جهل في جهالته وتبدو أحقادهم ، تتبلور في سلوك عدائي طفولي .

لقد تشجع أمام قريش وتوعد أنه سيقتل محمدا غدا بحجر يلقيه على رأسه المخفوفة برعاية الله وظن أبو الجهالة الجاهلية أنه نافذ إلى مأربه الإبليسي ، ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم الكعبة وسجد واحتمل أبو جهل حمجره وأقبل نحو النبي الكريم والناس ينظرون إلى بطولته ولكنه سرعان ما يرجع منهزما منتقعا لونه مرعوبا قد يبيت يدها على حمجره حتى قذف الحجر من يده واستغاث برجال قريش . . . وحضروا مسرعين لقد هالهم الأمر : لأنهم لم يروا شيئا يربح قن أي شيء ارتعد البطل ؟

يقول أبو جهل المغوار المقدام :

« قمت إليه لأفعل به ما قلت لكم البارحة فلما دنوت منه عرض لي دونه فحل من الإبل ، لا والله ما رأيت مثل هامته ولا مثل قصرته — أصل عنقه — ولا أنيابه لفحل قط فهم بي أن يأكلني ^(١) .

وما اعتبر ولا تحرك وجدانه ولا عقله واستقام على ما هو عليه من الجهل والضلال

.. (ب) والنضر بن الحارث يقول :

يا معشر قريش ، انه والله قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحياة بعد قد كان محمد فيكم غلاما حدثا أرضكم فيكم وأصدقكم حديثا وأعظمكم

(١) ابن هشام ج ١ ص ٢٩٩ .

أمانة ، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم به قلتم
ساحر لا والله ما هو بساحر ، لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم ،
وقلتم كاهن ، لا والله ما هو بكاهن ، قد رأينا الكهنة وتخالجهم
وسمعنا سجعهم ، وقلتم شاعر ، لا والله ما هو بشاعر لقد رأينا الشعر
وسمعنا أصنافه كلها : هزج ورجز ، وقلتم مجنون لا والله ما هو
بمجنون ، لقد رأينا الجنون فما هو بخنقه ولا وسوسته ولا تخليطه ،
يامعشر قرئش ، فانظروا في شأنكم فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم ،
نعم ، هو أمر عظيم لا سبيل إلى تكذيبه لكن ماذا فعل النضر بن
الحارث؟

ثم قال ، أنا والله يا معشر قرئش أحسن حديثا فهمم إلى ، فلأنا
أحدثكم أحسن من حديثه . . . (١) .

فهل هذا يتصور من عاقل؟

(ج) وكان عتبة بن ربيعة أخطبوطا قميذا فاسد الرأي مع تكبره
عن الحق فيها هو يسمع القرآن الكريم فلا يجد سبيلا من أن ينخسع لذكر
الله وما نزل من الحق .

ويرجع إلى قومه وعلى شفثيه تتحرك كلمات الإسلام ويقول لهم :
« دعوا محمد وشأنه فوالله ليكونن لقوله النى سمعت نبأ عظيم » .

(١) السيرة لابن هشام ج ١ ص ٢٩٩ ، ٣٠٠ .

ولكن الرجل لا يلبث أن تعميه الجاذبية الاجتماعية الجاهلية فلا يستجيب
لله وللرسول :

يقول ابن هشام : ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها
عليه فلما سمعها منه أنصت لها ، وألقى يديه خلف ظهره معتمدا
عليهما يسمع منه ثم انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السجدة
منها فسجد ثم قال : قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك ^(١) .

وفي الحلبية : ما فهمت شيئا مما قال غير أنه أندركم صاعقة مثل
صاعقة عاد وثمود فأمسكت بفيه فأنشدته الأرحم أن يكف وقد علمت
أن محمداً صلى الله على عليه وسلم إذا قال شيئا لم يكذب فخفت أن ينزل
عليكم العذاب .

فقالوا له : ويلك ، يكلمك الرجل بالعربية لا تدرى ما قال ؟

قال : والله ما سمعت مثله ، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ،
ولا بالكهانة يامعشر قريش أطيعوني فاجعلوها إلى ، نخلوا إلى ، نخلوا
بين هذا الرجل وبين ما هو فيه ^(٢) .

ولكنه ما كان من المسلمين ، لقد رده عن الحق الألبج حياة تجتمعه
المظلمة وتقاليده الضالة وهنا ندرك أن مرحلة التمهيد للدعوة الإسلامية

(١) ابن هشام ج ١ ص ٢٩٤ حلبية ج ١ ص ٣٣٩ ، ٣٤٠ .

(٢) الحلبية ج ١ ص ٣٣٩ ، ٣٤٠ .

ينبغي أن تحتل أهمية كبيرة من الداعية المسلم لأنها تعتبر أساس المعايير التي توزن بها مواقف العاملين في حقل الدعوة الإسلامية مستقبلاً .

وأعلنا نلاحظ في هذه المرحلة التطبيقية أن هناك صفحتين :

١ — صفحة إيجابية هي التي تصور كرم النفوس التي كانت تستعد من قبل لاستقبال الهدى والنور والبعث المحمدي وكانت ترقب زمانه وتحلم بلحظته وتتمنى أن تسعد بهذا اللقاء وتشرف به وتتلذذ بحلاوة إيمانه مثلاً وجدناه تلقائياً من السيدة خديجة رضي الله عنها وورقة بن نوفل والنجاشي وبحرا ونسطورا وعبدالله بن سلام وسلمان الفارسي .

وهم جماعة من العارفين بالكتاب ، إن التوراة أو الإنجيل .
وكانوا جميعاً يعيشون لحظة الترقب للنبوة الخاتمة بنفس راضية متشوقة سعيدة بيوم اللقاء .

وقد كانت تهيئة الرسول صلى الله عليه وسلم بما أودعه الله جل شأنه من الخصائص الخاصة به هي الطرف الثاني في حلقة التمهيد بكتابتنا الظاهرتين ، ظاهرة تعبئة المجتمع بما نشره أهل الكتاب والحنفاء . . . إلخ من الدلائل والعلامات .

وظاهرة التربية الإلهية في محمد صلى الله عليه وسلم حتى كان وحده البشر السوي فمن رزقه الله قدرة الفهم والإدراك وفتح عليه بإحاطة معانيها فقد رزق الشهادة ودخل في دين الله مختاراً .

٢ - وصفحة سلبية هي التي تصور رداة النفوس الخبيثة التي ترقب الرسالة مع المترقبين وعرفت دلائلها ووعت حقيقتها فلما جاءتهم النبوة خاصة في محمد صلى الله عليه وسلم جحدوا بها ظلما وعلوا أوفستاً وعصياناً ، تكبروا وتعصبا ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فزين لهم شهوة الصد عن سبيل الله فكفروا وأفسدوا وناولوا وعدوا وشردوا وقتلوا . . . الخ ، انتقاماً لهزيمة قلوبهم وانتكاسة وجدانهم وضلالة عقولهم . . . مثلما رأيناه في تردى أمية بن أبي الصلت ، ولولبية أبي سفيان ، وضلالة هرقل ، وحيرة عتبة ، ووضاعة النضر ، وفجور أبي جهل .

وبذلك يتأكد علمياً أهمية مرحلة التمهيد للدعوة الإسلامية كما أرادها الله وأظهرها لخالقه وانتفع بها الصادقون وصاروا لها رمزا وحجة ونبراسا . . . وكما جحدوا المارقون أنانية ، وكذباً وافتراء وقومية وعتوا عن الحق والعدل والصدق فتبدأ بذلك علامات الطريق لمن شاء أن يستقيم وقد (حفت الجنة بالمكاره ^(١)) وحفت النار بالشهوات وقد أفلح من زكاها وقد حاب من دساها وإلى الله عاقبة الأمور .

(١) : الفتح الكبير ج ٣ ص ٧٣ ..

فهرست الكتاب

المرئوع	ملاحظة
تقديم لفهضرة الدكتور الأمين العام للمجمع	٣
مقدمة المؤلف	٥
الباب الأول	٢٣
الفصل الأول	٢٥
البيئة التي نشأت فيها الدعوة	٢٥
أولاً - نموذج الخلفاء	٢٨
ثانياً - نموذج الباحثين عن العدل الديني	٥٤
ثالثاً - نموذج الحكماء	٦٩
رابعاً - نموذج الخمس	٨١
خامساً - نموذج العدل الاجتماعي (حلف الفضول)	٨٧
سادساً - نموذج التقاليد والعادات	٩٣
المستوى الأخلاقي	٩٨
القاعدة والتطبيق	١٠٨
الفصل الثاني	١١٧
إعداد الرسول صلى الله عليه وسلم للرسالة	١١٧
١ - الله أعلم حيث يجعل رسالته	١١٧
٢ - ومبشراً	١٢٥

الموضوع	صفحة
٣ - فإلك بأعيننا	١٥٠
الرضاع	١٥٨
شق الصدر	١٦٦
ش مع الدكتور هيكل	١٧٧
الأول : بشريوحى '	١٧٩
الثانى : 'ر' خط	١٨٧
الثالث : كراع حول الحمى	١٩٣
اليتم والشخصية	٢٠٠
رعى الغنم والتدريب السياسى	٢١٢
العصمة	٢١٧
: الوجدان الاجتماعى	٢٢٥
العمل والعمال	٢٢٥
الأسرة	٢٣٢
العدل الاجتماعى	٢٣٤
الشذى العطر	٢٣٦
... ..	٢٤٥
الفصل الأول	٢٤٧
التحذث وطريقه	٢٤٧
علة التحذث	٢٦٢
تصفية	٢٧٦
تصحيح	٢٨١

الموضوع	صفحة
الفصل الثاني	٢٨٩
في التطبيق التاريخي	٢٨٩
تمهيد	٢٨٩
دلائل الشهوة بين إدراك الراعين وتجاهل الغافلين	٢٨٩
(أ) شهادة العشير	٣٠٤
(ب) شهادة المثقفين	٣٢٠
(ج) الاعتراف المبتور	٣٥٤
الفهرس	٣٧٧
الكاتب في سطور	٣٨١

الكاتب في سطور



الدكتور متولى شلبي

- * الدكتور متولى يوسف شلبي ،
وشهرته : رعوف شلبي ، وُلد في
١٩٣٠-٩-٢٣ بالحلوات شرقية .
- * حصل على الثانوية الأزهرية عام
١٩٥٣ من معهد الزقازيق الديني .
- * حصل على الشهادة العالية من كلية
أصول الدين - جامعة الأزهر
عام ١٩٥٨ م .
- * حصل على شهادة العالمية مع إجازة التدريس عام ١٩٦٠ م .
- * التحق بتخصص المادة عام ١٩٥٨-١٩٥٩ م .
- * حصل على شهادة الماجستير في الدعوة عام ١٩٧٠ م من كلية
أصول الدين جامعة الأزهر .
- * حصل على الدكتوراه في الدعوة بامتياز مع مرتبة الشرف الأولى
عام ١٩٧٣ م من كلية أصول الدين - جامعة الأزهر .
- * بدأ حياته العملية مدرسا بمعهد طهطا الديني ثم سكرتيرا ، خاصا
للدكتور الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر .

* اختير مبعوثاً من الأزهر إلى أندونيسيا في الفترة من ١٩٦٤-١٩٦٨ وعمل هناك مدرسا بالجامعة الإسلامية الحكومية بسومطرة ، وأنشأ عدة مدارس في سومطرة .

* كان له شرف البدء في تأسيس سلسلة البحوث الإسلامية والسلاسل الأخرى ، كما كان له شرف تأسيس مركز البحوث الإسلامية في ماليزيا وإدارته لمدة عامين ١٩٧١-١٩٧٣ ثم عاد للعمل بالجامعة .

* عين مدرسا للدعوة بكلية أصول الدين - جامعة الأزهر بالقاهرة .
* له كثير من المقالات والأنشطة في الصحف والمجلات الإسلامية في الداخل والخارج :

* له كثير من المؤلفات ومنها :

١- (أضواء على المسيحية) بالعربية والمالوية .

٢- (ندوة للشباب في رمضان) .

٣- (أسس العمل الاقتصادي في الإسلام) باللغة المالوية .

٤- (في ساحة قصر الإمام الغزالي) باللغة المالوية .

٥- تحقيق وتعليق على كتاب (بستان العارفين) .

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الاميرية

وكيل اول

رئيس مجلس الادارة

على سلطان على

رقم الإيداع بدار الكتب ٤٧٩٣ / ١٩٧٣

الهيئة العامة لشئون المطابع الاميرية

١٤١٣٠هـ - ١٩٧٣م - ١٣٠٠٢

ترقبوا العدد القادم :

في ٢٠ من رمضان المعظم ١٣٩٣ هـ :

كتاب

واقعية المنهج القرآني

تأليف

الأستاذ توفيق محمد سبع

